

الطريق
إلى شارع يافا

عمار الزبن

-سجن رامون الصهيوني-

صحراء النقب - فلسطين المحتلة



الطريق إلى شارع يافا

البرنامج الوطني لدار الكتب الفلسطينية
بطاقة فهرسة أثناء النشر
وزارة الثقافة - الإدارة العامة للمكتبات والمخطوطات

الزبن، عمار عبد الرحمن
الطريق إلى شارع يافا / عمار عبد الرحمن الزبن - غزة: دائرة الإعلام العسكري - كتائب الشهيد عز الدين القسام، 2020م.
(336) ص: 21 * 14.8 سم
رقم الإيداع: 2020/1286

إهداء

إلى رجل سكتت عنه الأقلام ولم تقف على بابه الأضواء

فعاش رغم مرضه جبلاً يحمي ظهر المقاومة بصمت ورحل بصمتٍ كما عاش..

إلى أستاذنا وقائدنا الشهيد «زهير لُبّادة» أبو رشيد

وإلى كل رجال الظل -وما أكثرهم- الذين دفعوا بعطائهم مسيرة الجهاد.. والمقاومة،

ولم تَفُتَّ من عضدهم المحن والأهوال..

وإلى أبطال الرواية والأرحام الطاهرة التي أنجبتهم..

وإلى أمّي وأبي وأخي الشهيد -رحمهم الله- وزوجتي الصابرة

وأولادي: بشائر النصر وبيسان ومهند وصلاح الدين وشقيقتيّ ميرفت وميّ.





«هـؤلاء الرجال صنعـوا التاريخ في زمن التخاذل والانكسـار، وأثبتـوا أنَّ الإرادة إذا اجتمعـت مع قليـل مـن الأسـباب تحققـت المعجـزات، وقـد أكرمنـي اللـه عـز وجـل، أن كنـتُ شـاهدًا عـلى ذلـك، وبقيـتُ حتـى أروي حكايتهم»

أبو أيمن



تقديم[1]

الحمد لله رب العالمين، ناصر المؤمنين، ومذلّ الكافرين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وقائد المجاهدين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن سار على هداه بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها من نعمة..

والحمد لله الذي أكرمنا بالجهاد والرباط على أرض فلسطين...

لقد منّ الله على أمّة محمد صلى الله عليه وسلم بأعظم النعم بعد نعمة الإسلام، ألا وهي نعمة الجهاد في سبيل الله، إنها لذروة الإسلام بحق، والمسلمون فيها متفاوتون، فمنهم من أخذ منها بحظ وافر ومنهم مَن أخذ منها بحظ قليل ومنهم مَن فاتته هذه النعمة.

وكان قدرنا نحن الشعب الفلسطيني أن يكون لنا مكان الريادة بين الأمم جميعاً.. نحمل المشعل لنضيء به السالكين إلى الهدى ونصرة هذا الدين، نكون جسراً تمر عليه الأجيال من بعدنا، وشتان بين من يموت ليحيى الناس من بعده، ومن يعيش ليموت الناس من بعده.

وقد أكرمنا رب العزة فوق هذه النعم بشباب عشقوا الموت لأجل الله، وهم عضد هذه الأمّة وحاضرها ومستقبلها وأجلها المرتقب، فمنهم

١ هذه الكلمات الذهبية كتبتها الخنساء رحمها الله عام 2006 عندما كانت الرواية مشروع كتاب.

مـن غُيِّبـوا خلـف القضبـان وفقـدوا حريتهم لنعيـش نحن أحـراراً، ولتصنع عذاباتهـم مجـد أمـة تليـد، ليعـود تـبرق أنواره مـن جديد.

فهنيئـاً لمـن صنـع ولـو خيطـاً واحـداً من نسـيخ النـصر المُرتقَـب، وإنّه لآتٍ بـإذن اللـه ولو بعـد حين..

فلمؤلّـف هـذا الكتـاب منّـي ومـن الجميـع كل التمنّيـات بفـرج قريـب ولإخوانه في السـجون كافّة، وأسـأل الله العليّ القدير أن يجعل من محنتهم مِنحـة، يلقـون بهـا رب العـزّة وهـو راضٍ عنهـم إن شـاء اللـه، فـإذا كانـت هـذه الطريـق وهي سـبيل المؤمنين الشرفـاء توصلنا إلى رضـا الرحمن، وإلى جنـة عرضهـا السـماوات والأرض، فلتهـن فيهـا كل الآلام والصعـاب، ومَـن أراد طريـق ذات الشـوكة فليُشـمّر لهـا، فسـلعة اللـه غاليـة... ألا إنّ سـلعة اللـه هـي الجنة.

فبـشراك يـا أبا البشـائر إن سـلكت هذا الـدرب، بجنان ونهـر ومقعد صدق عند مليـكٍ مقتدر.

تمنّيـاتي لـك ولجميع إخـواني وأبنائي وبناتي الأسرى والمعَذّبـين بأن يجعل الله فرجـاً أقـرب مـما يظنّـون، وأن يجعـل لـك هذا الكتـاب في ميزان حسـناتك وجـزاك اللـه عـن كل مَن قرأه خـير الجزاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّك الداعية لك (أم نضال فرحات)

لحظة الصفر

وقـف ينظـر المـكان الممتد عـلى طول بـصره، يعدّ أنفـاس العابريـن هناك، يقـرأ الوجـوه، يتفرسـها، يبحـث عـن سـبب يـرده عنهـا، يفتـش عـن عـذرٍ يمنعـه عنهـا، لكنهـا لا تكـترث، تمـرّ عنـه بـلا خجل، تقتـل فيه أمـل الرجوع عنهـا، صفـراءُ كانـت، سـوداءُ، حمـراءُ، حنطيـةٌ، وألـوانٌ غريبـةٌ كسـاكنيها، تحمـلُ في قسـماتها، حكايتـه القديمـة، سـحقاً!! صرخ في أعـماق وجعـه فارتـدت ألمـاً: مـن أقحمـك في عينـيّ اللحظـة؟! ألـن تكفّـي عـن كاهـلي؟! إنهـا لحظـة الصفـر، ألا تؤمنـين بتصفـير الحكايـات؟! كان عليـك أن ترديني عنـك قبيـل لحظات، عندمـا كنت تمتلكـين الخيار، خيار الكـف عن طعني، قتـلي، تمزيقـي، زرع المـوت في الطرقـات، والآن...!!

- كان يرقـب أخويـه وهـما يتموضعـان أقـصى الطريـق وأوسـطه الممتلـئ عـن بكـرة أبيـه بالمـارة حيـث الاكتظـاظ المعتـاد في هذه السـاعة مـن بعد الظهـيرة، لم يغيبـا عـن ناظريـه، راقبهـما جيـداً وهـو يتخـذ بدايـة الطريـق نقطتـه الأهـم، ولمـا تأكـد بـأن الخطـة تسـير كـما رسـمها بنفسـه ابتسـم كعادتـه التـي لم تفارقـه حتـى لحظـة استشـهاده ثـم قـال:

«وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى».

صيف ستة وتسعين وتسعمائة وألف

«قبل عام ونيّف»

كانا يطويان المسافة ركضاً كالريح التي اختفت في ليل حزيران إلا من نسماتٍ ساحرةٍ تراقص أشجار الزيتون واللّوز التي ابتلعتهما في أحضانها، عاشقين رائعين من روائع السماء الساهرة على حكايتهما يقفزان من فوق العوائق الحجرية التي هندسها أهل الجبال المطلّة على القرية ويسمونها «السناسل» ينهار بعضها فيحدث قرقعة جميلة لطالما أطربت محمود طفلاً، يبحث في حواشيها عن بيض «الشنّار» وأفراخ الأفاعي لكنها الليلة تفضحهما، ترشد الرصاص المنهمر في كل الاتجاهات عليهما، لولا تشتت القرقعة عبر ارتدادات الصوت لكانا هدفاً محققاً تقع القنبلة اليدوية من مخبئها عن خاصرة محمود فيلتقطها وهو يحث خليل للحاق به، للقفز كما يقفز، لاختراق أشتال الشوك التي كانت تنغرس في لحمهما، يزحفان عندما يكشف القمر مكانهما وقد كانا قبل قليل يتغزلان به عروساً تطل من السماء على «عصيرة الشمالية» الساكنة على أعالي الجبال الشمالية لنابلس، حيث قررا رصد المستوطنة المقامة أعلى قمة عيبال.

- يقول محمود مجادلاً بابتسامته الجميلة وبريق عينيه الخضراوين، اللتين لم يخفِهما سواد تلك الليلة، وقد جلسا يستريحان قرب تلة

ترابيـة بجانـب الطريـق: «هـذه ليسـت مسـتوطنة». - فـيرد خليـل بصوتٍ منخفـض وهو يحتضن رشـاش الكارلوغسـتاف: منـذ ولادتي وأنا أرى أعمدة الـرادار المطلـة عـلى المدينة، نراها حتى من صفوف مدارسـنا من الشـوارع والأحيـاء «يضحـك خليـل» حتـى أن بعضنـا كان يـردد ببسـطاته أسـطورةً أظنهـا مـن صناعـة المخابـرات الصهيونية.

- فيكمـل محمـود وهـو يرقـبُ امتـداد الشـارع الـذي يصعـد باتجـاه المسـتوطنة: إن أجهـزة التصويـر والتنصـت تـراك وتسـمعك وأنـت داخـل بيتـك، هـذا يعرفـه الصغـير والكبـير في قريتنـا، لكـنّ الذي يجهلـه جلّ أهل المدينـة، أن هـذه الأعمدة الضخمـة، أجهزة رصدٍ إلكترونيـة لمراقبة الحدود الشرقيـة لفلسـطين مـع الأردن.

- شيء جميـل -يعلّـق خليـل- هـذه المعلومة تفـرض علينا تطويـر عمليتنا في المستوطنة.

- يضحـك محمـود: ما زلت مصرًا على تسـميتها مسـتوطنة، لا بـأس، فلنبدأ بالتجهيـز لذلك من هـذه اللحظة.

ولم يكـد ينهـي كلامـه حتـى تفاجـآ بأمـرٍ عجـزت «أغاثا كريسـتي» بجلالة قدرهـا وقلمهـا عـن تخيلـه في روائعهـا البوليسـية، جنـديٌ صهيـوني بكامل عتـاده العسـكري يقـف أمامهـما وجهـاً لوجـه، تلتقـي الأعـين فـلا تحلـل الموقـف في الأجـزاء الأولى مـن الثانيـة الزمنيـة، فهما يجلسـان وهـو واقف ينـوي تفريـغ مثانتـه من البول، وسرعـان ما التقت صرختـه بالرصاصة التي أطلقهـا خليـل مـن رشاشـه لتسـتقر في صـدره فيبـدأ بقيـة الجنـود بإطلاق النـار دون تحديـد هدف.

- يصـل المجاهـدان عـلى أطـراف القرية فـلا يدخلها محمود فيسـأله خليل وكلاهـما منهك مـن التعـب والصدمة: ألن نذهب للشـقة؟!

- لا، الأفضـل أن نصعـد الجبـال في الطـرف الآخـر للقريـة وبهـذا نضللهـم حـال تعقبنا.

- هذا جيد، ولكن، يلزمنا سلاح بعد أن فقدنا القنبلتين اليدويتين.

- لا بأس، سيتوفر ذلك بعد قليل إن شاء الله.

- كان خليـل يسـلم قيـاده بالكامـل لمحمـود كونـه في ضيافتـه ولأنـه يجهل تمامـاً تضاريـس المـكان وليتـه لم يفعـل ذلـك، فقـد سـقطت قدمـاه مـن التعـب وهـو يسـير خلف محمود مسـافات شاسـعةٍ عـبر الجبـال، أضحكه ذلـك عندمـا كان يسـأل: متـى سـنصل يـا رجـل؟! لقـد ابتعدنا عـن الخطر مسـافة سـنة ضوئيـة، لا تنـس بأننـي لسـت فلاحـاً مثلك.

- يقـف محمـود في أرضٍ شـبه مسـتويةٍ في بطـون الجبال، ويلتفـت مخاطباً خليـل: لقـد اسـتحقيت الآن لقب فلاّح، لقـد وصلنا.

- جـال خليـل ببـصره في المـكان جيـداً، لم يـر سـوى أشـجار الزيتـون، فاسـتغرب قائـلاً: يـا أخي، هكـذا سننكشـف إذا أطلقوا القنابـل المضيئة في السـماء، صحيـح بـأن الأشـجار..! توقـف عـن الـكلام وهـو يشـاهد محمود يزيـل بعـض الأغصـان المهملة عـن الأرض، ويبـدأ بإزاحة التراب مـن تحتها، وسرعـان مـا اتضـح السر، بـاب المغـارة!!

- ابتسـم خليل، بل ضحكت عيناه: لا إله إلا الله، مغارة في أرض مسـتوية؟! ما هذه العبقرية؟!

- شعر محمود بالفخر وهو يسمع أول رد من أول شخص يرى هذا السر الممتد منذ قرابة العام: معاوية وإخوانه!

- رفع خليل حاجبيه مندهشاً وهو يشير بإصبعه إلى أسفل باتجاه المغارة.

- فيرد محمود بالكلام: نعم، إنهم في الأسفل، وسيلحق بنا بعد قليل يوسف وبشار فهما في وردية المراقبة ليس بعيداً من هنا.

- لهذا أعطيت الإشارة من فمك عندما اقتربنا، لقد شككت بذلك.

- نزل الاثنان من الفتحة الأرضية التي تتسع لشخصٍ واحدٍ بعد أن أعطيا كلمة السر المتفق عليها، ومع ذلك وجدا بندقيتين ترتفع فوهتهما إلى أعلى في استقبالهما، وسرعان ما تحولت لغة البنادق إلى عناقٍ حارٍ بين الأربعة؛ لأنهم كانوا يخشون وقوع قائدهم محمود في كمين بعد أن سمعوا صوت الرصاص الكثيف ولم يكونوا قد التقوا بعد بخليل الذي أصرّوا على لقائه لبسط مسألتهم التي عجز قائدهم المباشر محمود عن حلها!!



الخطوط الخلفية ومسجد الحنبلي!

أسرع مهند مغادراً بعد محاضرته الأخيرة في كلية الشريعة التي أصرّ أن يدخلها رغم حصوله على معدّل يفوق الثمانين بالمئة يؤهله دراسة أي تخصص في العلوم الإنسانية، حتى يغير ما كان يراه تارةً جهلاً وتارةً أخرى مؤامرة؛ لأن كلية الشريعة تحديداً كانت تقبلُ أدنى المعدلات والذي معناه كما كان يردد مهند مستاءً: أستغرب من هذه السياسة الخرقاء، يريدون إنتاج أشباه علماء بالدين بدلاً من الحرص على حفظ حضارتنا وثقافتنا الإسلامية بإيجاد العالم النبيه المثقف، وفي النهاية، يحصد المجتمع ما زرعت أيديهم، والكاسب الاحتلال.

- لم يفته الموعد قبل أذان الظهر في المسجد الحنبلي وسط الأسواق المكتظة بالباعة والمتسوقين.. حيث دخل كبقية الناس التي ترتاد المسجد في كل الأوقات هروباً من حر الصيف أحياناً لكسب الهواء البارد وأحياناً لقضاء الحاجة الاضطرارية، فكان السبب الأخير حجته الأمثل، رغم ذلك، لم تكن المراحيض مكتظة فدخل الحمّام الأخير ناحية اليسار وهناك حلَّ خيطًا صغيراً عن سلة المهملات قبل أن يرفعها ليجد أسفلها رسالة محكمة الإغلاق قد أُلصقت بلاصق متين، فحلَّها وألصق رسالة مكانها، كنا قد كتبناها معاً لخليل، ثم وضع خيطاً بلون آخر على السلة في إشارة لتفريغ النقطة الميتة وعلى الفور، غادر المسجد من الباب الشرقي غير الذي دخل منه قبل دقائق، وكان على ضابط

الاتصال الذي يعمل مع خليل أن يعود بعد انتهاء الصلاة للتأكد من تفريغ النقطة وأخذ الشحن الجديد وإزالة العلامات.

- انتظرني مهند عند المدخل الخلفي لبيته حتى لا يلحظ اجتماعنا أحد، فلم يعد بمقدورنا اللقاء على أعين الناس بعد أن افترق طريقنا- ظاهرياً- بانضمامي للسلطة الفلسطينية التي كانت إفرازاً طبيعياً لاتفاق أوسلو وابتعادي بالمحصلة عن نهج المقاومة الذي كنت أنتمي إليه قبل أشهر معدودة يشاركني فيه مهند الذي لا يزال يجهر بذلك دون أدنى خشية، حيث دخلت سلك الشرطة الفلسطينية: هل أحضرت الرسالة؟!

- نعم، ولكن ارتح قليلاً ريثما يجهز الشاي الذي تحبه.

- لا أستطيع، فالدوام سيبدأ بعد قليل لا أريد التأخر.

- فتحت الرسالة في غياب مهند الطاهر، الذي يصر أن يكون أهلاً لكل شيء حتى آخر رمق، لم يفكر لحظة قبل شهرين عندما أخبرته عن خليل، الطالب في جامعة بيرزيت الذي تطارده أجهزة أمن العدو والسلطة الفلسطينية على حد سواء وينوي العودة إلى المدينة فسارع لتجهيز الغرفة التي نجلس فيها الآن لتكون مقراً له، ولم تكن جاهزة للسكن كبقية الشقة في العمارة المملوكة لأبيه وأعمامه، حيث يسكن مع عائلته في البيت القديم بمحاذاة البناية الجديدة على تخوم حارة القيسارية في البلدة القديمة، حينها طاردتني أمي وأنا أختطف سرير شقيقي الشهيد حتى ينام عليه خليل: أين تذهب بالسرير؟!.. وكانت تنقض عليَّ كاللبؤة: على رسلك يا أمي، ألا تحبين أن تبقى سيرة أخي حيّة تنبض بالحياة؟! فنظرت إليّ مطولاً وقد أدركت أن الحكاية لم تنته بدخولي الشرطة، فلزمت الصمت بعد أن قالت: لقد عدت إلى سيرتك

القديمـة ولكـن!! تذكـر أمراً واحـداً، زوجتـك وابنتك الرضيعة، وتلـك الليلة! ها، لا تنسَـها!

- مـا فتئـت أمـي تذكـرني بأسـوأ لحظـات عمرهـا عندمـا فتحـت وأبي باب البيـت في الواحـدة صباحـاً، مطمئنـةً بـكل ثقـةٍ أنهـا لـن تجـد مـا اعتادت عـلى رؤيتـه سـابقاً أثنـاء اعتقـالي وأخـي مـن جانـب الاحتلال لمـراتٍ ثلاث، فقـد انسـحب العـدو الصهيـوني مـن المـدن وفـق اتفاقيـة أوسـلو ولم يعـد ممكنـاً أن تـرى المشـهد المـؤلم مـرةً أخـرى لكنهـا بعـد ثلاثـة أشـهر مـن الانسـحاب تراهـم مـرةً رابعـة ولكـن! بثيـابٍ جديدة ولغـة عربيـة متقنة: أيـن أبـو أيمن؟!

- كادت أمي المكلومة بفقدان شـقيقي الشـهيد قبل عام ونصف، السـقوط عـلى الأرض من هـول الصدمة: ومن تكونون حضرتكـم؟! –قالتها متهكمة.

- نحن المخابرات الفلسطينية!

- فردت غاضبة هذه المرة: ألا تعرفون أي الأبواب تطرقون؟!

- نعرف، وهناك أمرٌ باعتقال «أبو أيمن».

- فصرخـت في وجوههـم: ألم ننتـه مـن اليهـود حتـى تأتـوا أنتـم؟! على كل حـال، هـو ليـس في البيت.

- يجب أن يسلم نفسه.

- قلت لكم ليس في البيت، إنه عندكم!

- ماذا تقصدين بذلك؟!

- إنه في جهاز الشرطة، يتدرب هناك.

- تقـول أمـي وهـي تـشرح لي ما حصـل، بعـد قدومها إلى مقـر التدريب في

سجن نابلس القديم حيث مقر الشرطة الخاصة: لقد امتقعت وجوههم بالسواد لدى معرفتهم أنك في الشرطة.

- تدخلت في حينها أوساط عائلية نافذة في السلطة لإلغاء أمر الاعتقال والذي سيعرف فيما بعد بالاعتقال السياسي، حيث كنت واحداً من أول دفعة اعتقالات، أعقبت عمليات الثأر لاغتيال المهندس يحيى عياش، صانع العمليات الاستشهادية ضد الاحتلال في فلسطين.

- رأى مهند الامتعاض على وجهي بعد دخوله بالشاي، والرسالة بين يديّ.

- يبدو أننا ما زلنا في مرحلة الاختبار لدى خليل أليس كذلك؟! – قالها مازحاً.

- المشكلة أننا لا نستطيع إخباره بشيء عن عملنا السابق حتى يطمئن!

- أبعد مهند كأس الشاي عن فمه بسرعة وهو يجلس خلف ماكينة الخياطة التي كان يعتمد عليها في مصاريفه الجامعية: احذر يا أخي أن تفعل ذلك، ليس من شأن أحد أن يعلم بأمرنا، سنصبر حتى يكتفي الأخ بتدريبنا عبر النقاط الميتة. – وعاود الضحك وشرب الشاي مجدداً، ثم ما لبث أن استدرك: لو كنت مكان خليل لفكرت ألف مرة قبل العمل معك بصورة مباشرة، فأنت شرطي في أجهزة الأمن التي تطارده، وأيضًا...!!

- دعك من هذا، فأنت آخر من يحق له الكلام عن ذلك، ألست أول الموافقين على دخولي الشرطة؟!

- ازداد مهند ضحكاً وقد نجح بحجزي لديه فترة أطول، وفجأة قال لي وهو يقرأ الرسالة المكتوبة بطريقة المربعات: انظر، الرجل يطلب منا

مراقبـة الشـارع الرئيـس الرابط ما بين معسـكر حـوارة وواد البـاذان، أليس هـذا عملاً؟!

- سأكتب له أننا نحفظه عن ظهر قلب، ثم أريد أن أطلعك على أمر..

- خيراً إن شاء الله؟!

- تحدثـت مـع الأخ الـذي فتـح لنـا الطريـق مـع خليـل، فلـم يخـف حذره منـي في البدايـة لكنـه أردف بالقـول: أظنـه اطمـئن لك. - غمـز مهند بعينه قبـل أن يفتـح النافـذة المطلة على مدرسـة جعفـر بن أبي طالـب الابتدائية والتـي درسـنا فيهـا معـاً: أتمنـى ألا يتم كشـفنا مـن حيث لا نحتسـب، لقد حافظنـا عـلى سرنـا عامـين كاملين ولـولا خروج صاحبنـا إلى غزة، لما احتجنا الآن لفتـح خطـوط جديدة.

- رحمه الله، لماذا لم تخبرني عندما التقيته صدفة في بيتك، أنه هو!

- لأنـه هـو، مـن علمنـا ذلك. ثـم تقدم نحوي ومـا زال يقدمني على نفسـه منـذ أن كنـت وإيـاه نقود العمـل الطلابي في مدارسـنا في انتفاضـة الحجارة أواخـر ثمانينـات القـرن العشريـن، عـلى الرغـم مـن انتخابنا لـه بعد خمس سـنوات مـن ذلـك ليصبـح أول قائـد منتخـب لأول عمليـة اقـتراع سري نجريهـا كأعضـاءٍ في الحركـة في مسـجدنا والمنطقـة: السـبب الـذي منعنـي مـن كشـف شـخصية المهنـدس أمامـك ذاتـه الـذي يمنعـك مـن فتـح بعض الرسـائل الـواردة مـن خليـل أمامـي، ومـع ذلك لسـت متضايقـاً، إنما!!

– أمسـكني مـن ياقـة قميـصي العسـكري بكلتـا يديـه: إيـاك أن تسـبقني لطاعـةٍ فيهـا مقارعـةٌ للعـدو، كتفـي عـلى كتفـك ويـدي بيـدك، عشـنا معاً ونمـوت معاً بـإذن الله.

"حوارٌ في المغارة"

جلس خليل يلتقط أجمل انفعالات إنسانية وظهره على الجدار الترابي للغرفة المتقنة، والتي لم تصنع على عجل، كلمات متلاحقة، ضحكات، عتاب، أسئلة هجومية: لقد أفزعتنا..، قالها توفيق وهو يتربع على الأرض قبالة محمود، قبل أن يقطع معاوية حديثه: بل أمتنا من الخوف وكأنّ الرصاص كان يمزق أرواحنا.

- سارع محمود لإيقافهما بضحكته الهادئة: على رسلكما، وكأنكما لستما مع أخويكما بشار ويوسف، من يطاردني كلّ لحظةٍ لـ.... وأشار بكلتا يديه للأعلى مصحوباً بصوت انفجارٍ أطلقه من فمه، فصوّب توفيق إصبعه نحو فم محمود: أرأيت؟! أنت قلت ذلك بفمك، فوكزه معاوية وهو يحدق بعينيه: توفيق يقصد سلامتك أولاً، وبالطبع! ما أشرت إليه الآن، فلو رحلت شهيداً، ماذا سيحل لمشروعنا؟ ومع ذلك، هناك أمرٌ آخر كان سيفوتك لو سبقتنا إلى السماء!

- لم يعد خليل مطارداً برهبة الموقف الذي عاشه قبل لحظات، لقد أنسته المغارة وأنفاسها، ما ينبغي أن يكون عليه طالب جامعي سليل أسرة ثرية يمتلك معيلها محلًا للصرافة، وجد نفسه بين عشية وضحاها، ملاحقاً في بطون الجبال، فبات اللحظة، يود ألا يسكت هؤلاء الرجال عن الكلام، يستحلفهم أن يستمروا بتطويع المنطق وكتابة التاريخ من

جديـد - فقـال: يبـدو أن كثـيراً قـد فاتنـا، أو بالأحـرى فاتـك. وكان يوجـه حديثـه لمحمـود الـذي كان يسـتمتع بتناول حبـاتٍ من التين، فابتسـم وهو يقـدم لـه حبـة تينٍ تفجرت نضوجـاً: إن كتب اللـه لنا الحيـاة في قابل الأيام سـترى مـا يفرحـك من هـؤلاء الرجـال. فـسُرّ المجاهدان للإشـارة.

- اكتفـى خليـل بابتسـامته التـي اخترقت وجـدان معاوية وتوفيـق، اللذين يتصـدران المـشروع الـذي يطـاردان به محمود منـذ أكثر من عـام، وفي تلك اللحظـة التـي مـا زال فيهـا خليل منفعلاً مـن كل شيء حوله، جاءت إشـارة مقدم يوسـف وبشّـار اللذيـن نزلا إلى المغارة أو الغرفـة أو الملجأ الأرضي، لم يكـن التعريـف مهـماً بقـدر أهمية الاخـتراع التمويهـي الـذي أبدعه هؤلاء الرجـال في حربهـم الخفيـة مـع محتـل يترصدهـم في كل زاويـة وواد وجبل –ذات الاندفـاع العاطفـي والحميميـة الخالصـة انصبّـت عـلى محمـود من كلا المقاتلـين وهـما يعانقانـه كأنهما اسـتعاداه بعـد فقدان، فقـال معاوية: هـا قـد جاءا ليخـبراك بنفسـيهما عن الأمـر الآخر.

– فاسـتدرك بشّـار بسرعـة: يـا رجـل عـن أي أمـر تتحـدث ونحـن نحتفـل بزيـارة أخينـا.. توقـف عـن الحديـث وهـو يشـير بخجـلٍ إلى خليـل الـذي لم يعرفـوا اسـمه وإن قـدروا أنـه العنـوان لمسـألتهم التـي يتباطـأ محمـود بالإجابـة عليهـا وقـد وعدهـم بإحضـار مـن لديـه القـول الفصـل في ذلـك، فبـادر محمـود بالقـول: خليـل... - فقـال توفيق الذي كان يسـتعد للصعود إلى سـطح الأرض للمراقبـة: إذن نحتفـل عـلى شرف أخينـا خليـل.. ثـم توقـف طمعـاً بالإثـارة، فصرخ عليـه المقاتلـون: تكلم يا رجـل، لقد أرهقت أعصـاب شـيخك وأخينـا خليـل فاسـتأنف: لقـد أتـمّ يوسـف وبشـار حفظ القـرآن الكريـم كامـلاً والحمـد لله.

- فضجّت المغارة بالعناق مجدداً لكن الانفعال الأبرز هذه المرة كان على وجه محمود الذي لم تستطع شمس الجبال أن تغيّر كثيراً في شقاره، فأربعتهم، يعلمون جيداً وقع الأمر على صدره، ليس لذات حفظ القرآن -على أهميته- وحسب، كما قرأه خليل المحاط علماً بذلك، إنما لذكرى ترتبط بماضٍ قريبٍ زمنياً وعميق أثراً وأهمية، يوم أن كان مدرّسًا للقرآن الكريم في مسجد القرية بعد اعتقاله الأخير ما قبل المطاردة، وخمستهم يلتفون حوله في حلقة الحفظ، ينكبّون على تعلّم القرآن بنهمٍ واضح، يبحثون عن شيء لدى المعلّم لا يستقيم الحفظ بدونه!!

- يقول بشار الذي يحمل بيده راديو صغير، يرافق المجموعة منذ أن اعتلت الجبال مختفية عن الأنظار: يبدو أنّ الخير قد اجتمع في مغارتنا اليوم.

- فسارعه محمود بالسؤال: هات ما عندك، ماذا سمعت لنا؟!

- قبل كل شيء، أن تشرفنا بزيارة أخينا خليل، مصحوباً بسلامتكما، ثم بإتمام الحفظ الذي بدأناه معك – لحظتها انفجر الخمسة بالضحك وخليل يتفاعل مع ذلك – وها هو الراديو، يحتفل معنا على طريقته! لقد أعلن راديو العدو باللغة العربية أن أحد جنوده يصارع الموت بعد إصابته الخطرة على قمة جبل عيبال.

- فكبّر محمود وخليل وسجدا شكراً لله.

- وسرعان ما سأل معاوية مستغرباً وهو يحمل رشاش الكارلوغستاف الذي كان بحوزة خليل: هل أصيب الجندي بهذه البندقية المجنونة ولم تتوقف عن العمل؟!

- هي طلقة واحدة –أجاب محمود– أطلقها خليل.

- فقـال يوسـف: الحمـد لله أنكما لم تضطرا لاسـتخدام غيرها وإلا...! توقف عـن الحديـث. فسـأله خليل الذي ما زال مسـتمتعاً بتلقائية هـؤلاء الرجال ولهجتهم القرويـة الجميلة: وإلاّ ماذا؟!

- وإلاّ خذلكـم كـما خذلنـا يومهـا!! وكان جميعهـم يبتسـم وهـو ينظـر إلى وجـه محمـود الـذي قـال: قـدّر اللـه وما شـاء فعـل، لا تنظروا للـوراء، هي معركـة يتلوهـا معارك ولا داعي لتحميل المسـؤولية لهـذه القطعة الجميلة – وقبَّـل البندقيـة فأثـاره شيء دفعـه للنظـر إلى وجـه خليـل متسـائلاً: لم أرك تفتـح صـمّام الأمـان «وتسـحب الأقسـام» قبـل أن تطلـق النـار عـلى الجندي؟!

- ابتسم خليل قبل أن يجيب: لم أفعل!

– سـادت لحظـة صمـت في المغـارة لم يسـتطع أحـد التعقيـب، فالبندقيـة، رغـم قدمهـا الـذي يعـود إلى الحـرب العالميـة الأولى، إلا أنهـا لا تعمل بغير ذلـك، وسـتظل هـذه الحكايـة في قلـب محمـود يحدثهـا لأصفيائـه فقـط، وكنـت ومهنـد منهم.

- كنـا مسـتعدين جيـداً –يقـول يوسـف– راقبنـا الطريق لأيام عـدة، رصدنا حركـة الجيـش والمسـتوطنين وأخذنا جميـع احتياطاتنـا وفي اللحظة الأخيرة مـا قبـل التنفيـذ! – صمـت قليـلاً وهـو ينظـر إلى عينـي خليـل: كشـف المتطفلـون مخبـأ سـيارة التنفيذ.

- فألغيتـم العمليـة! – عقب خليل وسـط ابتسـامة يوسـف وبشـار اللذين كانـا ينظـران بخجـلٍ إلى وجـه محمود والـذي بدوره طالب يوسـف بإكمال

حديثه: لم نلغها، بل أصرينا على تنفيذها في الموعد المقرر ولكن! دون استخدام السيارة تلك إنما!!

- باستبدالها بسيارة شقيقي! – قالها محمود وهو يلوّح بكلتا يديه مازحاً كعادته.

- ماذا؟! – تفاجأ خليل- نفذتم بسيارة رسمية؟!

- ثم ما لبث أن سكت فجأة وهو يهز برأسه من أعلى إلى أسفل: ذات الأخطاء، نرتكبها جميعاً وندفع ثمنها غالياً ولكن!- رفع إصبعه وهو ينظر في وجوه ثلاثتهم بعد أن غادر معاوية وتوفيق لمناوبة المراقبة – حسبنا أننا مقاتلو حرية بعنا أنفسنا لله. ولن يضيرنا كشف العدو لنا، الأهم أن نتعلم من أخطائنا، وخطئي ليس بعيداً عن ذلك.

– فانفرجت أسارير يوسف وبشار، في الوقت الذي قال فيه محمود: إذن سهرتنا الليلة، ستكون حتى صلاة الفجر، فقد أصبح لدينا قصة أخرى تروى كي نسجلها في صفحات صدورنا وعقولنا.

- لكن! نسمع أولًا ما حدث مع سيارة شقيقك –قالها مازحاً-.

- فأكمل يوسف رفض الشيخ في البداية لكنه استسلم في النهاية لإصرارنا، وكأنه يعلم عاقبة تسرعنا، فمضى معنا في خطتنا التي خرجت لحيز التنفيذ قبل عام من اليوم.

- فقال بشار ملحناً التاريخ: الفاتح من آب لعام خمسة وتسعين وتسعمائةوألف.

- فنظر إليه يوسف ومحمود مستغربين: من أين جئت بالفاتح هذا؟!

- أعجبني فقلته، هذا كلّ ما في الأمر، ألا يحق لي ذلك؟!

- انطلقنا خمستنا إلى واد الباذان، مستغلين كثافة الأشجار على جنبي الطريق الواصل ما بين مدينة نابلس و... توقف يوسف عن الحديث لدى نزول معاوية إلى المغارة: جيش الاحتلال ينتشر بكثافة على التلال المطلة على جبل عيبال والتمشيط يقترب إلى القرية من ناحية المدينة. لكن، لا خشية من تحويل حملتهم إلى طرفنا، فنحن بعيدون مسافة كبيرة عنهم في الاتجاه المعاكس.

- يبقى الحذر واجباً في كل الظروف- قال خليل- هل لديكم خطة حال حدوث ما لا نحب؟!.

- فأجاب محمود: لدينا خياراتٌ عدة ولا داعي للقلق.

- كان خليل يدرك كبقية المجموعة، خطورة أن يجتمع ستة مطاردين لقوات الاحتلال في مكان واحد، ولكن في ذات الوقت، يثق بخبرتهم في تضليل العدو، واستغلال الجبال والوديان الكثيفة التي حمتهم طيلة عام كامل من ملاحقة العدو، وخاصة أن نطاق تحركهم يتجاوز حدود قريتهم إلى جبال القرى المجاورة، ياصيد، سبسطية، بيت امرين، طلوزة وإذا ما اقتضت الضرورة الأمنية فجبال سيريس، ميثلون، جبع وما يليها من قرى قضاء جنين، يمكن التجول فيها يوماً كاملاً دون مقابلة جندي أو مستوطن صهيوني، إذا ما تم تجاوز معسكر صانور والذي يعتبر من أشهر مراكز تدريب قوات الاحتلال، ولقد دأب محمود ومقاتلوه على تغيير أماكنهم كلما شعروا بضرورة لذلك، وكانوا مضطرين أحياناً وعلى وجه التحديد في فصل الشتاء، للنزول إلى أحد بيوت القرية والتي كان أحد مساعديهم الأخفياء يوفرها لهم.

- يستأنف يوسف سرد تفاصيل العملية: اتخذ طاهر موقعه في المراقبة حتى يعطينا إشارة مقدم سيارة الضابط الصهيوني وسائقه ويؤكد لنا، بما لا يدع مجالاً للشك أنه الهدف الذي راقبناه طيلة الفترة السابقة.

- استغرب خليل من ذكر اسم جديد في المجموعة لم يره بين الشباب، فلاحظ محمود ذلك: طاهر جرارعة يسكن المدينة الآن، لم يكن معهم في الوقعة الكبرى –قالها وهو يبتسم- لذلك هو طليق يعيش وفق شروط الأجهزة الأمنية!

- وقفنا على ناصية الطريق –يقول يوسف– في مكان لا يثير الشبهة أو الشك لدى العابرين بسياراتهم، وعندما أعطانا طاهر الإشارة المتفق عليها عبر خلع القبعة التي يعتمرها على رأسه انطلق معاوية بهدوء، حتى إذا ما صارت مركبة الضابط وراءنا، أضأنا إشارة انعطافنا نحو اليمين حيث الطريق الفرعي المؤدي إلى القرى المجاورة، الأمر الذي دفع بمركبة الضابط إلى تجاوزنا، حينها كان، رشاش الكارلوغستاف، يعانق برصاصه صدري الضابط وسائقه، ولم ندر حينها السبب الحقيقي لانسحابنا فوراً، رغم الإصابة المباشرة للعسكريين وتوقف مركبتهما، أهو الارتباك الناتج عن التجربة العملية الأولى، أم توقف الرشاش عن العمل قبل أن نصلحه فوراً؟! وأثناء عملية الانسحاب السريعة...! توقف يوسف عن الحديث فأكمل محمود وهو يمثّل ما يحدث بيديه: انقلبت سيارة شقيقي.

- ولكن! –عقّب بشار- لم نصب بأذى، واضطررنا لإيقاف إحدى المركبات المارة في المكان والطلب من سائقها السفر بنا باتجاه قريتنا، وبذلك، خسرنا سلاح الجنديين وانكشف أمرنا مع أول عمليةٍ نقوم بها.

الوقعة الكبرى والمدخنة!

- ليلتها! والمدينة ساكنة، صامتة، تنام على فرحةٍ لحظية بزوال الاحتلال عن مراكز المدن حتى وإن تقطعت البلد إلى أوصال ثلاثة، ألفٌ وباءٌ وجيم، تضحك باكياً وأنت تسمع بلدك أحرفاً، بحكم اتفاق سياسي تراه كارثة ويراه غيرك فتحاً، ولم يكن أحدٌ يدري، أن إرادةً حرة ترفض أن تحشر بين الجدران، أسيرة مكبلة، وقد ظنّت في لحظة أمل أنها ستجد الأمان في منطقة ألف الخاضعة أمنياً ومدنياً للسلطة الفلسطينية الجديدة، حينها وكنت لتوي قد أنهيت الدورة العسكرية التي امتدت ثلاثة أشهر في مركز الشرطة الخاصة الملاصق لسجن نابلس القديم الذي بتُّ أعملُ فيه بعد التخرج، عندما انطلقت صفّارات الإنذار من مبنى الشرطة وبناية المقاطعة حيث الأجهزة الأمنية المختلفة، الأمن الوقائي، المخابرات، الاستخبارات، الأمن الوطني، وجلبة قوية أحدثتها حركة الجنود وراء السجن والمقاطعة حيث جبل جرزيم: ماذا حدث؟!

– أسأل أحد أفراد الشرطة الخاصة الذي يحرس قبالتي مدخل المقر، وكنت لحظتها في وردية الحراسة على باب السجن، فلم يستطع إخباري لرؤيته قائد الشرطة الخاصة قادماً برفقة بعض الأفراد، والمفاجأة، أنه كان هادئاً يتحدث ولا يزال النوم يعسكر في وجهه: يحلمون بإمساكهم، لقد أصبحوا الآن في الطرف الآخر من الكرة الأرضية.

– فيسأله أحد الضباط، وجميعهم يتأفف لإيقاظه في الثالثة فجراً: كيف ذلك؟!. فيجيب القائد وهو «يتثاءب»: تقديرات المخابرات أنهم هربوا قبل ساعتين أو ثلاثة.

- لو منحوني هذا الوقت سأصل الأردن هرولةً، – حينها، دفعني الفضول وربما شيء عميق في داخلي إلى السؤال ببراءة، وكان الجو يسمح بذلك: من هؤلاء الذين هربوا؟!. – وكنت أحمل على كتفي بندقية الحراسة من نوع كلاشنكوف.

- أربعة من جماعة حماس!. كانوا معتقلين في مقر المخابرات.

– هزني ما سمعته، شعور مختلط من الحزن والغضب الداخلي لاصطدام فكرة اعتقال المجاهدين بالمنطق بالأخلاق بالوطنية، ومن الفرح الفطري لتحررهم، ولم يكن مفهوماً في حينها، والسلطة الفلسطينية لم يمض على دخولها مدن الضفة الغربية سوى بضعة أشهر قليلة، أن يتم اعتقال المعارضين والذين – رغم رفضهم لاتفاق أوسلو الذي يعترف بشرعية الاحتلال على سبعة وسبعين بالمئة من مساحة فلسطين التاريخية- رحبوا بالعائدين من خارج الوطن وساهموا عبر جمعياتهم ومؤسساتهم الخيرية في توفير ما أمكن للقوات التي كانت تفتقر لكثير من المقومات الحياتية الضرورية وخاصة لدى الانتشار الأول في قطاع غزة ومدينة أريحا.

- لم يكن خليل قد حضر حينها من بيرزيت إلى نابلس، لذلك! شغلني سؤال ظلّ يؤرقني ليلتها: أترى، سيحاسبني الله إن تم الإمساك بهم؟! وسرعان ما أرد على قلقي: لكنك لا تعرفهم، لم تسمع بهم، لم يتكلم أحدٌ معك بشأنهم.

ثـم تمـر عـلى خاطري فكـرة: يجـب أن أتصل بمهنـد حتى يتـصرف بسرعة، فمـن غـير المعقـول أن..! لالالا، مـا هذا التفكير؟! سـيكون تصرفـاً جنونياً.

وبينـما كنـت في دوامتـي تلـك لا أهتـدي لـشيء غـير الدعـاء بـأن يسـهّل اللـه أمرهـم، أذّن المـؤذن لصـلاة الفجر، فأطـلّ صديق لي مـن داخل أروقة السـجن، كان يحـرس السـجناء في الداخـل: أبـو أيمـن! ادخـل للصـلاة.

- لم يكـن السـتة يدركـون مـا ينتظرهـم وهـم يقـررون النـزول مـن جبـال عصـيرة الشـمالية إلى مدينـة نابلـس لـدى دخـول السـلطة إليهـا، للاحتـماء مـن ملاحقـة العدو لهـم، فرغم ملاصقة عصيرة الشـمالية للمدينـة، إلا أنها تقـع في نطـاق مناطـق «بـاء» الخاضعـة للسـيطرة الأمنية لقـوات الاحتلال مـا يعنـي الاسـتباحة الدائمـة لهـا، والسـيطرة المدنية للسـلطة الفلسـطينية المقتـصرة عـلى منـح تراخيـص البنـاء والخدمـات وانتشـار الشرطـة لحفـظ الأمـن المجتمعـي، فـإذا مـا دخلـت قـوات الاحتـلال للمنطقـة يغلـق أفراد الشرطـة الفلسـطينية عـلى أنفسـهم ولا يتحركـون إلاّ بـإذن مـن العـدو.

- عـلى الفـور، احتجزتهـم الأجهـزة، حيـث لم يكن في واردهم مجـرد التفكير بالاختفـاء، ظنـاً بأنهـم مطـاردون فقـط مـن الاحتـلال: يـا محمـود! أنـت لسـت معتقلاً.

– يقـول أحـد ضبـاط الأجهـزة الأمنيـة بعـد يومـين مـن الاحتجـاز، فـيرد محمـود أبـو هنـود الجالـس وسـط مجموعـة من الضبـاط في مكتـب قائد الجهـاز موجهـاً كلامـه إليـه: لا أفهمكـم. إذا لم يكـن منعـي مـن الخـروج احتجـازاً، فـماذا يكـون؟!

- حمايةٌ لك!

– فيضحك ساخراً من رده: تحميني من ماذا بالضبط؟!

- من الاختطاف أو الاغتيال من جانب اليهود.

- وطريقتكم في حمايتي عبر سجني وسجن إخواني؟! – احتد محمود-

- لماذا تصر على أنك سجين؟!

- لأني سجين، وهذا عار عليكم، لقد لجأنا إلى المدينة، ظنّا بأنكم توفرون الأمن لشعبنا، لكن! يتضح الآن أنكم تريدون شيئاً آخر!

- نظر الضباط في وجوه بعضهم، دون أن يجيبوا، فاستأنف محمود حديثه: تخشون أن أستأنف حقي في مقاومة الاحتلال؟!

- يا شيخ محمود! أنت تعلم بأننا ملزمون باتفاقيات مع الإسرائيليين..! قاطعه محمود: لا تكمل، أنا لم ألجأ للمدينة لشن عمليات للمقاومة، ويجب عليك الآن أن تنهي هذه المهزلة – واحتد في كلامه.

- اهدأ، اهدأ، هناك حلٌ سيرضيك ويحقق لنا ما نريد.

- لا تتحدث بغير الإفراج.

– أمر رئيس الجهاز ضباطه بالخروج، متصنعاً خطورة ما سيقول: لقد طلب منا اليهود اعتقالكم بسبب العملية التي قمتم بها في واد الباذان قبل أشهر، وحذرونا باختطافكم إن لم نقم باعتقالكم بأنفسنا، لأن الاتفاقية تنص على جواز «المطاردة الساخنة» من جانب الاحتلال حال الضرورة في مناطق «ألف»، ونحن لا نريد أن يفعلوا ذلك، وأنا أرى بأن تخرج نهاراً للمدينة وتعود ليلاً للمبيت هنا..!

قاطعه محمود: والشباب الخمسة؟.

- هذا مستحيل!

- لا يوجد شيء مستحيل، يجب أن يخرجوا كما أخرج.

- قلت لك إن أمرهم أكبر مما تتخيّل، اذهب أنت الآن، اقض حاجاتك في المدينة وعد ليلاً ولكن! – رفع يده – احذر أن تقترب من العمل العسكري.

- خرج محمود من باب المقاطعة والتي لطالما دخلها معتقلاً لدى قوات الاحتلال طوال سنيّ الانتفاضة الأولى عام 1987 وما بعدها، وبالأخص عندما أُبعد مع المئات من قادة وناشطي حركتي حماس والجهاد الإسلامي إلى مرج الزهور جنوب لبنان، نهاية عام اثنين وتسعين وتسعمائة وألف.

يقسم على نفسه ألا يعود من هذا الباب طوعاً، وألمه الأكبر على مقاتليه الخمسة القابعين في «سجن الجنيد» غرب المدينة، وقد طوتهم جدرانه السوداء القاتمة، والتي كانت بالأمس القريب عريناً لرجال المقاومة، موطن الإرادات الصلبة في مواجهة السجان، وغدت في زمن الهزيمة والتراجع وركل القيم الثورية، محبساً من جديد –للرجال أيضاً- ولكن بعيونٍ وأيدٍ وقيود فلسطينية.

- أربعة أشهر صعبة، قضاها الخمسة، دون جواب على سؤالهم الوحيد: ماذا نفعل هنا؟!. يعزيهم في وحشة الأسر وظلمته، تحرر قائدهم محمود الذي أصبح مطلوباً للاحتلال وللسلطة التي من المفترض أن تحميه فأصبحت تطارده، تقتلهم الأحداث الجسام: اغتيال المهندس يحيى عياش في الخامس من كانون الثاني، والرد على اغتياله بستة

وأربعين قتيلاً من المحتلين، وحملة الاعتقالات السياسية في صفوف إخوانهم من أبناء حماس، حيث كانت واحدة من الأسباب التي دفعت الأجهزة الأمنية إلى نقل أربعة منهم إلى مقر المخابرات شرق المدينة، وإبقاء طاهر جرارعة في مكانه، وهناك، ضاق الوطن حتى أصبح جدراناً أربع، وشرطي يحرس ملح الأرض داخلها: من لا يستطيع حماية نفسه لن يحمينا.

– يقول بشار الذي سمع خبر اقتحام مدينة طولكرم من جانب قوات الاحتلال واختطاف أحد أبنائها المطلوبين دون أن تحرّك الأجهزة الأمنية ساكناً.

– فيرد عليه معاوية الذي كان يصنع الشاي بالميرمية أو «الشجّيرة» كما يسميه أهالي قرى شمال فلسطين، والتي أحضرتها أمه: يجب أن ننهي هذه المهزلة بأسرع وقت. – وكان يشير بعينيه إلى أعلى، وثلاثتهم يؤكدون على إشارته التي سبق أن أشبعوها بحثاً، طيلة الأسابيع التي قضوها مؤخراً في غرفتهم تلك: ولم يعد من الحكمة تفويت الفرصة، كما يقول يوسف، أكثر المتحمسين للإقدام على تنفيذ ما سيعرف فيما بعد، بالوقعة الكبرى، كما كان يحلو لأربعتهم تسميتها بذلك

- لكن!! يعلّق توفيق على جزء مهم من الخطة، فيوقفه الثلاثة: من دون لكن، لا مجال للتفكير أكثر، دع المراحل المتأخرة لشأنها، ولنركز على أهم خطوة.

استمرت المراقبة طيلة أيام عدة، حتى حانت الفرصة المطلوبة، نهض أربعتهم من تحت الفراش الذي احتضن حيلتهم، بعد أن تأكد لهم مغادرة الحارس للنوم في غرفة جانبية وإبقائه باب الغرفة مفتوحاً،

وبخفـة وهـدوء مطلقـين، تسـلل توفيـق أولاً باتجـاه الزاويـة القصيّـة في الممـر، ثـم تبعه معاوية فبشـار ويوسـف، وهنـاك صعدوا واحـداً تلو الآخر إلى السـطح عـبر المدخنـة الضيّقـة التـي لم تنظّـف منـذ زمـن بعيـد جـداً فسـاهم ذلـك بطـلاء وجوههـم «بالسـخام» الأسـود، وبعـد أقـل مـن ثلاث دقائـق، كان أربعتهـم يسـتظلون بسـماء المدينة وسـجانهم وقيـده وغرفته أسـفل أقدامهـم، وبـذات الهـدوء والسرعـة نزلـوا عـن السـطح يحتضنـون بأيديهـم وأرجلهـم تمديـدات الميـاه الملتصقـة بجسـم البنايـة، وكانـوا طيلة فـترة التخطيـط يخشـون عـدم صمودهـا بسـبب الصـدأ والاهـتراء الناتـج عـن القـدم، لكّـن السـماء كانـت تسـتقبل غوثهـم وطلبهـم العـون، حتـى شـاء اللطيـف بـأن حطـت أقدامهـم عـلى الأرض، لتطـير بهـم نحـو الجدار السـلكي القديـم، والـذي اخترقـوه بسـهولة دون عنـاء، وفي اللحظـة التـي بـدؤوا بهـا يصعـدون الجبـل مخترقـين أشـجار الـسرو والصنوبـر والبنايـة الضخمـة بسـجنها ومقراتهـا خلفهم، بـدأت دموع النصر تغسـل وجوههم، يتسـلقون الجبـل دون كلمـة «ولكـن!» التي صاحبت توفيـق، لأنه بذاته لا يفكـر فيهـا اللحظـة، وقدمـاه تقودانه دون شـعور منهما نحـو الحرية، غير آبـهٍ بحقيقـة وجـود نقطة مراقبة لجيـش الاحتلال أعلى قمـة الجبل المطلة عـلى المدينـة بأسرهـا عـلى بعـد عـشرات الأمتـار فقـط، حيـث سـاروا بـين الأشـجار بمحـاذاة بيـوت حـي «خلـة العامـود» متجاوزين الخطـر الواضح، بعـد تأكدهـم أن الأجهـزة الأمنيـة التـي تزعـم حمايتهـم، مـا زالـت تغـرق بالنـوم، وبسرعـة وجـدوا أنفسـهم داخـل أحـراش جديـدة تمتـد عـلى طول جبـل جرزيـم الـذي يطلقـون عليـه لقـب جبـل مجـازاً، لأنـه سلسـلة مـن الجبـال المتلاصقـة والتي يعلـو أبرز قمة فيها حيّ الطائفة السـامرية الواقع بـين غابة أشـجار سـاحرة، وبقربه قلعة صـلاح الدين الأيـوبي الأثرية، ورغم

الظلمـة الموحشـة بـين الأشـجار إلا أن روعـة المشـهد في الأسـفل والمدينـة بأسرهـا تحـت أنظارهـم، كانـت تبـدد الخـوف لديهـم، تشـعرهم نجومـاً محلقـة في السـماء، ومـا زالـوا كذلك حتـى انقضـت السـاعة الأولى والثانية لسـيرهم بوصولهـم غـرب المدينـة أعـلى جامعـة النجـاح الوطنيـة والتـي كانـوا يرتادونهـا قبـل المطـاردة، وقد دعاهـم الحنين إلى ذكرياتهـم الجميلة هنـاك، وحتـى يتجاوزوا سـجن الجنيـد، نزلوا على أطراف حـي رفيديا الذي يتوسـط سـجن الجنيـد وجامعة النجاح، ومـن هناك، نزلـوا الوديان المؤدية إلى شـارع طولكـرم- نابلـس، ومـا زالـت المدينـة هادئـة والسـجّان الـذي عـاد ليطمـئن عـلى سـجنائه الأربعـة، مرتـاح لنومهـم العميـق، رغـم أنـه لم يعتـد عـلى رؤيتهـم نيامـاً مـا قبل الفجر بسـاعة، فحـدّث نفسـه لإيقاظهم عندمـا ينـادي المـؤذن لصلاة الفجـر، وقـد كانـت أغطيتهم تحتضـن تحتها الألبسـة وكل مـا وصلـت إليـه أيديهـم مـن وسـائل التمويـه، الأمـر الـذي أقنـع السـجان قناعـةً تامـة بغرقهـم في النوم.

- بـدأ الرجـال يتنفسـون هـواء عصـيرة، وهـم يصعـدون الجبـال القريبـة أعـلى قريـة زواتـا- أقـصى شـمال غـرب المدينـة، متجاوزيـن حاجـز الأمـن الوطنـي عـلى حـدود منطقـة «ألـف» ورائحـة الطابـون تنتـشر في الأنحاء، تقتلهـم واحـداً تلـو الآخـر، تجعلهم يطيرون على بسـاط من عشـق للأيدي التـي تصنعـه كل صبـاح، وبعـد قليل من الراحـة والأذان الموحـد في المدينة يصـدح في أذن السـجان الـذي فشـل في إيقـاظ الأربعـة الذيـن تبخـروا كالسـحر، توجـه معاويـة إلى بيـت أحد المسـاعدين في أطـراف القرية: أبلغ الشـيخ محمـود أننـا حررنـا أنفسـنا وعدنـا إلى المـكان الـذي تعرفـه ونتوق لرؤيتـه فيه سـالماً.

- لم يصـدق مـا جـاءت بـه الرسـالة العاجلـة عبر النقطـة الميتـة صباحاً، لأن خـبر تحررهـم لم يبلغـه بعـد فكيـف بوصولهـم..! فضحك مـن عمق صدره قبل أن يسـجد لله شـاكراً والشـيخ يوسـف السركجي يقف بقامته الطويلة وطولـه الخـارق قبالتـه، فمحمـود ضيـف في بيتـه: أضحـك اللـه سـنّك، ألا تفرحنـا معك؟!

- الشباب أصبحوا في جبال عصيرة.

- مـن تقصـد، خليـل الشريف؟! لم يصل إلى نابلـس حتى يذهب إلى عصيرة، ثم لم نعرّفـك عليه بعد.

- يا شيخ، أقصد إخواني المعتقلين لدى المخابرات، لقد حرروا أنفسهم.



"هنا.. بيت المقاومة"

كانـت العـودة مـن عصـيرة الشـمالية وصحبتهـا الرائعـة، أسرع مـما توقع، فـما زالـت وفـق الشـيخ يوسـف والـذي لتوه قـد عاد مـن الإبعـاد القسري الثـاني إلى قطـاع غـزة بعـد الإبعـاد الأول إلى مـرج الزهـور، حيـث تخافـه أجهـزة أمـن العـدو دون أن تثبـت عليـه شـيئاً - مـا زالـت أخطـر عـلى المطـارد مـن مناطـق «ألـف» والتـي يمكـن بـشيء مـن الحـذر التغلب على متابعـة الأجهـزة الأمنيـة الفلسـطينية الوليـدة.

- فـيرد خليـل القلـق عـلى سـلامة المقاتلـين وقائدهـم محمـود، وهو يسرق بعـض النظـرات مـن خلـف سـتارة النافـذه المطلّـة مـن بيـت الشـيخ عـلى منزل عائلته الكائن في ذات الحي المسـمى بشـارع السـكة، نسـبة إلى سـكة الحجـاز التـي أقامتهـا الخلافـة العثمانيـة وتمـر مـن المـكان: لكـن الشـباب وافقـوا عـلى مضـض وكراهـة للقـدوم إلى المدينـة بسـبب تحريـر أنفسـهم قبـل عـدة أشـهر من مقـر المخابـرات، ولا أظن بأنهـم سـيتكيفون مع واقع سـكنهم الجديـد بعـد أن كانـوا كالطيـور في الجبال

- لكنك تقول إنهم عرضوا عليك مشروعهم.

- صحيح! ومصممون على تنفيذه، لكننا الآن غير جاهزين لذلك.

- ابتسـم الشـيخ الـذي يقـارب الأربعـين مـن العمـر وهـو يعـدّل العقـال عـلى رأسـه المغطـى «بحطّـة بيضاء» مسـدلة على ثوبـه الطويل، اسـتعداداً للذهـاب إلى مسجده الـذي يـؤم: يـا خليـل، أنـت الـذي تصنـع الجاهزية.

– توقـف الشـيخ عـن الحديـث في الأمـر، سـائلاً: لم تخـبرني! هـل اطمـئن قلبـك أخـيراً «لأبي أيمـن»؟!

- ضحـك خليـل متذكـراً اللحظـة التـي أخـبره فيهـا أيمـن حـلاوة صديقه في الجامعـة ومسـاعده أثناء المطـاردة، عني، فجنّ جنونه: هـل أنت مجنون؟! تريـد أن تسـلم رقبتنـا إلى ضابط في السـلطة.

فـيرد أيمـن، الطالـب في سـنته الأخـيرة في كليـة الهندسـة الكهربائيـة: عـلى رسـلك يـا رجـل، لـو أراد رقبتـك لوصـل إليـك مـن خـلالي.

– ومـا زال خليـل يبـادل الشـيخ الابتسـام وهـما يتذكـران خشـيته من فكرة الاخـتراق مـن جانـب السـلطة، وكيف أصبـح في غضون مدة قصـيرة يرتدي زي الشرطـة الفلسـطينية الـذي زودتـه بـه وهـو يجلـس إلى جانبـي في السـيّارة أثنـاء تنقلاتـه الضروريـة، فلـم يـزل خليل يتوجـس الخيفـة للقائنا حتـى حسـم الشـيخ يوسـف الأمـر، كـما حسـم أمـر جمعـه لمحمـود أبـو هنـود، صاحبـه في مـرج الزهـور، وسـيتكرر الأمـر لاحقـاً مـع تلميـذه معاذ بـلال. - فلقـد أدرك الشـيخ يوسـف، رأس العمـل التنظيمـي في المدينـة والقضـاء، وأحـد أعمـدة الجنـاح العسـكري، المعـاصر لأجيـال القسّـام منذ انطلاقـة الفعـل الجـاد مطلـع التسـعينات مـن القـرن العشريـن، بفراسـة العـالم وخـبرة المقـاوم، أن هـذا الشـاب، الذي لم يتجـاوز الثالثـة والعشرين مـن العمـر، حديـث الانتماء إلى حركة حماس، ذو شـأن عظيـم تندر ولادته بسـهولة، ليس لنقص في المجاهدين ولكن!! «كما سـيعترف الشـيخ لاحقاً»: أننـي لم ألتـق بقائـد كخليـل الشريف، ألمعـي، فطن، اسـتراتيجي التفكير، لا يرتـاح ولا يريـح، وهـذا مـا تحتاجـه المقاومة لصناعـة التحريـر ورفع كلمة اللـه في الأرض.

- كان أيمن حلاوة، «والذي سأكتشف لاحقاً بأن كنيتي التي أطلقها عليّ خليل، هي نسبة إلى أيمن، فلم نكن في حينها نتعامل فيما بيننا بالأسماء الشخصية، إلا داخل المجموعة الواحدة حيث لا ضرورة لإخفاء الأسماء، فلقد بقيت طيلة فترة عملي مع خليل الذي أسميناه «أبو محمد» وكان يكبرني عمراً بسنة واحدة، وإقداماً وبسالة، قروناً عدة، أظن بأن اسمه خالد.

كان أيمن في حالة صعبة، يدعو الله أن تمر الدقائق القادمة بسلام، والشاحنة التي تسير في الشارع العام، وستعبر بعد قليل، وحاجز الأمن الفلسطيني، ستكون أغلى هدية تتلقاها الأجهزة الأمنية منذ دخولها نابلس: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. يستعيذ أيمن، الجالس بقرب السائق، فلقد حمّله خليل الأمانة الأصعب، بعد أن كانت المسألة برمتها من بنات أفكاره: نخفي الأربعة في كراتين كبيرة لنقل الأدوات الكهربائية، وهكذا...

-إذن باشر العمل فوراً، وبعد أن عبرت الشاحنة وسط جنود الحاجز متجاوزة شارع عصيرة الذي تتفرع منه طريق المستوطنة وفق خليل، ونقطة الإنذار المبكر أو التجسس وفق محمود، طرق أيمن بيده على جسم الشاحنة أربع طرقات مختلفة، ليطمئن المجموعة، لكن هذه الطمأنينة لم تستمر كثيراً بعد مكوثهم في مخبئهم داخل المدينة، فلم يعتد المجاهدون الأربعة على العيش بين جدران إسمنتية، بعد أن كانوا كالغزلان البرّية، مفضلين خطر العدو على أن تموت حريتهم في مخزن تجاري، فقرروا العودة مجدداً إلى حيث عرينهم الذي تهابه الثعالب، لكنّ إصرارهم على مشروعهم، ظلّ يطارد محمود وخليل اللذين كانا

يتريثـان في الأمـر، والشـيخ يوسـف، يحثهـما عـلى تذليـل العقبـات: كـما تعلمـون -يقـول مبتسـماً وهـو يقـدم لهـما الشـاي في غرفة الضيـوف- فأنا لا أتدخـل بتفاصيـل عملكـما، لكننـي أحذركـما مـن الغـرق في التخطيـط الزائـد، فـإن كنتـم تسـبقون العـدو بخطوة، فهو يسـبقكم بعـشر خطوات، فـلا تمنحـوه الفرصـة للوصـول إليكـم قبـل أن توجعـوه.

- فـرد خليـل: يـا شـيخنا! نحـن متفقـون عـلى ذلـك، لكننـا نتحـرك وفـق إمكاناتنـا المحـدودة، ومـا نفكـر بـه...!

أكمـل محمـود: بحاجـة إلى أكـثر مـن بـارودة انجليزيـة وكارلوغسـتاف مريـض والآخـر في الإنعـاش، وهـذا العـوزي المبـارك - وكان يشـير إليـه في حضـن خليـل.

- فهـزّ الشـيخ رأسـه وهـو يسـتمع إليهـما ثـم عقّـب: أنـا رهـن إشـارتكما، اطلبـوا مـا أسـتطيع توفـيره، ولـن أتأخر بـإذن الله، فيقـول خليل: مـا تقوم بـه يـا شـيخ لا يقـدّر بثمـن، لكـنّ تصورنـا المتواضـع للأشـهر القادمـة لا يسـتدعي إشـغالك بصعوباتنـا التـي سـنذللها قريبـاً إن شـاء اللـه، ولا نريد في الحقيقـة، أن نـراك هـذه المـرة مبعـداً إلى مـا وراء الشـمس، بعـد مـرج الزهـور وغـزة - فضحـك الشـيخ..

- انتظـر انتظـر! -قـال محمـود مسـتدركاً عـلى خليـل- لـولا الثلـوج التـي قاسـيناها هنـاك، معـاً، والحكايـات الجميلـة التـي اختلطت بالدمـع والألم، لمـا اجتمعنـا هنـا، في بيـت المقاومـة هذا.

عقّـب الشـيخ بـشيء مـن الجدية: الأهـم، ليس إبعـاد يوسـف السركجي أو قتلـه وهـذا واللـه مـا أتمنـاه، أن يصطفينـي اللـه شـهيداً مقبـلاً غـير مدبر،

ولكـن! ألا تسـكت البنـادق حتى لا يهنـأ العدو بدارنا، ويـدرك بأن ثمن كل دقيقـة يقضيهـا عـلى أرضنـا، سـيدفعها من أمنه الشـخصي وأيضـاً من دمه.

- ولـدى خـروج الشـيخ كعادته حـال الاجتماعـات، التفت إلى الوراء سـائلاً: هـل وصلكـم التأكيـد الجديـد؟! فأجاب محمـود وهو ينظـر في وجه خليل بالنفي.

- عـدم شـن الهجـمات ضـد قـوات الاحتـلال مـن مناطـق «ألـف»، قـرار سـابق اتخـذه إخوانكـم في قطـاع غـزة بعـد دخـول السـلطة الفلسـطينية هنـاك عـام أربعـة وتسـعين، ويعـاد التأكيـد عليـه الآن.. فيعلّـق خليـل: لا أدري مـا المنطـق في ذلـك، اتفاقيـة لعينـة مـع الاحتـلال، لم يسـتشر فيهـا الشـعب الفلسـطيني، لم تمـر عـلى أي مؤسسـة تمثيليـة للمصادقـة عليهـا، سـواء منظمـة التحريـر الفلسـطينية أو حتـى حركـة فتـح..!

فسـأل محمـود قاطعـاً استرسـال خليل الـذي يتحـدث بحرقة: كيـف ذلك؟ فتـح هـي التي وقعـت عـلى الاتفاقية.

– فهـزّ خليـل رأسـه أسـفاً: هـذا مـا قـد يمـر عـلى البعـض، لكنـه لم يمـر عـلى هـذا الـرأس.. وكان يشـير بسـبابته إلى رأسـه والشـيخ يوسـف الـذي كان ينظـر إلى سـاعته، يبتسـم، وهـو يسـتمع إلى مـا يعرفـه عـن هـذا الرجـل: كنـت أعرف فتـح، الثورة، الطلقـة الأولى، دلال المغـربي التي قالت: «سـأقلب طاولـة كامـب ديفيد رأسـاً عـلى عقـب»، ولم أتخيل يومًـا أن يتم نسـف القيـم التـي تربينـا عليهـا، حتـى فـاروق القدومـي، عضـو مركزيـة فتـح، لم يعـرف بالمفاوضـات السريـة ويعـارض هـذا الاتفـاق حتـى اليـوم ولكـن! القـرار للقـوي، والـذي ذهـب بفتـح إلى اتفاقيـة أوسـلو يمتلـك كل أوراق القـوة في فتـح، لكنـه لم يعـد يمتلكنـي!! وكان يتنهـد وهـو يخـرج

كلماتـه الأخـيرة وسرعـان ما تحـوّل إلى الابتسـام ومحمـود والشـيخ ينظران إليـه بإعجـاب، فقال الشـيخ يوسـف: لقد تأخـرت على المسـجد وأخشى أن يزفنـي أهـل «جـسر التيتي» وروّاد مسـجدي خالد بن الوليـد إن لم أتواجد اللحظـة هنـاك، ومـع ذلك، فلسـفتنا بعـدم الاسـتهداف المبـاشر للعدو من منطقـة «ألـف» لا تنبـع مـن ضعـف، حتـى وإن لم يكن بأيدينا سـوى بضع بنـادق قديمـة، لكنها سياسـة سـحب الذرائـع، وحتى لا يقال، عندما تفشـل اتفاقيـة أوسـلو وفشـلها محتّم لأنهـا تناقض منطق التاريـخ، إن حماس هي السـبب في عـودة الاحتـلال لمناطـق «ألـف» والتـي تسـوّق الآن عـلى أنهـا نـواة الدولـة الفلسـطينية! ضحـك محمـود: لم أعرف يا شـيخ أنـك أصبحت محلـلاً سياسـياً أو رجـل سياسـة، دائمـاً كنـت تعيـب عـلى أهـل السياسـة إطنابهـم في التحليـل والـكلام، فـردّ الشـيخ وخليـل مسـتمتعًا بالحديـث الدائـر: عرفـت أنـك لـن تدعهـا تمـر، عـلى كل حـال، هـذا كلام الشـيخ أبـو بكـر «جـمال منصـور» في اجتماعنـا الأخـير، انقلـه كـما هـو وأضيـف، لـن يكـون هنـاك فـرقٌ كبـير فمواقـع العـدو عـلى طول فلسـطين وعرضهـا، فلا تفكـروا كثـيراً بهـذا الأمـر، ومسـاحة منطقـة «ألـف» مـن مجمـل مسـاحة الضفـة الغربيـة لا تقـارن بمـا تبقـى بيـد المحتل.

- غـادر الشـيخ مسرعـاً ومـا زال سـؤالٌ يدور في رأس محمـود، لم يجد فرصة لتوجيهـه إلى خليـل رغـم حديـث المغـارة ومـا قبلهـا، وحانـت الآن: ما هي اللحظـة الفارقـة التـي قررت فيهـا الانتقال مـن النقيـض إلى النقيض؟

- نهـض خليـل مـن مجلسـه عـلى الأرض قبالـة محمـود متجهـاً بسرعـة إلى النافـذة لـدى سـماعه صـوت بـوق سـيّارة، وأخذ ينظـر من خلف السـتارة والزجـاج الغامـق الـذي يخفي من خلفه نهـاراً، طالباً من محمـود الانتظار

قليـلاً، فسـأله محمـود: هـل ظفـرت به هـذه المرة؟!

– جلـس خليـل وسـعادة الكـون تلاطـف وجنتيـه: ليـس أخـي فقـط، بـل أمـي. – ثـم سـكت قليـلاً قبـل أن يدّعـي عودتـه للإجابـة عـن السـؤال، فأوقفـه محمـود: لمـاذا لا نرتّـب لـك لقـاءً مـع والدتـك في أحـد البيـوت؟.

– كان خليـل لا يـزال منفعـلاً مـن رؤيـة والدتـه، يظهـر ذلـك في همسـاته وحركـة جسـده: لا أسـتطيع، قـد يعرضنـا ذلـك للخطر، كما أن أمي ليسـت مزارعـة كوالديـك حتـى ألتقيهـا مصادفـةً في الجبـال، كـما تفعـل يـا أسـد الجبال!

- دع الموضـوع للمسـتقبل القريـب، وسنستشـير الشـيخ يوسـف في ذلـك، ربمـا تلتقيهـا هنا!.

– تململ خليـل وهـو يقـول: يـا أخـي لـولا ضرورة لقائنا في بيت الشـيخ لما جازفـت بالمجـيء إلى هنـا فليس مـن الحكمة أن نكون معـاً في مكان واحد ومـا زلنا في بدايـة الطريق.

– ضحك محمود فتدارك خليل – أقصد عملي معك لا زال في بدايته.

كان خليـل يعلـم من الشـيخ يوسـف، أن محمود أبو هنّـود من المجاهدين الأوائـل الذيـن سـاعدوا المهندس يحيى عيـاش الذي كان يتخـذ من المدينة والقضـاء مقـراً لـه بعـد المطـاردة، وقد شـكل مطلـع التسـعينات مجموعة عسـكرية سـبقت معاويـة وإخوانـه، ومـا زلـت أكتشـف أن الفـترة التـي عملـت فيهـا ومهنـد مـع دائـرة المهنـدس، تعيـد ترتيـب نفسـها مجـدداً، محافظـة عـلى نواتهـا الصلبة، وسـتظل أشـباحاً تعمـل لدفع العمـل للأمام، لـن يتضـح دورهـا في تلـك المرحلـة إلا قليـلاً، كـما حـدث مـع المجاهديـن

زهـير لبـادة وصـلاح الديـن دروزة عضـوا قيـادة الحركـة في المدينـة، عندما اعتقـلا عـلى قضايـا عسـكرية عـام أربعة وتسـعين ومنها الدعم اللوجسـتي لأسر الجنـدي نحشـون فاكسـمان عـلى يد مجموعـة من كتائب القسـام في تشريـن الأول لنفـس العـام لمبادلتـه بـالأسرى الفلسـطينيين والعـرب وعلى رأسـهم الشـيخ أحمـد ياسـين مؤسـس الحركـة والـذي كان يقـضي حينهـا حكـماً بالسـجن مـدى الحيـاة لـدوره في أسر الجنديـين آفي سـبورتس وايلان سـعدون عـام تسـعة وثمانين.



أنا لستُ حماراً..!!

لم يهدأ صدره، هناك شيء لا يستقيم لديه، يتعبه، يقلقه، يعيق حركة إبداعه المعتادة، ولم يهتد بعد إلى طرف خيط يقوده لمعرفته، فلا هو عاشق متيم بإحدى الحسناوات اللواتي يخطبن وده في الجامعة، يعذرهن قمرية الابتسامة التي يتسلح بها فطرياً، ونقاء سريرته التي تُرى وتُحس، ولا هو هارب من ملاحقة عائلته لسوء علاماته الجامعية: إذن! لماذا لا أستطيع فهم ذلك؟!. – يخاطب نفسه وهو يستعد للمهرجان الخطابي، آخر مرحلة من المراحل التي تسبق انتخابات مجلس الطلبة والتي يتنافس فيها مجموع الكتل الطلابية الممثلة للخريطة السياسية على الساحة الفلسطينية وأبرزها حركتي فتح وحماس، يقف أمام المرآة التي ابتاعها وزملاؤه في السكن، يرتب شعره الناعم، وما زال على حاله منذ عدة أيام، رغم الاجتماعات المكثفة لإطار حركة فتح الطلابي، والذي يمثله أمام الأطر الأخرى وإدارة الجامعة، فالمعركة حامية الوطيس أمام الكتلة الإسلامية إطار حركة حماس الطلابي، ولا بد من الفوز، وفجأة! صرخ وهو يشير إلى ذاته في المرآة: أنا لست حماراً، أنا لست حماراً.

اخترقت عبارته أذن أيمن حلاوة، زميله في السكن ونقيضه السياسي المنتمي إلى الكتلة الإسلامية، وهو يدخل باب الشقة، وكانت حالة نادرة أن يعيشا معاً، لكن انحدارهما من مدينة واحدة وصداقتهما القوية، جعلتهما يتغلبا على الانتماء التنظيمي، وتنشأ علاقة نموذجية بينهما:

هـذا أكيـد، فاللـه -عز وجل- يقـول «ولقد كرمنـا بنـي آدم..». – قالها أيمن وهـو يضحـك، لكـنّ ذلـك لم ينتـزع ضحكـة مماثلـة مـن خليـل الـذي بقي عـلى حالـه، يحـدّق في الشـخصية الثانيـة لـدى فتـح في الجامعـة والأولى في القريـب العاجـل «حيـث يتنبأ الجميع لمسـتقبله» والتي ولـدت وترعرعت عـلى قيـم الثورة وفتـح: هل انتهى كل هـذا؟! لماذا؟! لماذا؟.. اسـتغرب أيمن الـذي وضـع ظهـر كفه على جبـين خليل مسـتغرباً: حرارتـك طبيعية، لكن! يبـدو أن الكثـير يفوتنـي هـذه الأيـام، هـا، لقـد عـثرت عليهـا! هل سـلّمتم بحقيقـة فوزنـا في الانتخابات وتلوم نفسـك على ذلك؟ أعرفك منطقياً تحترم عقلـك جيـداً. – ثم بدأ خليل يتحدث بألم: لقد نشـأت على مفهوم يلازمني منـذ بعيـد، أن فتـح تعنـي البندقيـة والبندقيـة طريـق التحرير، هكـذا كنا نحاججكـم عندمـا تتهمونـا بالتخلي عن الكفاح المسـلح وندفع عن أنفسـنا جريمـة التفريـط بثلثـي فلسـطين التاريخيـة والاعـتراف بشرعيـة الاحتـلال، لكننـي لم أكـن مرتـاح الضمـير، عقـلي يزعجنـي كلـما خلـوت مـع نفـسي. – وهنـا تحـدث أيمـن: وكنت سـليط اللسـان علينـا. – لم يعر خليـل انتباهاً لملاحظـة صديقـه السـاخرة، مسترسـلاً بوجعـه: وبتنـا الآن نتغنـى بالمـاضي دون فعـل حقيقـي عـلى الأرض، كيـف تريـدني أن أناظـر شـاباً حركته تزرع المـوت للمحتلـين في شـوارع تـل أبيـب، وتحقـق مـا أحلـم بـه؟!. – التفـت خليـل مخاطبـاً أيمـن، فأجابه: الأمر بسـيط، تصرّف وفق قناعتـك ولا ترهق أعصابـك، فاحتـد خليـل عـلى غـير عادتـه ومـا زال يُعـرض عـن الالتفـات لـكلام أيمـن، قائـلاً وهو يهز كتفـي صديقه: حمّلنـا العجز العربي مسـؤولية هزيمتنـا، نعـم هزيمتنـا، وإلاّ! مـاذا تفـسر تخلينـا عـن أحلامنـا وتاريخنـا وتطلعاتنـا وتضحياتنـا الممهـورة بالـدم، بكلمـة واحـدة، «كـوداك»، تُهـدي للرئيـس الأمريـكي كلينتـون عندمـا اسـتقبل في اجتـماع المجلـس الوطنـي

قبل عامين في غزة، وباللغة الفرنسية، ميثاقنا الوطني يتم إلغاؤه بكلمة غير عربية، ونصفق لانتحارنا القيمي والحضاري بأيدينا، ونحمّل غيرنا المسؤولية؟! – ثم هدأت ثائرته قليلاً وهو يجلس على الكرسي، فجلس أيمن قبالته وكل ذرة في كيانه ترقص فرحاً: كنت أرى هذه اللحظة منذ زمن بعيد!

- فرفع خليل نظره إلى وجهه دون أن يتكلم وكان يمسك برأسه بين كفّيه: نعم، كنت على قناعة بأن الثائر الذي يسكن هنا -وأشار بإصبعه إلى رأس خليل- لن يمكث طويلاً حتى يلقى الأجوبة التي تليق بثوريته، أسئلتك، فرحك للعمليات الاستشهادية، غضبك لما فعلته أجهزة السلطة الأمنية في مسجد فلسطين بغزة، قبل عام ونيّف، بعد دخولها بقليل إلى القطاع عام أربعة وتسعين. - قاطعه خليل: قتلوا ثلاثة عشر شهيداً مسالماً وجرحوا ما يربوا على المئتين لأنهم مارسوا حق التظاهر؟! لم أستوعب حينها ما يجري، نعم، كنت خصماً عنيداً لنا، تقفون لنا في الحلق، تزاحموننا على كل شيء، بعضكم يسيء عن جهل إلى نصاعة مشروعكم والذي في الحقيقة لا يختلف عن مشروع الثورة الأصلي والذي تم التخلي عنه، لكنّ دمكم حرام، شككت حينها في الأخبار، قلت إن عملاء العدو فعلوا ذلك للإيقاع بيننا وما زلت أعتقد بأن شرارة كل فتنة أصلها الاحتلال.

ولكن! عندما رأيت قوات الأمن الفلسطينية تطلق النار على الناس، أيقنت بأن العالم المجرم أوقعنا في أنفسنا، وأن أحلام الشهداء أبو جهاد وأبو إياد وأبو الهول وسعد صايل وغيرهم، ماتت، ليس عند أول طلقة يطلقها الشرطي على أبناء شعبه بل عندما وقّع القلم على الاعتراف بشرعية الاحتلال.

- أراد أيمـن أن يهـوّن عـلى خليـل بالمـزاح: لكنـك مـع ذلـك، لسـت حـماراً!
- وأخـيراً ابتسـم خليـل وهـو يقـف متوجهـاً إلى جهـاز الفيديـو الـذي كان يسـتعرض عليـه بعـض التسـجيلات لقـادة الثـورة الشـهداء لاسـتخدامها في الدعايـة الانتخابيـة ضـد الكتلـة الإسـلامية، وشـغَّل أحـد التسـجيلات طالبـاً مـن أيمـن الانتبـاه لما يقوله الشـهيد صلاح خلـف «أبو إيـاد» الرجل الثالث في حركـة فتـح ومفكرهـا الأبـرز: الـذي يذهـب للمفاوضـات بـدون سـلاح، حمار !

- أوف! خرجـت مـن فـم أيمـن، ومـا لبـث أن قـال بصـورة تلقائيـة: هـذا يمثلنـي، كلام مـن ذهـب، نعـم، بالسـلاح تفـرض شروطـك عـلى الطاولـة، كالفيتناميـين.

- لكـنّ قيادتنـا تخلـت عـن السـلاح، قالهـا خليـل مهمومـاً، فسـحقت في المفاوضـات..

- ما دام مثلك في حركة فتح، وأنا متأكد أنهم كثيرون.!

- قاطعـه خليـل: يـا أيمـن! صحيـح أن كثـيراً مـن العنـاصر في فتـح تعشـق الكفـاح المسـلح وفي أول انتفاضـة جديـدة سـتراها إلى جانـب إخوانهـم المقاومـين، لكـن الأمـر أكـبر مـما تتخيل، هـذا مشروع يرعـاه العـالم بأسره، لقـد غرقـت قيادتنـا حتـى العنق فيـه، ولا أمل لنـا بعد الله -عـز وجل- إلا المقاومـة المسـلحة وفقـط المسـلحة.

- صمـت أيمـن وعينـاه تحدقـان في شـفتي خليـل، لا يريـد أن يفسـد مـا تتوقـع أذنـاه سـماعه، فسـأله خليـل: ألا تقـل لي مرحبـاً بـك بيننـا؟!

- فـصرخ أيمـن بأعـلى صوته وهـو يحتضن خليـل والدمع يترقـرق في عينيه:

أنـت الـذي ترحـب بنـا في حـماس! ومـا لبث أيمـن أن وضع يده عـلى فمه: لقـد فضحتـك عـلى المـلأ – فأسـكته خليـل بحزمـه المعهـود عندمـا يتخـذ قراراتـه: أنـا مـن يريـد أن يعلـم العالم بـأسره، أنني عـلى النهج الـذي يقود إلى التحريـر، نهـج أبي جهـاد ويحيـى عيـاش وكتائب القسـام.

- والدعاية الانتخابية، وكلمة فتح التي ستلقيها، و...!

- قاطعـه خليـل وهـو يخـرج من دوسـيته قلـماً وورقة: لن أجـد أفضل من هـذا اليـوم لإعلان مـا أريد.

- وضـع أيمـن كلتـا يديه على رأسـه ضاحكاً: سـيحدث زلـزال في الانتخابات، لم نشـهد لـه مثيـلاً قبل اليـوم، ولو جلسـنا طيلة العـام نفكر..

- أيمـن! دعـك مـن هـذا، فعـلى أهميـة الانتخابـات وضرورتها لإعـلاء كلمة اللـه أولاً، ثـم خيـار المقاومـة، إلا أنّ هـذا الأمـر ليـس ما يشـغل رأسي!

- مـا يشـغل رأسـك، يحتـك رأسي منـذ زمـن بعيـد ولكـن المسـألة ليسـت سهلة .

- أخـي أيمـن! شرطي الأسـاسي أن أعمل مـع كتائب القسـام، والآن لا تضيع الوقـت، اذهـب وأخـبر قـادة الكتلـة بتخصيـص وقـت لي أثنـاء المهرجـان الخطـابي وأبقوا الأمـر سراً.



المسدس والعنق الجميل!

سيحدثني أيمن لاحقاً، عن الهزة التي أحدثها خليل بمقياسه النوعي وكيف عنونت إحدى الصحف اليسارية من أبناء شعبنا في الداخل المحتل عام ثمانية وأربعين رأس صفحتها بالخط العريض: «المنسق الوسيم ينقلب على معسكره القديم ويجذب أصوات الفتيات»، حيث تفاجأت الجامعة، كلّ الجامعة، بطلابها وإدارتها ومحاضريها وفراشيها وزائريها، لكنّ الفتاة الجميلة – يقول أيمن- التي لاحقته في الرحلة الجامعية للمواقع الأثرية في فلسطين، وكانت في تحدٍ مع زميلاتها المعجبات بهذا النابلسي الفاتن في رقته ووسامته الخجولة، أن تخضعه لقلبها، ظافرةً بما عجزت عن فعله الأخريات، خالفت يومها كل المصدومين فرحاً أو غضباً، بأن قال: لو فعل غير ذلك، لما كان جديراً بما يحتله في هذا القلب، مشيرةً إلى صدرها، وقد أُخذ عليها من بعضهن المنتميات إلى معسكره القديم الشاجبات لما فعل، إقدامها وأخريات على التصويت لخيار خليل، على الرغم من أنه كما أخبرت إحداهن فيما بعد، لم يكن يدري بالجميلة وعشقها وصراع الفتيات عليه، لذا فلم يكن مستغرباً من ناحية أخرى أن يعلن عن توجهه الإسلامي كمواظب على الصلاة ورافض لما يناقض ثقافته الإسلامية، وهذا ما خلص إليه دكتور علم النفس الذي التجأ إليه بعض صحبه القدماء حتى يفسّر لهم الانقلاب المفاجئ لدى خليل، وسيكشف هؤلاء وغيرهم، لاحقاً، أن أمراً عظيماً، يتجاوز تحليلاتهم التي

تلامس جزءاً من الحقيقة يقف وراء هذا التحوّل، قد ضمّنه في خطابه الناري، يحدثني أيمن، ونحن نجلس في «عزيزة»، سيارة الفيات الصفراء التي ابتعتُها بألف وخمسمائة دولار، من مال المجموعة الشحيح وقتها، بداية العمل الفعلي، حيث كنا على قمة عيبال في جزئه الشمالي الشرقي المطل على كل شيء يمكن للعين أن تعشقه، حتى أنا -يقول أيمن- لم أكن متأكداً من قدرتي على الإيفاء بإيصاله للجهاز العسكري.

فقلت في خلدي وقد أصبح خليل سبباً بإعادة عملنا في الكتائب بعد الانقطاع الأول: لا تدري من أين يأتيك الخير، يخرج المهندس يحيى عياش إلى غزة، فينقطع الاتصال، وبعد أقل من عامين، يعود مجدداً من جهة غير متوقعة، ساقتها الأقدار إلينا.

يأتيني شاب إلى مركز عملي في السجن، ما زال يذكّرني بأني مصدر ثقة لدى بعض أعضاء حماس، في الوقت الذي أصبحت فيه لدى الغالبية العظمى «متساقطاً على طريق الدعوة» في أسوأ شكل يمكن أن يتخيله المرء، كوني سجّاناً على العشرات من قادة وأعضاء الحركة المعتقلين سياسياً على خلفية الرد على اغتيال المهندس في الخامس من كانون الثاني لعام ستة وتسعين وتسعمائة وألف في قطاع غزة، وقد كان هذا الأخ، يراني في بيت شقيقه بعد دخولي الشرطة، في حلقتي التنظيمية المغلقة والتي نطلق عليها اسم «الأسرة»، حيث لا يصح الانتماء دون الالتزام بهذا الشكل الدال على العضوية، لم أستغرب قدومه وقد كان بالأمس القريب واحداً من المعتقلين، يطلب مني شراء مسدس بصورة عاجلة، لأن أحد إخواننا المقاومين قد كُشف أمره حديثاً، وأصبح مطارداً لدى قوات الاحتلال وأجهزة أمن السلطة، وليس معه سوى سلاح كبير

نسـبياً لا يصلح للتنقل: أخ أبو أيمن!، هذا المجاهد والذي لم أسـمع باسـمه سـابقاً، خالـد، خليـل، لا أعلـم بالضبـط، مـن عائلـة الشريـف ويجـب أن نسـاعده، فهـو الآن في رام اللـه يعيـش ظروفـاً صعبـةً جـداً، ويريـد العودة للمدينة.

- كان مـا قالـه الشـاب كافيـاً للتحـرك بعـد أن زودني بثلاثـة آلاف دولار، كل مـا اسـتطاعت دائـرة خليـل أن تجمعـه رغـم صعوبـة الحـال، الأمـر الـذي لم يكـن كافيـاً لابتيـاع مسـدس مـن النـوع البلجيكي سـعة 14 طلقة، فاضطـررت للاسـتدانة مـن أحـد الأصدقاء، لأن الـثروة التـي توفرها زوجتي مـن فائـض قوتنا وملبسـنا تضعها عند شـقيقتها في بلدٍ آخـر حتى لا نضطر إلى اسـتنزافها، «وكانـت سـبعمائة وخمسـين دولاراً»، لم نسـتطع الزيـادة عليهـا بعـد مقـدم طفلتنـا التـي اسـتنزفت التوفـير وزيـادة، حتـى إذا مـا اسـتأجرنا بيتـاً، دفعنـا الـثروة لقاء السـتة شـهور الأولى والتـي لم نظفر منها سـوى بخمسـة عـشر يومـاً! لماذا؟! كحكايـات فلسـطين التي تولـد كل يوم وتكشـفها الأيـام، فقـد شـاءت الأقـدار وتوقفـت سـاعة الحيـاة الطبيعيـة، لكنّ الأهم الآن، أنّ الشـاب، تأخر أسـبوعاً ولم يأت لأخذ المسـدس، فكانت فرصـة لتدريـب مهنـد عـلى إطـلاق النـار بعـد أن أخرجنا مـن الأرض بعضاً مـن الرصـاص الـذي نخبئه منـذ الفترة السـابقة وكانت سـاحة رمايتنا جبال قريـة تـل جنـوب غـرب المدينـة، لكننـي ظللـت قلقـاً مـن احتـمال عـدم قـدرتي عـلى فتـح خـط مـع الأخ المطـارد حتى جـاء الفـرج وزودني الشـاب الـذي انسـحب مـن الصـورة، بمـكان اللقـاء الـذي سـألتقي فيـه بشـخص سـيأخذ منـي المسـدس، وهنـاك أعـلى حي «خلـة العامود» دخلت مسـجد «أسـامة بـن زيـد» قبل صلاة الظهر بسـاعتين حيث لا أحد هناك وجلسـت ملثـماً في غرفـة المكتبـة، أضـع على وجهـي وشـاحاً أحمر، وبعد ربع سـاعة

مـن الانتظـار، لم يشـغلني فيهـا سـوى شـاغل واحـد لا غـير: كيـف سـأقنع الأخ بفتـح خـط لنـا مـع الأخ المطـارد، دخل الملثـم بعد أن طـرق على باب المكتبـة الطرقـات المتفـق عليهـا وتبادلنـا كلمات الشـيفرة التـي لا يمكن أن أعطيه المسـدس بدونها: هل عندك رواية «كيف سـقينا الفولاذ» - سـألني الملثـم، وسـيكون مـن غرائـب الدنيـا السـبع أن تقتنيهـا مكتبـة المسـجد في حينهـا لأنهـا تتحدث عـن الثورة البلشـفية، فأجبته بالنفي قائـلاً: لا، ولكن! يوجـد عندنـا روايـة «طلائع الفجـر» لنجيـب الكيلاني.

- فقال: كيف حالك حسن؟ فأجبته: أهلا وسهلاً بحسين.

فجلـس قبالتـي دون أن يتحـدث منتظراً إتمام مهمتـه والانصراف، فقدمت إليـه المسـدس ومئـة رصاصـة، وقبـل أن يعطيني بقيـة النقـود قلت: يجب أن تخـبر الأخ أننـا مسـتعدون للعمل معه.

- فهـزّ الملثـم رأسـه دون أن ينطـق حرفـاً واحـداً، فأيقنـت لحظتهـا بـأن الأمـر لـن يسـير كـما خططـت له مـع مهند، وكـدت وأنـا أحوقـل في نفسي بـلا حـول ولا قـوة إلا باللـه، أن أستسـلم لتجاهـل الملثـم لـولا مفاجأتـه لي بالسـؤال: هـل تعرفنـي؟!

- فأجبـت فـوراً بالنفـي، ومسـتغرباً مـن سـؤاله، وأثنـاء قيامـه عـن الأرض متجهـاً نحـو البـاب، ولم أكـن حينهـا مسـتعداً لهكـذا نتيجـة بعـد أن جهّـز مهنـد الغرفـة لاسـتقبال الأخ وحمايتـه، طلبـت منه التريث قليـلاً، ثم قلت: أنـا أعرفك!

- فنظـر أخـيراً في عينـيّ بعـد أن كان يتعمـد خـلال اللقـاء القصـير عـدم التقـاء أعيننـا معـاً وقـد حسـبت أنهـا زيـادة في الاحتيـاط المطلـوب: أنـت أيمـن حـلاوة؟!

- عرفته مـن رقبته الغليظة التي كانت تأتيني في المنام طيلة مكوثنا معاً لسبع سنوات في صف واحد حتى الإعدادية وافتراقنا بسبب الاعتقال، وكان ضخماً في كل شيء تماماً كذكائه محل الغيرة لدينا نحن الأصدقاء قبل أن تأخذه الدراسة في بيرزيت، ونصبح نحن ضيوفاً دائمين في سجون العدو: وأنت! تحسبُ نفسك ملثماً بهذه الخرقة؟ لقد عرفتك من النظرة الأولى – وقد زال توتره وهو يتحدث إلي – ومع ذلك هل عرفتني من رقبتي فقط؟!

- فضحكت من صميم قلبي، أود تقبيله، فعادةً، يترتب على خرق أمني كهذا كوارث حال الاعتقال ومحاسبة من جانب المسؤولين بسبب الإهمال، ولكن «رُبّ ضارةٍ نافعة»، حينها فقط فهمت هذه المقولة على حقيقتها وجاءت رقبته الجميلة، «والتي ستصبح فيما بعد.. لا لا، لا يجوز أن أحرق الأوراق باكراً، حتى تحقق لي ما أريد: لقد رأيتك أثناء قدومي إلى هنا، تستقل سيارة أجرة متجهاً إلى بيتك، فربطت ذلك برقبتك..

- أخي الحبيب، لتعلم أن هذا الرجل صعب، ولن يستوعب فكرة انكشافي على أحد، فكيف إن علم بأنك شرطي في السلطة التي تطارده؟!



"ألون موريه وعزف البنادق"

لم يعق الظلام خط سيرنا ونحن نتلمس الطريق بين أشجار الزيتون، تحتضننا الواحدة تلو الأخرى، تفتح لنا الطريق، تبتسم لبنادقنا المشرعة، لقد اشتاقت لرائحة الضاد، موسيقى الضاد، فالزيتون في فلسطين يتقن فن الشاعرية، فتراه راقصاً، زجّالاً، عاشقاً لا يمكنك أن تراه فتشيح عينيك عنه، أن تستنشقه فلا تذوب بعبيره، أن تلامسه فلا تدب بجسدك القشعريرة انفعالاً، وحتى ترابه الأحمر المحروث بأظافر الفلاحين، كان يلين لنا ونحن نتقدم باتجاه الكمين، وقد عافت أنوف الأشجار رائحة الغرباء التي اغتصبت الهواء منذ عشرات السنين وهي تتحرش ذهاباً وإياباً في الحقل، إلى أن حضرنا إلى جزئها الغالي الذي احتلته القراصنة، طريقاً يصعد إلى مستوطنة «ألون موريه»، هدفنا الذي رصدناه لأيام طويلة ليلاً في معظم الأوقات ونهاراً في أحيان قليلة.

فالطريق يقع في أراضي القرى القريبة، «غرموط، دير الحطب، سالم»، شرق المدينة، وستكون العملية الأولى التي يشاركنا فيها خليل بعد أن زالت جميع الموانع لذلك، وأولها خشيته مني، وثانيها فترة الاختبار والتدريب والتي تضمنها تدريب على الرماية في جبال عصيرة الشمالية، اقتصر على مهند وثالثنا «أبو أمجد»، مجاهدٌ صلبٌ، تورمت أقدامه وأقدام مهند وهما يسيران في الجبال خلف الدليل الذي قادهما إلى شابٍ وسيمٍ في بطون الجبال، سنعرف فيما بعد أنه محمود أبو هنود

وحولـه مجموعـة مـن الملثمـين، بـات واضحـاً أنهـم رجاله الأشـداء.

- كانـت المـرة الأولى التـي سيزور فيهـا خليـل غرفتـه التـي أعدهـا مهنـد قبـل أشـهر قليلة، وسـيلقانا وسـط معركـة لا تقل ضراوة عن التي سـتجري بعدهـا بقليـل، يـصر مهنـد عـلى أن يشـارك خليـل في الهجـوم ويتمنطـق بأسـباب يكيّفهـا لصالحـه جيـداً، فلا يظفـر بموافقـة أحدنا، فكلانـا يرى أنه الأحـق بهـذا الجـزء الأهـم مـن العمليـة، وسـنبقى كذلـك حتـى أقسـمت عليهـما، إن منحـاني ذلـك، لأفعلـن أمـراً.. ابتسـم مهنـد وهـو يسـتمع لمـا قلـت ومـع ذلـك! لم يتنازلا، حتى حسـم خليـل الأمر بعـد أن أحضرته وفق المتفـق عليـه بالنقطـة الميتـة من غـرب المدينـة وكان ينتظـرني بالقرب من مستشـفى رفيديـا، فقـال: ينتظرنـا مهنـد في سـيارة الأمـان، وأبـو أمجـد في سـيّارة الانسـحاب، حينهـا نظـرت إلى وجهيهـما وقـد التقـت أعيننـا الثلاثة وابتسـاماتنا أيضـاً، فعـرف خليـل ما دار بيننـا: وأبو أيمن يشـاركني الهجوم.

- كنـت وخليـل نكمـن عـلى حاشـية الطريـق، يفصـل بيننـا خمسـة أمتار، بعيـدون عـن بيوت أقـرب قرية علينا «عزموط» مسـافة جيـدة، وقد فوتنا سـيارة للمسـتوطنين الصهاينـة، عبرت الطريـق فور وصولنـا، فألزمني خليل الهـدوء ريثـما نتأكـد مـن خلو المـكان من الجنـود على الرغم من تمشـيطنا لـه قبـل سـاعة، أثنـاء مجيئي ومهنـد للمكان، كانـت مهمتـي الأولى مراقبة الهابطـين مـن المسـتوطنة الجاثمـة أعـلى الجبـل المطـل شرقـاً عـلى الأغـوار الفلسـطينية وغربـاً عـلى مدينـة نابلـس، «فألـون موريـه» أول مسـتوطنة يقيمهـا العـدو، بعـد احتلالهـم للضفـة الغربيـة وقطـاع غزة والقـدس عام سـبعة وسـتين وتسـعمائة وألف، أما خليـل، فعيناه ترصـدان الصاعدين من الطريـق وقـد طال الكمين مـدة أربعين دقيقة في منطقة خطـرة جداً، لكننا

مصممـون عـلى إنجـاح العمـل بعد فشـل عدة عمليـات سـابقة، وبالفعل، جـاء الصيـد بعـد أن كانـت ألسـن أربعتنـا تلهـج بالدعـاء، فأعطـاني خليـل الإشـارة، ففتحـت كبسـة الأمـان وانتظـرت حتـى تعـبر السـيّارة الالتـواءة الأولى بدايـة الطريـق والتـي سـتبطئ سرعتهـا قبـل أن تصلنـا، وفي اللحظـة المناسـبة، بـدأ خليـل بإطـلاق النار مـن «ذو الفقـار» خاصتـه، محافظاً على مسـافة بيننـا وبين السـيارة حتى يشـبع رصاصنا منهـا، لحظتها، خرجت من تموضعـي إلى الشـارع وأخـذت وضعية القتـال مطلقاً الرصـاص مباشرة على الزجـاج الأمامـي والسـيّارة تتقـدم باتجاهنـا والـشرر يتطايـر من جسـدها، وفجـأة حـدث مـا تكرهـه الطبيعـة والأشـجار وحتـى أنفـاس الثائريـن في العـالم. توقـف رشـاشي عـن العـزف ولم يطلـق سـوى رشـقة واحـدة، ومـن هـول الصدمـة لم أسـتطع كـما تدربـت، تدارك الخلـل فـوراً، فأنحيت تحت صراخ خليـل لي بفعـل ذلـك، لأن السـيّارة أصبحـت بمحاذاتنـا ورصاصـة مـا زال يأكلهـا، فرجعـت قليـلاً للـوراء، ويـدي تبـدّل مشـط الرصاص بـدلاً من سـحب الأقسـام، لكـن عينـيّ كانتـا مذهولتين وهـما ترقبان المركبـة الكبيرة تعـبر مسرعـة مـن جانبنـا دون أن تتوقـف وخليـل ينهـي إطـلاق خمسـة وعشريـن رصاصـة: يـا إلهـي -صرخـت في داخلي- مـا الذي يجـري؟ «صاكاً عـلى أسـناني»، هـل انتهـى الأمـر وحسـب، دون أن نظفـر بسـلاح هـؤلاء الأوغـاد؟ ودخلنـا كـرم الزيتـون مجـدداً، وخليـل يتبعنـي، فسـقط مشـط رصـاص منـه، فعـدت للبحث عنه بعـد أن كنـت متقدماً عليه بالانسـحاب وسـواد الليـل لا يتيـح لنـا رؤيـة الكثـير، وأول شيء خـرج مـن فـم خليـل ونحن منسـحبين:

- هل رأيت كيف يتطاير الشرر من السيّارة؟

- رأيـت ولكـن – فقـال مقاطعـاً بهدوئـه وأيدينا تحمي وجوهنـا من فروع أغصـان الزيتـون الحُبـلى بالخير: لا تقلق، فالسـيارة مصفحة ضـد الرصاص.

وصلنـا سـيّارة الانسـحاب عـلى مدخـل القريـة وانطلـق بنـا «أبـو أمجـد» وسـلاحنا جاهـز لأي طـارئ، فالمنطقـة مليئـة بحركـة الجيـش وعلينـا أن نتجـاوز مئـات الأمتـار قبـل أن نصل مهنـد في منطقة ما قبـل الأمان، حيث كان ينتظـر «بعزيـزة» في طريـقٍ فرعـيٍ ومظلـم واصـلٍ مـا بـين مخيمـي عسـكر الجديـد والقديـم لأهلنـا اللاجئـين مـن أراضينـا المحتلـة عـام ثمانية وأربعـين والذيـن ينحـدرون مـن بيسـان وسـلمة وغيرهـا مـن فلسـطيننا الحبيبـة، وبهـذا الطريـق، نتجـاوز حاجـز الأمـن الوطنـي التابـع للسـلطة الفلسـطينية والـذي مـن المفـترض أن يفتـش السـيارات الداخلـة للمدينـة حـال الطـوارئ، نزلـت وخليـل مـن سـيارة الانسـحاب، ومعنـا البندقيتـان والذخـيرة، وركبنـا سـيارتي «عزيـزة» حتـى أدخل بهـا المدينة، بينما يسـتقل مهنـد وأبـو أمجـد سـيارة التنفيـذ متوجهـين نحـو المدينـة للتخلـص منهـا بطريقـة مدروسـة وحـذرة بعيـداً عـن الأعين، وكنا قـد ابتعناها مـن مدينة رام اللـه بصـورة ارتجاليـة قبـل ثلاثـة أيـام، بعـد أن تعبنـا مـن البحـث في معـارض السـيّارات، حيـث اشـتريناها مـن أحدهـم الـذي كان يقـف عـلى حاشـية الطريـق وسـط رام الله منتحلين شـخوص تجارٍ يبتاعون السـيارات القديمـة بهـدف تجديدهـا وبيعهـا، فدفعنـا ثمنهـا عـلى أن نعـود لاحقـاً لتسـجيلها رسـمياً في دائـرة السـير، ولم يكـن ممكنـاً حينها غير ذلك، لسـلامة العمـل وضـمان نجاحـه، دون أضرار جانبيـة، وبالطبـع سـنطير إلى نابلـس بعـد يـومٍ كامـلٍ مـن البحـث ولـن نعـود أبداً.

- سـارت الأمـور كـما خططنا لهـا، ولم يعـترض طريقنا خطرٌ مفـترضٌ ينبغي

أن أعالجـه حـال إيقافنـا داخـل المدينـة؛ لأن الوقـت تأخـر ليـلاً وأصدقـائي مـن الشرطـة منتـشرون في الطرقـات، لكننـا كنـا أسرع مـن أي تحـرك مضـاد، يخاطبنـي خليـل الـذي رأى انزعاجـي قبـل أن أنزله في غـير المنطقة التـي أخذتـه منهـا: أخـي أبـو أيمـن، أعلـم أن مقيـاس نجـاح أي عمليـة، لا يكـون بعـدد خسـائر العـدو عـلى أهميـة ذلـك، بل بسـلامتك أولاً وحسـن تخطيطـك، فـلا تنزعـج وأعلـم أننـي فخـورٌ بالعمـل معكم.

- وسـتكون عمليـة «ألـون موريـه» فاتحـة الثقـة الكاملة بيننا وبـين خليل، الـذي سـيصبح طيلـة عامٍ كامل ضيفاً في شـقة اسـتأجرتها خلف مستشـفى رفيديـا، دون علـم أحـدٍ عـلى وجه الأرض، سـوى شـخص تفاجـأت بوجوده ذات مـرة فيهـا، وكان ذلـك في أوج الاسـتعداد لعمـل كبـير، ولم ينبغـي أن نلتقـي في هـذه المرحلـة مـن العمـل، لأكتشـف فيـما بعـد، أنـه لم يكن غير محمـود أبـو هنـود، الذي تحبـه من اللحظـة الأولى، يدفعـك للاطمئنان له، عفـوي بامتيـاز، يذكـرك بأصالـة الأشـياء عندمـا يفقدهـا كثـير مـن النـاس، وقـد أسـماني مصطفـى وأسـميته «أبو مصطفـى»، وحده من دائـرة العمل، الـذي كان يـراني – إلى جانـب خليـل ومهند، مرتدياً الزي العسـكري الخاص برجـال الشرطة.

- أعلـن راديـو العـدو، الناطـق باللغـة العربيـة عـن تعـرض سـيارة ضابـط أمـن المسـتوطنة لإطـلاق نـار، وقـد رد الضابـط بالمثـل عـلى تلـك المصـادر، وقـد أعطانـا العـدو دليـلاً عمليـاً عـلى كذبـه، فالضابـط حقيقـة كان أثنـاء هربـه، يطلـق علينـا رصاصـاً مـن نـوع آخـر، يخـرج مـن أسـفل الظهـر، لا يتقـن فنّـه إلاّ الجبنـاء.

- بعـد العمليـة، ظللنـا نشـعر بالنقـص، وخليـل يصبّرنـا برسـائله، تماماً كما

يفعـل محمـود مـع رجالـه الذيـن باتـوا أكـثر إلحاحاً عـلى تنفيذ مـا اتفقوا عليـه مـع خليـل ليلـة اللقـاء في الجبـال: يـا إخـوة – يقـول محمـود – أنتم عرضتـم المسـألة عليـه وربـط الأمـر بالوقت المناسـب، فلـماذا التسرع؟

-فـيردون: نخـشى أن يصلنـا العدو قبـل أن نصله، نسـتحلفك بالله أن تبقى وراء أبي محمـد «خليـل» حتـى يـسرع فـما عدنـا نطيـق الانتظـار، والعـدو يقتـل ويعربـد ويقضـم الأرض ويحفـر تحت المسـجد الأقـصى لهدمه.

- يوقـف يوسـف معاوية عن الكتابة: اكتب للشـيخ أن يـأتي بخليل لزيارتنا مـرة ثانيـة وإلا أخبرنا اليهود عـن ذهابه للقدس.

- إذن! محمـود لم يقـاوم البعـد عـن القـدس أكـثر مـن ذلـك، يغيـب عنهـا قـسرًا بالنفـي إلى مـرج الزهـور جنـوب لبنـان، ثـم الاعتقـال المتكـرر وأخيرًا المطـاردة التـي افـترض جهـاز الشـاباك أن أبـرز إيجابياتهـا حرمانـه مـن الوصـول إلى القـدس والمسـجد الأقـصى، ولكـن! هيهـات لمـن بـكى تحـت منـبر صـلاح الديـن أو لامـس جسـده جـدران قبـة الصخرة...أربـع سـنوات متواصلـة، أن يقـوى عـلى فراقـه أو يتخيـل عائقًـا يمكـن أن يحـول بينـه وبـين السـجود في مـكان عـرج منـه النبـي الأعظم وتطهـر ترابـه بدمع ابن الخطـاب، لـذا اخـترق حواجـز الاحتلال في إحـدى الجمع التـي يتدفق فيها عشرات الآلاف في المسـجد الأقصى، دون أن يخبر أحداً، إلا من لا يقوى على منعـه، وهنـاك، حيـث ذكريـات الدراسـة في كليـة الدعـوة وأصـول الديـن، أرفـع كليـة جامعيـة شرعية تتبع جامعـة القدس في حينهـا، والمصارعة التي أتقـن فنهـا في أنديـة القـدس فكانـت حـاضرة في إحـدى معاركـه التـي لا ينضـب معينهـا!، وسـاحات الأقصى التـي مـا زحـزح العـدو أقدامـه عنهـا وهـو يصدهـم، يحاربهـم بحجارتـه، يقصفهـم بغضبـه، كان محمـود يبكي،

يـرثي نفسـه يُتـم الفـراق، تختلـط في عينـه دمعتـان، أشـدهما عـبرة الحزن وثانيهـما فرحـة العنـاق لمحبوبتـه الأزليـة والقلـب منهـا الأقصى.

وبعـد يـوم رآه كطرفـة عين أو ومضة ضوء، عاد إلى نابلس وضباط الشـاباك الصهيـوني، ما زالوا يبحثـون عنه في المجهول.

- أخـبرني مهنـد بعـد يـوم مـن عمليـة «ألـون موريـه» مـا قاله خليـل لهما: لقـد أبـرّ أبـو أيمـن بقسـمه ووقـف وسـط الشـارع، فقلت لـه: مـا الفائدة، لقـد فشـلت في إصـلاح الخلـل بسرعـة، وأيضـاً! كانـت السـيّارة مصفحة!

وبعـد فـترة مـن الزمـن، وبندقيتـا الهجـوم عندنـا، قـام مهنـد بتفكيكهـا بصـورة كاملـة، ومقارنـة الـذي أصابـه الخلـل «بـذو الفقـار» سـلاح خليـل والـذي شـهد صـولات سـابقة مـع الاحتـلال! فاسـتطاع إصـلاح العطـل وأصبحنـا نسـتخدمهما فيـما بعـد ببعـض المهـمات وكانا من نـوع «عوزي» صناعـة الكيـان الصهيـوني الـذي نقتلـه بهـا.



الدم يُحيي الدم

وهـل تغيب الشـمس؟! أيجوز أن تغيب، أن تغـرب، أن تغرق بعيداً هناك؟ لم أعـد طفـلاً يودعهـا لتذهـب قبـل الليـل وراء التـلال حتى تـزور الأطفال وتعـود صباحـاً، هيا أخـبروني، أتراها تـرأف بحبيب يتـوق لخيوطها، تلامس روحـه العطـشى للحيـاة، تزرعـه، تنبتـه، تنفخـه روحـاً مـن بعـد مـمات، وتتمهـل الرحيـل؟! هيـا قـل لي! – يـصرخ خليـل باكيـاً وهـو يهـز أيمـن من كتفيـه: أيجـوز أن يغـادرني قبـل أن ألقاه، أو ألقي على سـمعه وجع القلب فيمنحنـي الـدواء؟ أهديـه عظمي، غضبي، ثـأري، حلمي، سـاعدي، وإرثاً لا غـيره يراه؟! لمـاذا يرحلـون ونبقى؟!

- فيوقفه أيمن: لأنها سنّة الثوار والمجاهدين.

- فيبـكي خليـل بحرقـة: كنت أطمـع أن... ثـم يتوقف عن الـكلام قليلاً قبل أن يثـور مجـدداً: مـاذا أفعل الآن؟ لقـد أخبرتك قبل أن أصبـح معكم، أنني أريـد خيـار يحيـى عيـاش، لم أخلـق «للميكروفـون» والمسـيرات، وهـا هـو يرحـل ويتركنـي دون أن يأخـذني معه.

- فيعـاود أيمـن محاولـة تهدئتـه: عندمـا استشـهد عـماد عقـل الـذي مـرّغ أنـوف جيـش الاحتلال بالوحـل، احتفل رئيس وزراء العدو «اسـحاق رابين» بالخـلاص مـن كابـوس عـماد، وما لبـث أن تحـوّل الأمر إلى كوابيـس بظهور المهنـدس، وشـعبنا وحركتنـا سـينجبان من يحمـل الراية.

- فاحتـد خليـل: أنـا لا أحـب الـكلام، أنـت لم تفعـل شـيئاً منـذ أن علمـت برغبتـي بالعمـل مـع كتائب القسّـام وما زلت كذلك حتـى اغتيل المهندس.

- وأنـت أيضـاً – يجيـب أيمـن بـذات الحرقـة- تعلـم حـرصي عـلى الجهـاد والمقاومـة، لكننـي لم أنجـح في الوصـول لأحـد المجاهديـن.

- يفكـر خليـل وهـو ينظـر في عينـيّ أيمـن ثـم يقـول: لم يعـد أمامنا سـواه، نعـم، سـأخرج إلى الأردن.

- لكنك رفضت ذلك سابقاً!

- هـزّ خليل رأسـه بأسـف: كنت آمـل أن يجمعني الله بالمهنـدس، فأبقيت أمر السـفر كخيـار أخير.

- سـيحدثني أيمـن في مرحلـةٍ مـا، لم يعـد فيهـا خطـر عـلى المعلومـات، أن اغتيـال المهنـدس يحيـى عيـاش في غـزة، أحدث صدمـةً إيجابية لـدى خليل دفعتـه إلى التحـرك في جميـع الاتجاهـات، ومنهـا الخـروج إلى الأردن تحت غطـاء تعليمـي للقـاء أحـد العاملـين في الجهـاز العسـكري خارج فلسـطين، بواسـطة أحـد أصدقـاء الطفولـة في نابلـس مـن أبنـاء حـماس والـذي كان عضـواً سريـاً في القسـام، وهنـاك، كانـت بدايـة الحكاية.

- لم آت هنا للحديث، جئت لأمرٍ واحدٍ فقط!

يبتسـم الأربعينـي الـذي اسـتقبله في شـوارع عـمّان، عمـلاً بالـضرورات الأمنيـة، حيـث لا أماكـن ثابتـة للقـاء ولا أسـماء حقيقية والوجـوه مموّهة: هـذا الأمـر، سـنصنعه معـاً إن شـاء اللـه.

- يبـدو أنـك لم تفهمنـي! أنـا أريـد أن أنفـذ عمليـة تفجـير استشـهادية رداً عـلى اغتيـال المهندس.

- انتفض جسدُ الأربعيني، خفق قلبه، هي المرة الأولى التي يلتقي فيها فارساً من هؤلاء، الذين يكتبون أحرف الوطن بالدم ويصنعون من عظامهم تذكرة العبور إلى حيفا ويافا وتل الربيع والقدس، يسمع عنهم، تصله أنفاسهم، لكنّه يعانق أحدهم، يتحقق حلمه بلقاء راحلٍ إلى السماء، لم يعجزه انعدام الوسائل، فأخذ يتباكى بل أعذر إلى الله ثم التاريخ أنه لم يكن شاهداً على مذبحة أرضه وشعبه، فجعل من روحه وجسده قنبلة.

- بالقدر الذي وقف فيه الأربعيني عاجزاً عن التعبير أمام إنسان يختار الموت بإرادته دفاعاً عن أهله، بالقدر ذاته، أعجبه خليل، أذهله في منطقه ورؤيته للأشياء، فكانت الأيام التي قضياها معاً في شوارع عمّان، كافية للتأكد مما تناهى إليه من نباهة هذا الخليل، الذي سبقته سيرته إلى هناك، فكانت المعركة الصغيرة التي خاضها معه نقاشاً حتى يفكّر بطريقة أخرى: لا، يجب أن نرد على اغتيال المهندس، أن نوجع العدو، وبذات الطريقة التي كانت سبباً في استهدافه، وإلاّ! ذهب دمه هدراً وتمادى العدو أكثر ليصل إلى بقية المجاهدين، لذلك! لا خيار آخر غير تنفيذي لعملية استشهادية.

- يا أخي سنرد، وأنت تحديداً سترد، ولكن! لماذا تحصر نفسك في هذه الزاوية من العمل؟!

- فرد خليل: لأنها التي تؤلم العدو، تصنع توازن الرعب، تنقل المعركة إلى شوارعه وبين بيوته.

- لا خلاف على ذلك، وتأكد أن كثيراً من المجاهدين الآن يفكرون نفس تفكيرك.

- فقاطعه خليل: إذن، أوصلني إليهم، نعم، كيف نسيت، أستحلفك بالله أن توصلني بالقائد «محمد الضيف» في غزة، ألم يكن المهندس عنده؟!

- لن أربطك بأحد، لأن تفكيرنا وتركيزنا لا ينبغي أن يصبّ في اتجاه واحد، ستعمل بطريقةٍ أخرى، لا تقل أهمية عن التفجير!



ذو الفقار والعودة للمغارة

لم ينفـك محمـود وصحبـه عـن خليـل الـذي كان يعيش أجمـل لحظاته بين أسـود الجبـال، حتـى استسـلم لحثهـم إيـاه للحديث عـن سـبب مطاردته، فبـدأ يـروي أول فصـل مـن الحكاية: لم نجـد صعوبة بتحديـد الهدف، بعد أن أكرمنـا اللـه بـشراء «ذو الفقار»!.

- فنظـر يوسـف وبشـار في وجـه محمـود، مسـتغربين، فـلا علم لهـما بنوع سـلاحٍ يحمـل هذا الاسـم، غير سـيف سـيدنا عـلي بـن أبي طالب -كـرّم الله وجهـه-: ليـس سـيفاً – قالهـا محمود مبتسـماً.

- فأكمـل خليـل: بـل بندقيـة «عـوزي»، كانـت فاتحـة الخـير وسـتحكمون بأنفسـكم هـل تسـتحق هـذا الـشرف أم لا؟ أمـا السـيارة، فقـد أحضرهـا وقادهـا أمجـد الحناوي، مقاتل يشـبهكم، كنتم ستسـعدون لـو التقيتم به، ولكـن!. - فسـارع محمـود لإسـكات تسـاؤل الأخويـن قبـل أن ينطقـا بـه: اصـبرا قليـلاً وسـتعرفان أيـن هو!

- رأينـا المسـتوطن يقـف بسـيارته أمام مسـتوطنة «بسـغوت» المقامة على جبـل الطويـل شرق مدينـة البـيرة، فعرفنـا فـوراً، أننـا لـن نجـد أنسـب من هـذا الهـدف، فتوكلنـا عـلى اللـه وسرنـا باتجاهـه، وفي اللحظة التـي اقتربنا فيهـا من سـيارته، أطلقت العنان للرصاص من مسـافة صفـر، وكنت أجلس بجانـب أمجـد، فأصبتـه في الجـزء العلـوي من الجسـد، فمات عـلى الفور.

- ها، وبعدها؟!، سأل يوسف مأخوذاً بالحكاية.

- فابتسم خليل قائلاً: نزلت بسرعة، وفتحت باب السيارة، وأحييت سيرة «عماد عقل»، الذي كان يرفض مغادرة ساحة العملية قبل أن يجهز على الجنود ويغنم سلاحهم.

- الله أكبر –خرجت من أفواه الثلاثة معاً– ها، وماذا فعلت؟!

- تأكدت من ذهابه إلى جهنم، بعد أن غنمنا بندقيته من نوع «شنايزر» ثم انسحبنا بسرعة.

- وكانت هذه العملية- يقول محمود- باكورة الرد على اغتيال المهندس يحيى عياش -رحمه الله-، والعدو فهم ذلك جيداً.

- ولماذا لم تعلنوا المسؤولية عن العملية؟! -سأل بشار – لقد انتظرنا حينها ونحن في سجون الأجهزة الأمنية أن نسمع اسم القسّام حتى ننشط ذاكرة رابين؟!

- لقد وصلت الرسالة دون الإعلان عن العملية، ومن الحكمة أحياناً تغليب الضرورات الأمنية على الكسب الإعلامي الحق، والذي قد يربحك مرحلياً ويقصم ظهر المجموعة للأبد، إن وصل العدو لطرف خيطٍ بعد الإعلان.

- فتدخل محمود بالقول: مع أن إحدى الفصائل أعلنت عن العملية، وهذه سرقة.

- فابتسم خليل: دعنا نعمل لوجه الله ثم شعبنا ونحمي أنفسنا من الملاحقة، ودعهم وما يفعلون، فالحقائق لا تبقى خافية إلى الأبد، أليس كذلك؟! واتسعت ابتسامته أكثر.

- ولكـن لم تخبرنـا كيـف تـم كشـفك؟! سـأل بشـار الـذي وقف عـلى فتحة المغـارة حتـى ينظـر إلى السـطح عمـلاً بنظـام المراقبـة الاحتياطيـة حتـى بوجـود مناوبـات المراقبـة.

- فأجاب خليل بسؤال أليم: ألا نؤجل ذلك إلى مناسبة ثانية؟!

 فـردّ الثلاثـة معـاً: لا، وانضـم إليهـم معاوية وتوفيـق قبل انتهـاء مناوبتهما وقـد سـمع معاويـة آخر الحديـث: نعم، نعـم، ونحن أيضاً نقـول لا، ولكن، عـلى ماذا؟!

- فضحـك الجميـع قبـل أن يحتـج يوسـف وبشـار: لم تنته المناوبـة بعد، أم أنكما..!

- فقاطعـه توفيـق: يـا أخـي دعنا نجلـس معكم قليـلاً، لقـد أخذتم نصيب الأسـد في مجالسـة شـيخنا محمـود و«أبـو محمـد»، ومـن المؤكـد أن الكثير قـد فاتنا.

- فقـال بشـار محـركاً كلتـا يديـه وهـو يتصنّـع الظفـر بمـا يتـوق الأخـوان لسـماعه: مِـن هـذه الناحيـة، صدقـت، لمـاذا الكـذب؟! لقـد راح عليكـما نصـف عمركـما!

- فحوقل معاوية ثم قال: وماذا الآن؟!

- فانفجـر بشـار مـن الضحـك وهـو يصعـد للأعلى وحـده قائـلاً: «ويؤثرون عـلى أنفسـهم ولـو كان بهـم خصاصـة» صـدق الله العظيـم، أسـأل الله أن تتذكـرا هـذا الإيثـار عندما تحـين اللحظة التي تنتظرنا! ولا تنسـوا إلى حينها حفـظ كل كلمة حتـى أعود.

- العمليـة الأولى –يسـتأنف خليـل حديثـه- كانـت مثاليـة في كل شيء،

وأحسب أن نجاحها بعد توفيق الله -عز وجل- يعود إلى إخلاص المهندس وبركة دمه، فقد أخذنا بجميع الأسباب الدنيوية ولم نترك أثراً يقود إلينا، واحتفلت بالعملية مع بقية الطلبة في الجامعة، كأي واحد منهم، وهذا ما دفعني وأمجد إلى التخطيط للعملية الثانية ولكن! مع رفع الوتيرة قليلاً – كان خليل يتحدث بصيغة المثنى دون أن يأتي على مجرد ذكر وجود مجاهد ثالث، اسمه أيمن حلاوة والذي كان يساعد خليل ما بعد التنفيذ – فقد رصدنا هدفاً نوعياً كنت أراه دائماً في الذهاب والإياب إلى مدينة رام الله محطتنا الرئيسة للذهاب إلى جامعة بيرزيت القريبة، ولطالما تخيلت استهدافه بأكثر من إطلاق النار ولكن! نعمل بما توفر أفضل من انتظار توفر الإمكانات المناسبة، لذلك، انطلقت وأمجد إلى مدخل مدينة البيرة الشمالي قبالة مركز قيادة الضفة الغربية لقوات الاحتلال في مستوطنة «بيت ايل» المقامة على أراضي المواطنين الأصليين من أبناء شعبنا..!

- تدخل محمود قاطعاً استرسال خليل: تقول البيرة وليس رام الله، مع أن الجميع يطلق على المنطقة برمتها رام الله؟

- هذا خطأ جغرافي ويُغضب أهلنا الطيبين في مدينة البيرة، على كل حال، رام الله والبيرة قطعتان نفيستان من فلسطين الغالية، لذلك، رصدنا مغادرة حافلة «الباص» الكبيرة التي تقل موظفي مقر قيادة قوات الاحتلال، الذين يتحكمون في حياة وحرية وأرزاق وممتلكات شعبنا في الضفة الغربية.

- وأكيد استخدمتم في العملية، سلاح المستوطن –علّق توفيق-، فأجاب خليل بالنفي: لا، فقط «ذو الفقار» العوزي، فرصاصات مخزنه «الخمسة

والعـشرون» تكفـي إذا أتقنـت التصويـب عـلى النوافـذ من مسـافة مترين، وهـذا مـا نوينـا فعلـه ونحـن نكمـن في السـيارة قبالـة الـدوّار المحـاذي لفنـدق «السـتي إن» والـذي يضطر فيه «الباص» للسـفر ببـطء ملتفاً حول جزيـرة في منتصـف الطريـق يتفـرع منها أربعـة مسـالك، وفي اللحظة التي نزلـت فيهـا الحافلـة مـن المقـر وبـدأت بالـدوران حـول الجزيـرة، تعطينـا كامـل نوافذهـا!، تحـرك أمجـد بالسـيارة في المسـلك المعاكـس حتـى أصبح الجانـب الأيمـن للحافلـة أمامـي، الوجـوه اللئيمـة، الحاقـدة، المجـرّدة مـن الإنسـانية، القاتلـة لأحلامنـا، لأطفالنا، لأشـجارنا، تدعـوني إلى القصاص منها، وهـذا مـا كان بالفعـل! عندما بـدأ ذو الفقـار «بالزغردة» تعانـق رصاصاته النوافـذ جميعهـا، والرعـب يخطـف وجـوه القتلة قبـل اصطـدام الطلقات بالزجـاج..!. توقـف خليـل عـن الحديـث عـن ذروة العمليـة، فصـاح المجاهـدون الذيـن اعتدلـوا في جلسـتهم انسـجاماً مـع سـخونة الحديـث: أكمـل، لا تتوقـف، مـاذا بعد؟!

- للأسـف- تنهّـد خليـل وهـو يخرجها من أعـماق صدره، فتحولـت الوجوه إلى غـير مـا كانـت عليـه قبـل لحظـات دون أن تنبـس ببنـت شـفة – كان الزجـاج مصفّحـاً ضـد الرصاص.

- فخرجـت الحوقلـة مـن أفـواه الجميـع، حتى سـأل يوسـف: لعنهـم الله، منـذ متـى يقومـون بتصفيـح الحافـلات؟! لقـد حطمنـا زجـاج كثـير مـن حافـلات المسـتوطنين بالحجـارة ولم تصمـد أمامنـا؟!

- فأجـاب خليـل: منـذ أن أصبح يسـتقلها مثـل هؤلاء الصهاينـة، وهذا ما لم نكتشـفه قبـل الهجـوم، ولكـن! كـما قلـت لكم، بركـة دماء المهنـدس كانت تحـوم في المكان!

- عـادت الابتسـامة إلى الوجـوه مجـدداً، فاندفـع معاوية بالـكلام نيابةً عن خليـل: فتفجـر الزجـاج ومزقت الرصاصـات وجوههم!

- ضحـك خليـل قائـلاً: كنـت أتمنـى ذلـك، لكـنّ اللـه -عـز وجل- لم يشـأ في علـم غيبـه مـا خططنـا لـه لحكمـةٍ نجهلهـا في حينه.

- حـار المقاتلـون حتـى بـدا ذلك عـلى وجوههم، فقـال يوسـف مازحاً: هل تأخـذ حصتـي مـن الخـوخ وإن شـئت حصـة الشـباب وفوقها عـشر حبات مـن اللـوز الأخـضر، وجميعهـا حلالٌ مـن أراضينـا، وتخبرنا لماذا تبتسـم؟!

- فقال محمود مستدركاً على يوسف: بل قُل، لماذا تضحك؟!

- فأجـاب خليـل وهـو يعـدّل جلسـته: أصابنـا الضيـق ونحـن نـرى الحافلة تهـرب بسرعة من المكان، فانسـحبنا بصورة عكسـية باتجـاه طريق نابلس-رام اللـه القديـم وعـلى يميننا مقـر قيادة جيش الاحتلال ومسـتوطنة «بيت ايـل» وكانـت مخاطـرة لا بـد منهـا لتفـادي ردة الفعـل المحتملـة للحافلـة ودوريـة الحراسـة الأماميـة، وخـلال نصـف الدقيقـة الأولى من الانسـحاب بسرعـة قصـوى، والإصبـع عـلى الزناد، مررنا مـن أمام محطـة انتظار صغيرة للـركاب الصهاينـة، بالقـرب مـن مدخـل المسـتوطنة، فكان هنـاك اثنان من المحتلـين، رجـل وامـرأة، يقفـان داخلهـا! بانتظـار..!. توقـف خليـل، فأكمل بشـار: أن يقلهـما أحـد الصهاينة!

فصاح عليـه بقيـة الإخـوة وهـم يضحكـون: بـل الرصـاص أيهـا الـذكي وجميعهـم ينظـر في وجـه خليـل، يرجـوه ألا يقل غـير ذلك، فأكمـل خليل: صدقتـم، أطلقـت عليهـما صليـة مـن الرصـاص مزقتهـما أمـام عيوننـا، ولم نشـك ونحن ننسـحب بـذات السرعة باتجـاه مخيم الجلـزون، أنهما أصبحا

في جهنم بعد أن سقطا على الأرض، حيث أعلن العدو فيما بعد، مقتل المستوطنة الغاصبة وإصابة صديقها بجراح خطرة..!. أوقفت تكبيرات الشباب في المغارة، استطراد خليل، وكانوا يطلقون هتافهم بصوت منخفض .

- وعندما وصلنا..! رفع معاوية يده في وجه خليل قائلاً: أرجوك أن تنتظر قليلاً، دعنا نفرح بعض الوقت، فكلما قلت، عندما ولكن! تأتي مصيبة بعدها.

- رد خليل: معك حق ولكن! –فضحك الجميع– ألا يكفي أن لقاءنا هنا كان نتيجة لما أريد الحديث عنه؟!

- فأجاب محمود: معك حق في هذه، إلاّ إذا كان لدى الأشاوس رأي آخر؟!

- فتبرع توفيق للحديث باسم إخوانه: هذه اللحظات، لسنا وحدنا السعداء بها، اخرج إلى العراء، ستجد صدى ضحكات الشيخ فرحان السعدي وأبو ديّة، تتجول في سماء فلسطين طربة لما يفعله الأحفاد ولكن!، وهذا دورنا لقولها، بقاء سعادتنا مرتبط بتلبية حاجتنا التي لا نقدّم عليها أمراً آخر!

- فهزّ خليل رأسه مردداً على مسمع الجميع وعيناه تحدّقان في عيني محمود: الحمد لله، الحمد لله، إن أحيانا المولى -عز وجل- وتوفرت الأسباب، سيخرج الجميع راضياً، والآن – قال توفيق والحماسة على وجهه- تستطيع أن تكمل مهما كانت النتائج، شريطة أن نتشرف باحتضان «ذو الفقار»، لقد شوقتنا إليه بعد أن تشرفنا بلقاء صاحبه!

- ستلتقونه وتعزفون عليه قريباً، والآن! وبينما كنا منسحبين بسرعة من أمام مخيم الجلزون، ظناً منا بأن العدو يلاحقنا، انقلبت السيّارة عدة مرات حتى اعتقدنا، بما تبقى لنا من وعي أثر دوار الرأس الذي أصابنا، إنها النهاية، ولم نعِ جيداً لما يدور حولنا، إلاّ عندما بدأت الأيدي بملامستنا، وإخراجنا من السيّارة، حيث تبدد الخوف لدى رؤية التعابير الجميلة على الوجوه التي هبّت من أزقة المخيم تحمل وجع اللّد والرملة، وقد سمعت صوت الرصاص، «أول البداية للعودة»، فهبّت لنجدتنا، فنهضنا بسرعة، لم يصبنا ضرر كبير يمنع ركضنا باتجاه سيارة خاصة، طارت بنا إلى بلدة بيرزيت القريبة وهناك قرر أمجد العودة إلى نابلس شريطة الحذر من إمكانية كشفنا بعد الحادثة وأن نبقى على تواصل، وبدوري لم أجد أنسب من الدخول إلى الجامعة لعدم استعدادي المسبق لهكذا طارئ، وحتى أرصد التطورات.

- يحدثني أيمن الذي ما زال خليل يخفي وجوده عن المجاهدين في جبال عصيرة، أن خليل أدرك بعد مغادرة السيّارة، أنه بات مكشوفاً لقوات الاحتلال، فسألته: ألم يتخذا احتياطاتهما الأمنية قبل الخروج للعملية؟!

- بلى، البصمات، ارتداء القفازات، والسيّارة تم شراؤها دون كشف هوية أمجد ولكن! وقع الاثنان في خطأين قاتلين! عندما قام أمجد بعمل صيانة للسيارة في كراج يعرفه!

- لا أفهم! فهذا الخطأ ليس بالضرورة كشف أمجد.

فأجابني أيمن بشيء من الأسف: صحيح! ولكن بشرط ألا يضع صاحب الكراج علامة محله على مقود السيارة بعد أن غيَّر الزيت!

- لا حول ولا قوة إلا بالله، وماذا عن خليل؟!

- نسي كرّاس المحاضرات في السيّارة وعليه اسمه الشخصي، فانكشف على الفور من جانب قوات الاحتلال التي أبلغت أجهزة أمن السلطة عبر ما يعرف «بالتنسيق الأمني» حتى تساعد باعتقاله، أما أمجد الحناوي فاعتقل بعد يومين في مدينة طولكرم، وحكم عليه ثماني سنوات في محاكم السلطة الفلسطينية في مدينة أريحا، وسيظل اعتقال أمجد أرقاً يلازم خليل طيلة عملنا معاً، وفي أحد الأيام، استطعنا الحصول على معلومة تفيد بقرب نقل أمجد من سجون الأجهزة الأمنية في أريحا إلى نابلس، فبدأنا نخطط لتخليصه وتحريره أثناء عملية النقل، وكان خليل على تواصل دائم معه بعد الحكم عليه وانتقاله للسجن عبر الرسائل المكتوبة والمشفّرة، لكننا عدلنا في النهاية عن ذلك للخطر الكبير المترتب عليه، وعلينا أثناء عملية التحرير.

- أما المغارة ورائحة الصباح التي بدأت تعبر منعشة أهل الجبال وضيفهم، فكانت تشهد تناقضاً بالمشاعر لدى معاوية ويوسف وتوفيق، حزناً على اعتقال أمجد وكشف خليل، وارتياحاً نسبياً خفف عنهم حملاً يجثم على صدورهم منذ أن كانوا سبباً بمطاردة أستاذهم وشيخهم محمود.

- يستطرد خليل الذي بدأ يعتاد الجلوس والاتكاء على أرض المغارة، قائلاً: اقتحمت الأجهزة الأمنية، التابعة للسلطة الوطنية..! توقف خليل معتذراً: آسف، أقصد السلطة الفلسطينية، فالذي يفعل ما يقومون به ليس وطنياً، فقد عاثوا فساداً في شقة الطلبة التي أسكن، وللأسف، عثروا على بندقية المستوطن.

- اللـه أكـبر –احتجّ معاويـة غاضباً- ألا يكفون عن هـذه الجرائم، يجردوننا مـن السـلاح الـذي نحصـل عليـه بشـق الأنفـس، بالأمـس مسـدس الشـيخ محمـود واليـوم بندقيتك!

- فاتجهـت أنظـار الجميـع إلى وجـه معاويـة الذي شـعر أنه كشـف أمراً لا ينبغـي الحديـث عنـه دون إذن شـيخه، فرفع إصبعه إلى أعـلى محرَجاً وهو ينظـر في عينـي محمـود: أعتـذر، لم أنتبـه إلى لسـاني. فضحك محمـود وهو يتبـادل النظـرات مـع خليـل الذي شـعر بوجود قصـة أخرى وراء المسـدس غـير مسـألة مصادرتـه التـي يعرفهـا، فظـلّ محدقـاً في عيني محمـود، حتى نطـق الأخـير: لا بـأس، سـأحدثك لاحقاً بأمر المسـدس.

- فصفّـق الثلاثـة بصـورةٍ جعلـت خليـل يتشـوق لسـماعها مـا دامـت تثـير هـذا الحـماس لـدى المقاتلين، وزاد يوسـف على ذلك بالقول: هـذه الجبال، جبـال نابلـس، الممتدة شـمالاً حتـى جبال الكرمـل في حيفا، حُبـلى بالأسرار، وتحديـداً جبـال قريتنـا، فوكـزه محمـود بكتفه ملاطفـاً: لا تبالغ!

- بعدهـا عـاد خليـل لـسرد بقيـة الحكايـة: تم محـاصرة الجامعـة من ذات الأجهـزة، وبـدأت الأمـور تنكشـف للجميـع، بعـد أن هـدّد المحـاصرون باقتحـام الجامعـة إن لم أسـلم نفـسي وكنـا في حينهـا مـا زلنـا نعيـش أسـوأ تجربـة حدثـت في تاريـخ الجامعـات الفلسـطينية عندمـا اقتحمـت قـوات الشرطـة والأمـن الفلسـطيني في مدينتـي نابلـس، حـرم جامعـة النجـاح الوطنيـة لفـض اعتصـام الطلبـة مـن جميع الفصائـل، قبل أسـابيع من ذاك اليـوم، حيـث أطلقـوا الرصـاص الحـي والغـاز المسـيل للدموع واسـتخدموا الهـراوات، فأصيـب كثـير مـن الطلبة ذكـوراً وإناثاً، الأمر الـذي لم تجرؤ على فعلـه قـوات الاحتـلال طيلـة مكوثهـا في المدينـة، لذلـك تَمَـتْرَسَ الطلبـة في

المداخـل الأساسـية ومنعـوا مجـرد التفكـير بالاقتحـام، حتـى تمكنـتُ بعون اللـه ومسـاعدة مجموعـة مـن الطلبـة، بعضهم مـن أصدقـائي القدامى من أبنـاء فتـح، مـن الانسـحاب خـارج الجامعـة، لتبـدأ رحلـة المطـاردة وصولاً إلى هـذا اللقـاء الجميـل.



سكانُ الروحِ والمهمّة!

فدائيـة مقدامـة، تقتحـم صـدري، تقفـز كعـدّاءة وثـب محترفـة، تهدينـي وجنتيهـا، ثغرهـا، سـحر نعومتهـا، ألتهمهـا فتـذوب بـين شـفتيّ كقطعـة حلـوى سـويسرية، تضحـك، تبـكي، تـصرخ، تسـتنجد عالمـاً لا ينقذهـا مـن أسـناني، أعذبهـا، فتسـحرني أكـثر، لا أرى غيرهـا في الكـون، فـتراني الكـون نفسـه، وسـكان حارتنـا الغيـارى، امرأتان جميلتـان، جمال الياسـمين وأكثر، تنقضّـان عـلى صـدري، تقاتـلان كلبؤتـين، تريدان لـو أرأف عـلى قلبي الذي أصبـح بـين يـديّ وأسـماه الواهـبُ، ابنتـي!

- دعـك مـن البنـت، تـصرخ أمـي الجميلـة وهـي تضحـك فتتـورد وجنتاها الممتلئتـان، فتسـاندها زوجتـي، جميلتـي الثانيـة: يـا رجـل! ارحـم البنـت، مـا زالـت صغـيرة عـلى عضاتـك، انظـر إلى وجههـا، لقـد أصبـح مثـل حبـة «البنـدورة».

- ممتـاز! – أقـول وأنـا أقذفهـا في السـماء ثـم أضـع قدمهـا الصغـيرة في فمـي – لـذا سـوف ألتهمهـا دون ملـح. فتضحـكان عـلى بكائهـا الضاحـك، لا تريـدني أن أعتـق لحمهـا الطـري وتريـدني أن أحميهـا من أسـناني، فتبكي، تـصرخ، تسـتنجدني مـن نفسي، «أجمـل تناقـض في الوجود»، فأنزلهـا فجأة، فتـأبى، تتدحـرج خلفـي بأشـهرها الخمسـة عـشر، تعاتـب ذهـابي عنهـا إلى الغرفـة، وقـد انتظرتنـي خلـف البـاب صباحـاً ريثما أنهـي مناوبتـي الليلية

في السـجن، فأجالـد نفـسي وأنـا أبتعد عنهـا وعن عيون أخـرى تقتلني أكثر، ترقـب اسـتعجالي لمغـادرة البيـت، فلا يفهمن ذلـك، بل وحدهـا التي تفهم ذلـك وقـد أنجبتني عـلى هذه الحال الـذي تراه يشـغلني، فترمقني –أمي– بعينيهـا قائلـة دون أن تقـول: لا تغامـر فتفطر قلبي وقلـب زوجك وابنتك، لم تعـد كـما كنـت ذات مـرة وأنـا أطاردك في السـجون.

فـأسرع دون أن ألتفـت للـوراء للمـرة العـاشرة وسـحر الثلاثـة يجذبنـي للخلـف، يحـاورني كخبـير في فـن العشـق والحيـاة: أنـت لسـت أحمـق أو غبيـاً حتـى تتركنـي وتذهـب لأمرٍ قـد يقـوم بـه غـيرك، أنـا أمـك المفجوعة بأخيـك الـذي أعـذر إلى اللـه شـهيداً فكفانـا، وأنـا طفلتـك التـي أهدتنـي السـماء إليـك، فعـثرت عـلى نفسـك في عينـيّ وبـين أحـرف أربعـةٍ تخـرج مـن بـين شـفتيّ «بابـا»، أمـا أنـا، فبحـرٌ، سـماءٌ، نجـومٌ، ظننـت في عمـرك الـذي مـضى أنـك حـيّ، فلما نمـت على كفـي، غفـوت على همسي، سـكرت عـلى صـدري، أقسـمت إنـك بُعثـت مجـدداً مـن المـوت. يـا رب!! أصرخ في صـدري وأنـا أتركهـن خلفـي ليتكـرر المشـهد مئـات المـرات بعدهـا، أعنـيّ عـلى عجـزي وضعفـي، فـإن غادرتهـن أوجعننـي، وإن قعـدت عندهن بكى شـعبي وأرضي!

سـافرت إلى مدينـة رام اللـه، أحمـل على كتفـي أول مهمة مـن نوع خاص، سـتكون خاتمـة عـام سـتة وتسـعين وتسـعمائة وألـف، ظلّت تؤرقنـي طيلة الليلـة الفائتـة، فلـم أسـتطع النـوم في فـترة الراحـة، وقضيتها متنقـلاً ما بين قسـميّ السـجناء الجنائيـين وطاقـم الشرطـة الصغـير الـذي كنـت أرأسـه، عـالمٌ لم يمـر حتـى في خيـالي فيـما مـضى، فكيـف العمـل فيـه، وأنـا الـذي لم تكـد السـنة السادسـة عـشر مـن العمـر تمـضي حتـى غـدوت أسـيراً في

سجون العدو، سنتان ونيّف، ثم تبعها أسرٌ آخر، فكرهت بعدها كل الجدران التي تبتلع البشر داخلها، لكنني تأخرت يومها عن الموعد، والضابط المسؤول في مركز شرطة المدينة يوزع الأفراد الجدد على الأفرع وفق الحاجة، ليكون نصيبي في الفرع الذي يكرهه الجميع، السجن، فأصبحت سجّاناً رغماً عن أنفي، أبتلع الوجع والألم كلما رأيتني أدخل البوابة، فأطرد -محاولاً- فكرة أنني أصبحتُ السجين والسجان في آن واحد.

- استقليت سيارة الأجرة التي ستنقلني وستة ركابٍ إلى مدينة القدس، وهي المرة الأولى التي سأدخل فيها المدينة الأروع في العالم، في يوم عادي غير يوم الجمعة الذي يتدفق فيه عشرات الآلاف من أهلنا للصلاة في المسجد الأقصى ومئات الألوف في جُمع رمضان، الأمر الذي يستدعي الانتباه وربما الحذر، فستكون المرة الأولى التي سأفحص فيها نفسي، إن أوقفتني شرطة الاحتلال، وما إن كنت قد أقنعت مخابرات العدو بتركي المقاومة وحماس ودخولي السلطة الفلسطينية أم لا؟! لذا، سألت الله -عز وجل-، والسيارة تصل بنا بسرعةٍ إلى المدخل الشمالي للقدس حيث المسافة قصيرةٌ جداً ما بينها وبين رام الله والبيرة، أن يسهّل أمري، ولم تستطع مغنيّة السنة آنذاك، ديانا حدّاد، التي تسمعها شئت أم أبيت ما دمت راكباً، أن تمنع سؤالي وكلماتها التي بقيت أجهل معناها ردحاً من الزمن «أمّنيه – أمّنيه، أمن الأماني، أمنيه أمان أمان ليش أنا حيرانهِ» تتراقص في السيّارة.

- تجاوز بنا السائق الضفاوي بسيّارته التي تحمل ألواح ترخيص ضفاوية، الحاجز العسكري الثابت لقوات الاحتلال المقام على المدخل

الشـمالي للمدينـة، عـبر بيـوت أهلنا من سـكان ضاحيـة البريـد القريبة من بلـدة الـرام والمحاذيـة للحاجـز، وبمشـهدٍ مضحـك، أصبحنـا عـلى الطـرف الآخـر مـن الحاجـز والجنـود ينظـرون إلينـا ونحـن نخالـف حركـة السـير قبـل أن تعـبر السـيارة المسـلك الصحيـح وتمـضي بنا إلى بـاب العامـود، فلم يكـن مسـموحاً لأهـل الضفـة الغربيـة دخـول المدينـة دون تصاريـح مـن قـوات الاحتـلال، لكـن ذلـك، لم يمنـع دخـول أبنـاء شـعبنا إلى مدينتهم كما فعلنـا نحـن، وسـيتوقف عـلى السـائق دفع غرامـة مالية حـال القبض عليه لسـببين، دخولـه القـدس ونقلـه إيانـا، فأهـل القـدس مـن أبنـاء شـعبنا، حصلـوا عـلى الهويـات الزرقاء بعد احتـلال المدينة عـام 1967م، الأمر الذي يمنحهـم قانونيـة وجودهـم وتحركهـم وتملكهـم داخـل القـدس وفلسـطين التاريخيـة المحتلـة عـام 1948م، دون إعطائهـم الحقـوق السياسـية التـي تُمنـح للمواطنـين، فأهلنـا رفضـوا «الجنسـية الاسرائيليـة» فـلا يشـتركون في الانتخابـات البرلمانيـة «الكنيسـت» وغيرهـا، وهـذا لا يمنـع أن الاحتلال قام بتجنيـس البعـض ممـن رضي أن يخالـف القـرار الوطني الرافـض للتجنيس.

- كانـت المهمـة ظاهرهـا بسـيط: راقـب محطـة الـركاب الصهاينـة المقابلة بجانـب أول إشـارة ضوئيـة بعـد دخولك الحاجـز! لقد مرت الإشـارة الأولى والثانيـة، فلـم أجـد محطـةً ولا ركاباً للمحطـة، وكانـت المنطقـة عربيـة بامتيـاز، بلـدة بيـت حنينـا التـي يشـقها الشـارع الرئيـس الواصـل مـا بـين رام اللـه والبـيرة، ومدينـة القـدس، والحقيقـة، أننـي لم أكـن قلقـاً بمعرفـة شيءٍ بقـدر العثـور على الإشـارة الضوئية المنشـودة ومحطة ركابهـا الخفية، وبعـد بضعـة مئـات مـن السـفر، عـبر بنـا السـائق مفرقـاً متعدد المسـالك، وهنـاك عـلى يسـار المسـافر وجدتهـا! يـا إلهـي العظيـم، ثـلاث محطـات للـركاب، تجلـس عـلى رصيـف المسـلك العريـض، وبعـض الـركاب الصهاينة

منتشرون في المكان، فكانت النظرة السريعة كافيةً لتشكيل الفكرة الأولى عن المكان، ولكن! هذه ليست مواصفات الهدف المطلوب مراقبته!! لا بأس، قلت في حينها ولم أعلم بعد طبيعة العمل المُزمع تنفيذه بالمكان، سأراقب الموقع الذي سأكتشف بطريقة غير مباشرة أنه «التلة الفرنسية»، وسأراقبه مرةً ثانية أثناء عودتي راكباً من باب العامود بحيث يصبح على يميني، لكنّ عدد الصهاينة لم يقنعني ليكون هدفاً، فنزلت في بيت حنينا ولم أكمل طريق العودة إلى رام الله والبيرة مروراً بالحاجز الذي لا يكترث بالخارجين من القدس، ودخلت أحد المساجد المطلة على الشارع للصلاة والاستراحة قليلاً، وحتى يمرّ بعض الوقت ليتسنى لي رؤية الموقع في زمن مختلف، وهذا ما تم، بعد أن رصدته ذهاباً فلم يختلف الحالُ كثيراً عن سابقاته، بضع جنود ومثلهم من المستوطنين، فتمهلت قليلاً في باب العامود، وما زال المكان يبهرني جمالاً، مذ كنت طفلاً، أزور القدس، أحجّها، أُيمم إليها وجهي، طفلاً، صبياً، فشاباً، أسوارها، خيالُ شاعرٍ وجمال امرأة لم تخلق، أسواقها، تعاريجها، مآذنها، رائحتها، عجائزها، وطالبات المدارس: جنونٌ يقف على باب العقل ولولا المهمة، لظللت جالساً ببدلة العرس، التي سأظل أرتديها في المهمات الخاصة دون ارتداء ربطة العنق، حتى تغرب الشمس وتشرق مرة ثانية فأرى الجمال في أطواره المختلفة، لكنه الواجب، عدت ولم أثر الجنود الذين يتجولون في باب العامود حتى لا يطلبوا بطاقتي الشخصية للفحص، وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية ظهراً، فغادرنا حي المصرارة الفاصل ما بين حدود المدينة الغربية المحتلة عام ثمانية وأربعين، والشرقية المحتلة عام سبعة وستين وتسعمائة وألف، ثم عرجنا على حي الشيخ جرّاح فمستشفى العيون، حتى وصلنا التلّة الفرنسية

فألقيت القبض عليها بالجرم المشهود، عشراتٌ من الصهاينة ينتظرون الحافلات، يتكدسون في المواقف الثلاثة أو الأربعة؟! ليس مهماً، فالأهم قد تحقق، وعليّ أن أطير إلى نابلس عائداً بالصيد الثمين، لأجد مهند ينتظرني، متوعداً، منذراً، على طريقته الجميلة وقد أوشكت الشمس على الغروب: أنت تخيفني بغيابك هذا؟!

- لا تخف، دعني الآن أكتب الرسالة المغلقة حتى تبعثها إلى النقطة الميتة في مسجد الحاج معزوز المصري، بأسرع وقت، كي لا يفوتنا الموعد.

- أخي أبو أيمن، أستحلفك بالله ألا تفعلها بدوني!

- يا رجل! سنتأخر..! قاطعني بقوله: لقد نسيت أن أخبرك، والدتك كررت السؤال عنك عدة مرات، وأظنها زوجك التي تقف وراء ذلك.

- آخ... هذا الوجع الأشد على صدري!

فصاح مهنّد: ممتاز، إذن دع المهمة التي أخفتك عن الرادار يوماً كاملاً لأخيك الصغير، أنفذها عن ظهر قلب حتى لو كانت ما اتفقنا عليه منذ زمن بعيد؟!

- مهنّد! عندما تحين اللحظة المناسبة، ستعرف بالأمور المنوطة بك أن تفعلها. سيأتيني الرد بعد يوم واحد: بارك الله فيك، لقد فرحنا جداً، ولم يعد مهماً البحث عن الإشارة الضوئية التي اتضح أنها غير دقيقة، بعد أن كفيتنا ما نريد وزيادة، على أن تتأكد بصورة لا تقبل الشك بأن الموعد الذي حددته هو الأنسب حتى أطلعك على الخطوة الثانية، مع إبقاء الأمر بيني وبينك فقط!

وبعد يومين، كررت السفر ورصد المكان في الوقت ذاته، فاستقر الأمر على ذلك وانتقلنا للمرحلة الثانية من العمل.

- عمليـة استشـهادية!! – خرجـت مـن فـم خليـل كالموسـيقى، موسـيقى أندلسـية لا يطـرب عليهـا غـير المظلومـين، نقيّـة مـن شـائبة عنـف أو فرية تطـرف ناصعـة الهـدف شريفة المقصـد وليس أروع من جسـد يزرع الأرض السـليبة بلحمـه وقـد أعيتـه الوسـيلة فلـم يجد غـير دمه يسرج بـه قناديل الوطن.

-نعـم مسـتعدان! قـال مهنـد وهـو ينظـر في عينـيّ خليـل الـذي يزورنـا في بيـت مهنـد وبـات يعلـم أنـه في مقـره الثـاني والأحـب عـلى قلبـه، فأجاب: عـلى رسـلكما، لسـتما المقصودين

- فقلت: لكننا مستعدان.

- فدمعـت عينـاه تأثراً وهو يبتسـم: جميعنا مسـتعد، لكنهـا البداية وعلينا أن نضمـن اسـتمرار العمـل أولاً ثم نرى ما يكتبه الله لنـا وتقتضيه مصلحة شعبنا وحركتنا..

- هـل ارتحـت الآن؟! – سـألتُ مهنـد فأجابنـي: نعـم، وما زلـتُ أحذرك أن تخطـو خطـوةً نحـو الشـهادة دوني. فتدخـل خليـل: لا تقلقـا واسـألا المولى -عـز وجـل- أن يرينـا نهايـة العدو عـلى أيدينا.



الخالة الحسّاسة!!

- بيتٌ قديم، يختفي وسط البيوت التي تصطف على طرفي «درج البلدية» الذي يشق الجبل الشمالي صعوداً، مئات الدرجات الحجرية، التي بُنيت منذ عشرات السنين، تحمل سكان الجبال على ظهرها، تريحهم على مصاطبها، قواطعها التي ينتهي إليها الصاعد وقد انقطعت أنفاسه، فيجلس ساخطاً ويقوم مرتاحاً يحلم بتعب الصعود غداً، فأن تسكن في مدينة الوادي الذي تحده من طرفيه الجبال، وتحظى بالمواطنة النابلسية، يعني أن تدفع ضريبة ذلك عبر قدميك، حتى وإن نسيت ذلك وعيناك تقرأ الجمال من شرفة بيتك كلما نظرت إلى أسفل.

- يجلس خليل إلى جانب محمود الذي يضع كيساً داخل كيسٍ سبقه كيسان، وهو يرتدي القفازات الطبية: والآن – يقول محمود- أصبحت الجميلة جاهزةً!

- ألا ترى معي أنها كميةٌ قليلةٌ؟! ماذا ستفعل الثلاثة كيلو غرام؟! كان خليل يتحدث وهو يزنها بيده.

- فرد محمود وهو يأخذها بلطف: أولاً عليك أن تكون حذراً في التعامل مع صاحبتنا، فهي حسّاسة ولا تحب المزاح، وثانياً، هذا ما استطعت صناعته من المواد الأساسية التي وفرتها لي وثالثاً...

ضحك محمود وهو ينظر إلى الزي الذي يرتديه خليل: قبل «ثالثاً»،

زي الشرطة يليق عليك كثيراً، لم أحسب أنك ستندمج مع الدور جيداً.- فأجاب خليل ضاحكاً «أيضاً» وهو يصحح القبعة الشُرطية: وأنا كذلك، ولولا تشجيع «أبي أيمن» وجلوسي إلى جانبه في مجيئي إليك وهو يرتدي الزي ذاته لرأيتني في حالٍ أخرى.

- أمّا ثالثاً – يستأنف محمود حديثه – فلا تستهن بهذه الكمية من خالتنا «أم العبد»، سأخبرك بدليلٍ عملي يثبت صدق كلامي ولكن قبل ذلك، ألم يدفعك الفضول..! قاطعه خليل مكملاً حديثه: لماذا نطلق على هذه المادة المتفجرة أم العبد؟! سأخمّن ذلك، لأن المهندس يحيى عياش، عندما استخدمها أو أوجدها أسماها كذلك!.

- أما عن التسمية، فتأنيثها كان سببه المهندس، لأن اسمه الحركي الذي كان المجاهدون يطلقونه عليه بداية العمل هو «أبو العبد»، فلّما زفّ خبر نجاح تجاربه لقائده وإخوانه، أطلقوا عليها «أم العبد» تيمناً به، وكانت وقتها إنجازاً عظيماً لعثوره عليها بين دفات الكتب، فهي تركيبة موجودة في عالم المتفجرات وتدربنا عليها في لبنان وسوريا أثناء الإبعاد إلى مرج الزهور.

- دليلك قبل أن تنسى!

- فيجيب محمود: صحيح أن المهندس استخدم كميات أكبر من أم العبد في حقائبه، وكذا فعل المجاهد عبد الناصر عيسى مهندس عمليات عام خمسة وتسعين في «رمات غان ورمات أشكول».

- غير أن المجاهد سعيد بدارنة، مهندس عملية الخضيرة عام أربعة وتسعين، فك الله أسرهما، لم يستخدم «أم العبد» مطلقاً!

- وماذا استخدم إذن؟!

- استخدم أعواد الكبريت، فقال خليل مستغرباً: عملية الخضيرة الاستشهادية والتي أوقعت ستة قتلى صهاينة وعشرات الإصابات، بمواد محترقة؟!

- ليس هذا فحسب، بل بأنبوب مياه حديدي محكم الإغلاق، وضعه على بطن الشهيد عمّار عمارنة الذي فجر نفسه على مصعد الحافلة وليس داخلها.

لكنّ «أبو أيمن» ومجموعته، جربوا شيئاً شبيهاً ولم ينجحوا!.

- لعلهم أخطؤوا في نقطة معينة، المهم الآن، استخدم طريقة الخضيرة بما توفر لديك واحذر؛ لأن خالتنا «أم العبد» أكثر المواد المتفجرة حساسية.

- قبل أن أذهب فموعد قدوم «أبو أيمن» قد اقترب، لقد ظننت فيما مضى أن عملية الخضيرة من صنع المهندس عياش؟!

- في الحقيقة لا، وهذا ما أزعج مخابرات العدو وصفعها بقوّة لدى اكتشاف الأمر، لأن أخانا سعيد بدارنة أحد القادة الميدانيين لحماس في بلدته يعبد، لم يكن على اتصال بكتائب القسام التي يمثلها المطاردون لقوات الاحتلال: علي العاصي، بشار العامودي، يحيى عياش وغيرهم من العناوين التي كانت تنشط آنذاك.

- وبعمله البطولي –قال خليل– اكتسب العضوية عن جدارة.

- أتعلم يا أخي؟! لقد أثرت أمراً يجهله كثير من الناس، صحيح بأن المقاومة العسكرية قرار إستراتيجي لدى الحركة منذ انطلاقتها، وقد

تربينا على ذلك ما قبل عام سبعة وثمانين في محاضن جماعة الإخوان المسلمين التي انبثقت عنها حماس، إلا أنّ كثيرًا من المجاهدين، قاتلوا بمبادرةٍ فردية، بأموالهم الشخصية، كان هذا في قطاع غزة وهنا في الضفة الغربية والقدس، وبعضهم أصبح يقود العمل فيما بعد.

لكن! هناك قيادة مركزية توجّه العمل، قال خليل، فعلق محمود: كلما كان العمل العسكري يقترب إلى المركزية في الأرض المحتلة، أي وجود قيادة توجه مجموعات، كلما كانت الضربة من جانب مخابرات الاحتلال أقوى وأسرع، لذلك، لا مركزية في عملنا ولا ينبغي أن تكون كذلك؛ لأن معركتنا مع العدو، معركة مفتوحة، يتغلب فيها علينا بتفوقه الاستخباراتي، ونوجعه بضرباتنا الخاطفة والسريعة!

- أكمل خليل: حتى يأذن الله -عز وجل- وتتوفر لدينا الأسباب والإمكانات التي تمكننا من إنشاء جيش التحرير.

- ابتسم محمود، بل اقترب إلى الضحك، فسأله خليل الذي يجهز نفسه للمغادرة: أضحك الله سنّك، لقد بت أعرفك جيداً، ذكّرك حديثي بشيء؟!

- لم تفارقنا فكرة الجيش مطلقاً، حلمنا بها منذ الصغر، ربانا عليها شيوخنا وقادتنا العظام، وأسأل الله أن يكون لنا سهمٌ في تحقيقها عندما تتهيأ الظروف.

- ستتهيأ، عندما تصبح التضحية ثقافة عامة لدى أبناء الحركة وليس مقتصرة على فئة محددة. فعلّق محمود: تقول كلاماً خطيراً، فعملنا نخبوي، ليس بحاجة إلى أعدادٍ ضخمة في ظل الظروف الأمنية والإمكانات المحدودة.

- فـرد خليـل: هـذا شيء، وأن يكون الشـاب الفلسـطيني والحمسـاوي على وجـه التحديـد، مسـتعداً بـكل الأوقـات، جاهـزاً للتضحيـة بنفسـه ومالـه، انتـماؤه لوطنـه ودعوتـه غير مشـترط، شيء آخـر، لقد حدثني أبـو أيمن، أنه عـرض عـلى أحدهـم العمـل العسـكري فرفـض تحت حجـة رعايتـه لبعض الأمـور في مسـجده. - فقـال محمـود: تتفـق معـي أننـا بحاجـة إلى الطبيب في عيادتـه والمحامـي في محكمتـه والأسـتاذ في مدرسـته وهكذا.

- صحيـح ولكـن! القيـادة مـن تقـرر ذلـك، يجـب أن يبـكي الطبيـب حتـى تسـمح لـه بالالتحـاق في صفوفنا لا أن يقـرر من تلقاء نفسـه طبيعة دوره، هكـذا فقـط! يمكـن أن تتوفـر لديـك النـواة الصلبـة للمقاومـة المسـتمرة وصـولاً لتحقيـق حلـم إنشـاء الجيش.

- وبينـما كان خليـل يهـمّ للخـروج بعـد وداع محمـود، التفـت للـوراء وهـو يرفـع كلتـا حاجبيـه للأعـلى: تقـول لي، الطبيـب في عيادتـه والمحامـي في محكمتـه؟! وأنـت يـا صاحـب الإجـازة الشرعيـة، أيـن يفـترض بـك أن تكـون؟!. غـادر خليـل البيت يحمل في صـدره وعقله ابتسـامة رجلٍ عظيم، سـيكون أروع مـن التقاهـم في حياتـه، حيث كنت أنتظره في زاوية الشـارع متصنعـاً إعـمار عطلٍ في السـيّارة يسـاعدني سـتار الليل في المـكان، وقبل أن أعيـده إلى حـي رفيديـا، تم الاتفاق عـلى الترتيبات الدقيقـة وفي غمرة ذلك، سـألته عـن أمـرٍ يشـغل بالي منـذ مدة وجـاءت اللحظـة المناسـبة لقوله: ما دمنـا سـنصنع حقيبـة مفخخـة، لمـاذا لا يشـترك المهندس أيمن حـلاوة بذلك وهـو الأعلـم منـا في مجـال الكهربـاء؟! أجابنـي خليـل بهـدوء تـام وكأنـه ينتظـر سـؤالي هـذا منـذ أن خـرج أيمن مـن الصـورة ولم يعد حلقـة الوصل بيننـا، وكنـا لحظتها نسـير في شـارع الملـك فيصل متوجهين إلى غـرب المدينة

وخليل الذي لا يتحرك إلا للضرورة القصوى ليلاً، يستمتع بكل شيء يراه: أخونا أيمن، لم يحن دوره بعد وينبغي أن نبعده عن الصورة، فلدينا الخبرة التي تكفينا في هذه المرحلة ولسنا معنيين بحرق كل أوراقنا.

- كنت أظن في حينها أن خليل رجل الكتمان، يخفي حقيقة أيمن عني، لكنني سأكتشف لاحقاً أنه كان يفكر بطريقة القادة ويقول الصحيح!

- في اليوم التالي، كان مهند ينجز أولى المهمات بشراء ثلاجة قديمة بحالة ممتازة من نوع «أمكور» ويضعها في غرفة خليل، وبدوري أحضرت أم العبد من نقطة ميتة في المقبرة الشرقية، حيث لم يشأ خليل حملها ليلة أمس للدواعي الأمنية، وستكون المرة الأولى التي أحمل فيها أم العبد بين يديّ، وقد أسرعت إلى مهند الذي أحضر مع الثلاجة وعاء طعام بلاستيكي عازل ومحكم الإغلاق ليضعها داخله حتى لا يحصل ما نكره، وهناك وضعناها داخل الثلاجة في الرفوف الوسطى بعد أن أزلنا جميع المؤثرات الكهربائية المباشرة، فالثلاجة تبقى السيدة الجميلة «أم العبد» بهدوء وبرودة بعيداً عن الاستفزاز الحراري، ولم يكن ممكناً في حينها دفنها في الأرض تحت ظل شجرة وما شابه كما تقول الإرشادات، أما الخطوة الثانية فكانت مهمة مهند وحده، حيث جال على مجموعة كبيرة من محال بيع الأدوات الصحية وابتاع ما يلزم عملنا متخذاً كل إجراءات الحيطة والحذر ولم تكن حينها قد غزتنا حمّى كاميرات التصوير على أبواب المحال والشوارع ولكن!! ستحوم فوق رؤوسنا الخشية من تكرار الفشل وسيظل خليل يصبرنا بفلسفته الخاصة عن النجاح بعد عمليتي ألون موريه وطنجرة الضغط!!

قبر يوسف وطنجرة الضغط!!

عندما تفكر في التركيبة النفسية لهذا النوع من البشر، ستكتشف أنك أمام خليطٍ عجيب من الشر والخبث والمكر والخداع والكذب والقرصنة، يبيحون لأنفسهم كل شيء، حتى قبر عجوز من قرية «بلاطة البلد» شرق المدينة، اعتاد الناس على قراءة الفاتحة عليه واعتاد أن يأنس بسماع ضحكات أحفاد أبنائه عندما يلعبون في ساحة ضريحه، أصبح كذبة كبرى، حكاية لم يسمعها أحد قبل أن تقصّها الأفواه الكريهة: قبر يوسف الصديق- عليه السلام!! فتضع عجوز تسعينية يدها على فمها وهي تسمع ذلك، وقد جلست على حجر أمام طابون جارتها الشابة ابنة السبعين عاماً، حتى تروي لها للمرة الخمسين وربما أكثر كيف دبكت في ليلة حنّاها: «يا كشلي وظيم حالي، هذا خرّاف عُكّال ولا مجانين؟! كولي يا بنتي».

- فتضحك الشابة السبعينية، التي تزيدها رؤية جارتها شباباً ونضارة، وهي تقلب الرغيف الكبير على الأحجار الصغيرة الموضوعة داخل التنور ولهيب الحرارة يلفح وجهها الذي تقرأ فيه جمال الريفية الفلسطينية، وتقول: يا عمتي! هؤلاء اليهود «عجّزوا الأنبيا» ولن تقف الحكاية عند قبر جدنا يوسف دويكات، فهذه الكذبة معناها واضح! - فتغضب العجوز التي تغطي شعرها بوشاح أبيض منسدل على ثوبها المزركش بقليل من السنابل:لا حول ولا قوة إلا بالله، ألا يكفي ما ضاع من

البلاد، يريدون سرقة قبورنا؟ - راقبنا القبر جيداً، رصدنا حركة الدخول والخروج إليه، جمعنا المعلومات الكافية لاستهداف المستوطنين الذين يتخذون منه مزاراً ومدرسة، تحميهم اتفاقية أوسلو التي تبيح لهم سرقة أمواتنا، حيث تحوّل القبر منذ الاحتلال إلى ثكنة عسكرية بين بيوت أهلنا والمدارس الثانوية المحيطة والتي كانت حجارة بواسلها تحج كل يوم على رؤوس الغاصبين، وقد تلقى الصهاينة درساً من النوع الثقيل قبل أشهر من حكايتنا هذه، عندما حاصرهم أبناء شعبنا داخل الضريح ومحيطه غضباً من اكتشاف نفقٍ تحفر تحت المسجد الأقصى المبارك، فقُتل تسعة جنودٍ برصاص المخلصين من قوات الأمن الوطني وتحديداً (القوة 17) ولم ينقذ الأربعين جندياً إلا تدخل الأجهزة الأمنية الفلسطينية التي أدخلت بعض عناصرها داخل القبر فكفَّ الناسُ عن الهجوم، وقد كنتُ مشاركاً في المعركة كبقية الناس، وكانت المرة الأولى التي يلتحم فيها بعض المخلصين في الضفة والقطاع من أبناء السلطة مع قوات الاحتلال، حيث سقط عشرات الشهداء بما بات يُعرف بانتفاضة النفق...

دخلت حافلة المستوطنين إلى المدينة، فركض مهند وسط الشارع المظلم في المنطقة الشرقية واضعاً طنجرة الضغط على الجزيرة الصغيرة، ثم انسحب باتجاه تقاطع الطريق وهو يمد سلكاً كهربائياً يصل إلى خلف التلة الترابية شمالاً، وانتظر عشرين دقيقة حتى عادت القافلة بعد أن أوصلتها دورية الأمن الفلسطيني إلى حدود منطقة «ألف» والتي تبعد عن العبوة عشرات الأمتار فقط، ولما مرّت دورية الحراسة الأمامية للعدو وتبعتها الحافلة الكبيرة، شغّل مهند الدائرة الكهربائية لتفجير العبوة فلم تنفجر، فأسرعت الحافلة ودورية الحراسة الخلفية بالهرب،

وبـدوري خرجـت بالسـيّارة مـن الزاويـة الخفيـة دون أن أضيء مصابيـح الإنـارة، حتـى لا تكشـفنا النقطة العسـكرية على قمة جرزيـم، فركب مهند إلى جانبـي وطـرت بـه عـبر الطريـق المختـصرة في المنطقـة الصناعيـة وقـد حمـل رشـاش العـوزي تحسـباً لأي طـارئ، ولم يكـن يهمنـا في لحظتهـا غـير أمـر واحـد لا غير: مـا هذا الذي حـدث؟! كيف لم تنفجر طنجـرة الضغط؟! لكنهـا أصـدرت صوتـاً خفيفـاً أعقبـه ضـوءٌ كبيرٌ في الشـارع؟!

لنكتشـف لاحقـاً أن غطـاء الطنجـرة كان نقطـة الضعـف التي حـررت النار مـن الضغـط، ولم يتولـد الانفجـار، عـلى الرغـم مـن تفريغنـا ألفـي رصاصة «M16» مـن الكحـل المحـترق وهـو الـشيء الوحيـد المتوفـر بأيدينـا بكثرة، وفي ذات الليلـة أعلـن العـدو أن هجومـاً بالمولوتـوف جـرى ضـد حافلـة المسـتوطنين!! لكنـه في الواقـع، أجرى مسـحاً أمنياً وتحقيقـاً دقيقاً لما جرى، ومـع ذلـك، ورغـم الألم، أقسـمنا أن نعـود لهـذا الهـدف لاحقاً!



عودةٌ للتلة الفرنسية

- أعلنـا الصيـام، عـدة المتوكلـين عـلى اللـه، فـلا أعجـز مـن عمـلٍ لا ترتبـط وجهتـه بالسـماء، تباركـه معيّـة اللـه، ترعاه في الطرقات، تبتسـم لاسـتنجاد صحبـة مـن السـجدات، تبكي عـين مهند سـاجداً قبيل الفجر هنـاك، وأكف خليـل، قلبـه، روحـه، معلّقـة هنـاك، آهٍ يـا رب تخـرج من ضعـف محمود، يسـتنفر غـوث الجبّار.

- انتظـرت في رام اللـه، أحمـل الحقيبـة الثقيلـة بيـدي، بعـد أن أحضرهـا مهنـد مـن نابلـس، وسلسـلة مـن الخطـوات سـبقت هـذه المرحلـة مـن العمليـة، تعـب، إرهـاق عصبـي، تمويـه، كتمان، العمـل على حافـة الخطر، أنظـر في السـاعة! تأخـر الاستشـهادي، لقد اتفقـت معه بالأمـس أن يأتيني في هـذا الموعـد، تفاجـأ بذلـك، لم يدر الموعـد بالضبط، لم يخـبره أحد بذلك، للـه درّك أيهـا الخليـل، مدرسـة في الأمن!

سـافرت بـه حتى يرى التلة الفرنسـية بعينه، ثم أعدتـه إلى رام الله، وكنت متخفيـاً في المظهـر واللكنـة التي تحوّلـت إلى ريفية، فنحـن في نابلس، نُميل الأحـرف حتـى لا تـكاد تفرقنـا عـن أهـل «بـاب تومـة» في دمشـق، تأخـر أكـثر! يـا رب!! تشـعر أنك أضعف مخلـوق على وجـه الأرض، تحمل حقيبة مفخخـة! فجـأة! رأيتـه مـن بعيـد، يعتمـر القبعـة كـما اتفقنـا، هيئتـه كما يجـب، تصافحنـا، لم أعاتبـه عـلى التأخـير، وهل يعاتب الشـهيد؟! يـا إلهي،

لا أستطيع أن أعقل ما يجري، إنسان يقرر أن يموت فداءً لدينه ووطنه، يقف أمامك، ترى فلسطين في عينيه، في غضبه.

- أنا آسف.. صفعني بها، فسألته بلطف شديد: على ماذا يا أخي؟ - وكنت أحاول طرد ما أخشاه من وراء صيغة الاعتذار، أنا لست جاهزاً!! سيؤنبني خليل لاحقاً، لماذا ألححت عليه؟! تستطيع إقناع متردد في أي شيء ولكن ليس في هذا المقام!!

- لقد صدق خليل، رأيتني حينها أحاول أن أقنعه بقراره السابق بتمزيق أجساد الذين يحتلون أرضنا، يغتالون حلمنا، لكنه كان في تردده أقرب إلى التراجع، لم يحمل معه نقود العودة، غير أنه لم يكن صائمًا معنا، فأعطيته نقوداً ولم أره بعدها، وقفت مع نفسي، يحركني الغضب؟! لا أدري، نيّة كامنة في الصدر؟! لا جدال في ذلك، لكنني سأخلط الأوراق، لا لا.. هذا مصطلح قد يأخذ أحياناً معنى الإيجاب، إذن، سأدمر من ورائي، وهذا ما لم يقله خليل وهو يعاتبني ما بين الجدّ والابتسام: لم يحن دورك بعد، حتى تنفذ العملية بنفسك!

- قالها بعد عدة أيام من العودة إلى نابلس وبيدي الحقيبة، ومهند يعاتبني كأنني فعلتها: لكنك توقفت لثوانٍ مع نفسك تفكّر؟!

- يخاطبني – أعرفك جيداً أكثر من نفسي، فأرد عليه بألم: لم أرد أن يذهب تعبنا بهذه السهولة! - يضحك مهند كعادته، كتعبير عن رفضه للأمر برمته: وتنفيذك للعملية دوني، تراه سيكون أسهل علي؟!

- يتدخل خليل الجالس على السرير، وهو يرفع كلتا يديه طالباً منه الجلوس وقد تبدّد الكدر الذي أعقب فشل العملية موجهاً حديثه

لمهند: رفضك لما كان ينوي أبو أيمن فعله، سببه تركك لوحدك؟!!
- فأجاب مهند دون تردد: يا أبا محمد، أنا وهذا الرجل، الذي كنت أختبئ وراءه زمن انتفاضة الحجارة حتى لا تراني شقيقتي الكبرى، ونحن متغيبون عن الدراسة للقيام بالواجب، لم نفترق في الحياة فهل يجوز أن تفرقنا الشهادة؟!

- سكت خليل، لم يجب، لعلّه لم يرد أن يفسد تلك اللحظة، وبعد قليل من الانفعال الصامت قال: الحمد لله الذي جمعني بكما وأسأله أن نجتمع في الفردوس الأعلى من الجنة، وإلى حين ذلك يجب الانضباط وعدم اتخاذ القرارات المصيرية دون العودة لنا، فعملنا لا يحتمل الارتجال، أليس كذلك يا أبا أيمن؟!



الواجب الأصعب!!

- عثرت على شقةٍ جيدةٍ خلف مستشفى رفيديا غرب المدينة، لتصبح مسكن خليل طيلة الفترة اللاحقة، وشاءت الأقدار أن تكون في ذات البناية التي يسكنها أبرز قادة حماس في الضفة الغربية الأستاذ جمال منصور والذي كان لتوه قد أفرج عنه من سجون السلطة الفلسطينية بعد عشرة شهور من الاعتقال..

ولكن! لم يمنع ذلك من وجود شخص في ذات البناية يعمل مع أحد الأجهزة الأمنية، لم يجد خليل مشكلة كبيرة بوجوده مع قليل من الحذر، وكنت أنسى في أوقات كثيرة أنني ضابط شرطة بنفسي ولهذا وجهان أفضلهما: الدور الذي أقوم به لخدمة المجاهدين، وأسوأهما: ما ألقاه من نظراتٍ تقتلني، تذبحني، أتمنى معها أن تبتلعني الأرض أو تسحقني دبابة ولا ينظر إليّ شاب يزور شقيقه السجين السياسي لديّ بازدراء، وقد كان بالأمس القريب يراني مع شقيقه جنباً إلى جنبٍ في صفوف المقاومة.

- كثيراً ما كنت أتخيل اللحظة التي ينكشف فيها أمر الواحد فينا فيصبح مطارداً «بكسر الراء» لقوات الاحتلال، ينصب لهم الأفخاخ في الطرقات، يصطادهم، يقنصهم، ولم نكن نفكر كثيراً بما دون ذلك، حتى لحظة إشرافي الكامل على إيواء خليل لأكتشف عالماً آخر للمطارد أو

المطلوب لقوات الاحتلال وأجهزة أمن السلطة، على الرغم من لعب هذا الدور في الانتفاضة الأولى ولو بصورة جزئية مع أحد المجاهدين في حينا، والذي كان يرفض تسليم نفسه فأساعده في أمور بسيطة كتوفير بعض الأغطية وكشف الطريق له خشية الاصطدام بدوريات الاحتلال وما شابه، ولقد لعبنا هذا الدور، أنا ومهند، مع محمود ورجاله قبل أن نتعرف عليهم، من خلال توفير بعض الاحتياجات الضرورية كفرشات النوم الجاهزة والتي تستخدمها الكشافة في التخييم وهكذا، لكن المعايشة اليومية لحياة المطارد ورؤية تفاصيلها عن قرب تضعك أمام حقيقة الصعوبات التي يحياها وقد تحوّل إلى شخص مرتبط بالآخرين بصورة كاملة، ولعلنا سنكشف تفاصيل مؤسفة لا بد من الحديث عنها في المراحل المتأخرة من سيرة رجال الحكاية، ذاك الجزء المؤلم من حياة المطارد الذي باع نفسه لله دفاعاً عن دينه وأرضه وشعبه.

- كان خليل ينام في الصالة الخالية من الأثاث كبقية الشقة، ولم يكن من الضرورة أن أملأها بالعفش نظراً لتعثر الحال فجأة، كما كنت أجيب على سؤال المؤجر: متى ستنتقل للسكن في الشقة؟! فلقد ظللت أختلق الأعذار حتى ملّ من السؤال الذي لم يكن ملحاً الإجابة عنه نظراً لدفعي الإيجار مسبقاً وهذا الأهم بالنسبة له وثم بقاء الشقة خالية من السكان والذين ربما يكونون –من وجهة نظره- مزعجين، على كل حال، لم يكن الجيران فضوليين وهذا ما ساعدني بالتردد شبه اليومي على الشقة، فالبناية أو العمارة كما نطلق عليها في نابلس، ليست سكناً شعبياً فالإيجار مرتفع نظراً لاتساع الشقة ومكانها وحداثة بنائها النسبي، الأمر الذي يفرض النوع المطلوب من الجيران لعملنا السري.

- أسوأ ما كان يزعج خليل، أن أدخلَ الشقة دون أن يشعر بي وتحديداً بعد أن أنقر على الباب، نقرات خفيفة متفق عليها، لكنّ حضوري بات يشكل قناة التواصل الرئيسة التي تربطه مع المقاتلين، بعد أن كان يعتمد جزئياً على بعض الرجال فيما سبق ولسبب ظل خفياً في صدره!

لم نر أثرهم فيما بعد وربما كان السبب عدم الحاجة إليهم بعد أن كفيناه، وهذا ما علمناه من محمود لاحقاً، فالعمل العسكري يحتمل ذلك، فأحدهم يساعدك بأمر معين تراه مناسباً له فلا يتعدى ذلك، وآخر تكتشف بعد الامتحان العملي الأول أنه سيكون عبئاً ثقيلاً عليك فتفضل استبعاده خشية كشفك، والمثالي من يتجاوز مسألة الانضباط إلى الابداع في تطوير العمل دون أن يترك أثراً خلفه يقود إليك.



عملية الشاين!!

- كان شـهر رمضـان الـذي أعقـب فشـل عملية التلة الفرنسـية بأيام، شـهراً عظيـماً بامتيـاز، مسح بعضـاً مـن الحـزن عـن قلوبنـا، بعـد أن رأينـا كيف تسـتجيب السـماء لتضرع المظلومين، فتسـقط طائرتا نقلٍ للجنود الصهاينة شـمال فلسـطين المحتلـة، كانتـا متجهتـين لعمـل حربي جنـوب لبنـان فقتل ثلاثـة وسـبعون مجرمـاً، وجميع من كان عـلى متنهما، فكفكـف ذلك بعضاً مـن دموع شـعبنا الذي تسـيل منـه الدماء يومياً على يد المحتـل اليهودي، دون فعـل يـوازي الجرائـم تلـك، فـإن كانت الضربـات التي يتلقاهـا العدو مـن جنـود لا نراهـا، كالضبـاب الـذي أعمـى نظـر الطياريـن، إلا أننـا نموت في اليـوم ألـف مـرة، أمـام عجزنـا عـن القيـام بواجبنـا المقـدس كـما يجب، للدفـاع عـن أهلنـا ووطننـا، وسـنظل نسـمع في المهرجانـات والاحتفـالات الشـعبية التي تقيمها الحركة في المناسـبات المختلفة، آلاف الحناجر، تطالبنا بالقصـاص مـن المحتـل، بعـد أن غـاب العمل الاستشـهادي أكثر من تسـعة شـهور وهـي الفـترة الأطـول منـذ أن بـدأ هـذا المـشروع، ولم يعد هنـاك ما يوازيـه بأثـره في نفـوس شـعبنا الذي يفقـد أبناءه كل يـوم في الطرقات على يـد المحتلـين، فـيرون القنابل البشرية السـلاح النـووي الـذي يمتلكونه لردع الغاصبـين، فتتأثـر بذلـك، فلـولا الوعـي بـضرورة تفعيـل الأشـكال الأخـرى مـن المقاومـة، لانحـصر التفكـير، بالعمـل الاستشـهادي فقط، وهـذا ما كان يجهلـه كثير مـن المحبين..

فالضفة الغربية حين ذاك، كانت تشهد عمليات قتل للجنود والمستوطنين، وفي القدس، عمليات أسر للجنود، ينجح بعضها جزئياً ويفشل الآخر، مجموعات لا ترتبط ببعضها، ولا تعلن عن عملياتها حفاظاً على استمرارية عملها، ومن هذا النهج كان العدو يرتعد، لا يريد أن يمتد ويتواصل، وهذا ما كان يفهمه خليل ويدركه محمود، لذلك، لم نكن نستعجل الشروع بعمل جديد قبل مرور مدة معينة نتأكد فيها توفر الشروط الأمنية المطلوبة، وهذا ما حدث في عملية الشاين!!

- كنت ومهند غارقين بماء المطر، وخليل ينظر إلينا بهدوء كعادته نحكي له ما حدث مع السيّارة الجديدة التي اشتريناها من مدينة جنين قبل يومين أثناء عملية تغيير معالمها قرب قرية تل جنوب غرب نابلس، استعداداً للمجيء إليه والانطلاق لتنفيذ عملية التجاوز التي خططنا لها طيلة الفترة الماضية على الطريق الصاعد من وادي الباذان إلى نابلس.

- يقول مهند: لقد توقفت السيّارة فجأة! وكأنها تتعمد ذلك.

- فسأل خليل: لعلّ الماء قد دخل إلى كهرباء السيارة؟!

- فقلت: للأسف لا، وإلا لكان الأمر سهلاً!

- فأكمل مهند: لقد انكسرت قطعة حيوية ترتبط بالمحرك فتوقفت عن الحركة.

- فابتسم خليل وهو يحوقل راضياً: لا حول ولا قوة إلا بالله، لعلّه خير، لا ندري ماذا كان سيحدث لو انطلقنا لتنفيذ العملية، واحتسبوا الأجر عند الله.

- فاستطرد مهند: الحمد لله، ثم التفت نحوي: أليس كذلك أبو أيمن؟!

وكان يعلم مدى الضيق الذي أصابني ونحن نجر السيارة التي أصبحت مكشوفة ولا يمكن استخدامها لعمل سري، وبات علينا التعامل معها بصورة شرعية وهذا ما تم بالفعل: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، عندي اقتراح!!.

فنظر الاثنان نحوي باهتمام: ما رأيكما بتنفيذ عملية قبر يوسف اليوم؟!. فانفرجت أسارير خليل وهو يسألني: وهل يمكن ذلك؟!

فأجبت بسرعة: بالتأكيد، على أن تساعد مهند بتجهيز العبوات ريثما أجري مسحاً أمنياً للمكان.

- فضحك مهند وهو يودعني متجهاً إلى المخبأ السري في الجدار والذي نضع فيه أغراضنا، كل شيء ما دون أم العبد، قنابل صوتية، مخازن رصاص غنمناها في انتفاضة النفق عندما اقتحمنا «قبر يوسف» ما دون الغرفتين اللتين احتمى بهما الجنود، فحمل الشباب الثائر كل ما استطاع العثور عليه وكان يعنينا العتاد العسكري، فتمكن أحد المساعدين لنا من الحصول على كمية من الذخيرة.

- أبو أيمن مجنون! يحدث مهند نفسه على مسمع من خليل – لقد وضع القبر في رأسه رغم كل ما حدث!

- وأنا معه في ذلك، يقول خليل وهو يساعد مهند في تعبئة الأكواع «العبوات الحديدية»، بأم العبد، والتي سبق وأن قمنا بإضعافها من جميع الجهات على صورة مربعات صغيرة بواسطة الفيبر أو ما يعرف بالعامية «الصاروخ» حتى تبدو كالقنبلة اليدوية، تتناثر شظاياها بمجرد الانفجار فتوقع أكبر عدد من الإصابات في صفوف الاحتلال.

لم ييأس من المرات الثلاث السابقة واللائي فشلنا بهن!!. يقول مهند فيجيبه خليل الذي بات أكثر المتحمسين لمعاودة المحاولة: يجب أن نكسر أرجل المستوطنين وإن استطعنا فرؤوسهم، حتى يفكروا ألف مرة قبل المجيء للقبر.

- حماسي لا يقل عنكما ولكن! يجب أن نطوّر الهجوم أو نفكر بأمر غير العبوات.

- دعنا ننجز العمل الآن وندعو الله -عز وجل- أن يوفقنا هذه المرة.

- أخي أبو محمد «خليل» لماذا لا نضع الأربع عبوات؟! ستكون الضربة أقوى؟!

- لا، لا نريد أن نفتح العيون على المدينة في هذه الأيام، يكفي اثنتان!!

- سنعلم فيما بعد، أن المهندس محي الدين الشريف في ضيافة المجاهدين في المدينة لغرض الاختفاء، ولم تكن تلك بداية علاقته مع نابلس، فقد كانت بدايته قبل المطاردة أواخر عام 1995 مع القائد عبد الناصر عيسى، مهندس عمليات المرحلة تلك، عندما تقدم لتنفيذ عملية استشهادية بنفسه، تعذّر القيام بها لأسباب أمنية، فكانت سبباً لمطاردته من جانب الاحتلال ومن ثم قيادته لجزء مهم من الفعل المقاوم وسط الضفة والقدس.

- رجعت من المنطقة الصناعية بعد مسحها أمنياً والتأكد أنها جاهزة لتنفيذ الكمين، فأعدت خليل إلى شقة رفيديا ثم باشرت ومهند بالخطوة الأهم عبر توجهنا إلى نقطة خفية بين المصانع التي لا تعمل بالليل، حيث يتوجب علينا الانتظار قليلاً ريثما يأتي باص المستوطنين وحراسته

فيدخل المدينة لجلب عشرات الصهاينة من القبر ويعود، وهذا ما جرى بالضبط حسب التوقيت المرصود في الثامنة مساءً، حينها خرجت بالسيارة من المخبأ وسرت باتجاه الشرق إلى مفترق الطرق المؤدي إلى قرى: بيت فوريك، روجيب وسالم، وهناك أنزلت مهند وتابعت السفر لمسافة قصيرة حتى لا ألفت الانتباه ثم عدت إلى نقطة الانتظار، أما مهند! فكان في صراع مع الوقت وهاجس الفشل، يحدث نفسه وهو يضع وعاء «الشاين» الكرتوني والذي أفرغ من مسحوق الغسيل واستبدل بعبوتين ناسفتين فوقهما أربع زجاجات حارقة في إحداهما عشرات مسامير البولاد، وضعه على حاشية الطريق، تحت إشارة الوقوف الإجبارية، قائلاً: يا رب! سدد رمينا هذه المرة، لقد استنفدنا الأسباب وأنت الموفق، فلا تعدنا خائبين.

ثم قفل عائداً خلف التلة الترابية الصغيرة التي تحاذي الشارع، سائراً بين الأشواك وهو يمد السلك الكهربائي، حذراً من البيوت القريبة والمقابلة للمنطقة الصناعية والتي كاد أحد ساكنيها أن يكشف الأمر، فكان تصرف مهند التلقائي وارتماؤه على الأرض لوقت قصير كفيلاً بإقناع جار الكمين أنه يتوهم، وبعد مئتي متر، على طول السلك الكهربائي، تحصن مهند خلف صخرة صغيرة يستطيع من خلالها رصد العبوة، وصدره يعلو وينخفض من التوتر، ولم يكن معه سوى قنبلة صوتية وبطارية التشغيل، وأكبر همّه ألا يتكرر ما حدث معنا سابقاً، فبعد عملية «طنجرة الضغط» وفشل التلة الفرنسية، نصبنا الكمين كما نفعل في هذه المرة، واستأجرنا كاميرا فيديو كبيرة للأفراح لليلة واحدة، ووضعنا أحد المجاهدين على تلة مرتفعة مقابلة لمكان العملية في حي الضاحية حتى يصوّر التفجير وما بعده، وبعد انتظار أكثر من أربعين

دقيقـة، ضعـف المـدة التـي تتطلبهـا القافلـة للخـروج مـن المدينـة، ألغينـا الكمـين لأن القافلـة لم ترجـع من المـكان، فقد كسر الصهاينـة الروتين الذي راقبنـاه لعشريـن يومـاً دون تغيـير وعادوا مـن طريق ثانية بمحـاذاة مخيم عسـكر الجديـد، أمـا المـرة الثانيـة، فكانـت أشـد وقعـاً عـلى نفوسـنا فقـد عـادت القافلـة مـن المـكان وجـرى كل شيء كـما خططنـا ولكـن العبوتـين لم تنفجـرا !! ولأن صنعـة التفجـير والكهربـاء مـن تخصـص مهنـد، فـما زال يحمّـل نفسـه المسـؤولية عـن الخلل الفنـي الذي أصـاب السـلك الكهربائي حينـذاك، فلـم يكـن موصولاً بصـورةٍ جيدةٍ ومحكمـة في أدق جزء منه، فلم تعمـل الدائـرة الكهربائية.

- والآن – يقـول مهنـد وهـو مكشـوف تحـت السـماء، ينغـرس في جسـده الحـصى وعينـاه تحتـان الطريـق -لبسـط راحتهـا كي تعـود القافلـة بسرعة: أقسـمت عليـك ربي، بطفـلٍ أنجبتـه أمّـه عـلى حاجـز عسـكري قبـل أن تلقـاك شـهيدة، وبدمـع عجـوزٍ مـا زالـت تبـكي الوطـن السـليب في صفـد وقـد أكل المخيـم مـن عمرهـا مـا أكل، أقسـمت بـدم جميلة جلسـت على شرفـة بيتهـا فعانقتهـا رصاصـة القنـاص الـذي يخـاف الجـمال التلحمي.. لم يكمـل مهنـد تعـداد رجائـه وتقربه، فقـد أطلـت الدورية الأمامية برأسـها، فارتفعـت وتـيرة الدعـاء: يـا رب، يـا رب، يـا اللـه، يـا اللـه. ثم تبعهـا الباص فالدوريـة الثانيـة، حينهـا كان الأدرينالـين يرتفـع إلى قمته لديّ وأنا أشـاهد القافلـة تمـضي عـن يميني وعن شـمال مهند مـن الطرف الآخر من الشـارع، واللسـان يـردد الاسـتغاثة التي سـمعتها ملائكـة الأرض والسـماء، تزامناً مع إدارتي للمحـرك وخروجـي مـن المخبـأ، ومهند ينتظر وقـوف الدورية الأولى عـلى بعـد متريـن مـن العبـوة، لحظتهـا! كانـت بسـم اللـه تضغـط على زر التشـغيل، فتهتـز المنطقـة مـن وقـع الانفجار: نعـم، نعم.

- يصرخ مهند في نفسه وهو يقطع الشارع مسرعاً باتجاهي، يجيب على نفسه وعلى خليل وسيخبرني أيضاً: لقد نجحت هذه المرّة، أقسم إنها انفجرت.

- يركب بجانبي ويمتشق الرشاش كالعادة، فأُسرع بهدوء إلى المدينة عبر طريقنا المختصرة وتمضي الدقيقة الأولى والثانية فالثالثة ولم يعقل الصهاينة ما جرى لهم، وفي اللحظة التي أصبحنا فيها داخل المدينة، أطلقوا القنابل المضيئة في السماء، فضحك الطفل اليتيم والعجوز ووالدة الجميلة في بيت لحم، كلهم ضحكوا على خيبة الجيش الذي لا يقهر!!

- أوصلت مهند إلى نقطةٍ قريبة من الحي، ثم واصلت طريقي إلى النقطة الوسيطة، حيث تأكدت من عدم وجود تعقب خلفي، وأعدت معالم السيّارة الأصلية بإزالة الشواخص المستعارة وغطاء الزجاج والحاملات الفوقية وغيرها، ثم توجهت إلى خليل في الشقة، رغم ما يعتري ذلك من خطورة، وهناك..دخلت عليه بصورة طبيعية كالعادة، دون أن أبدي ملامح الانفعال، فبادرني بما اعتاد أن يقوله بعد فشل كل عمل ووجهه نصف حزين: لا بأس! لنا الأجر إن شاء الله.

- فلم أشأ أن أعذبه أكثر، لأنني لم أستطع كتمان سعادتي فوق الثواني العشر فقلت له: ألم تسمع صوت الانفجار؟!. فتحوّل إلى طفلٍ صغير وهو يستحلفني دون وعي من الفرحة: بشرفك تقول الحقيقة؟! هل نجحت العملية؟! ثم سجدنا، سجدة الشكر لله، ليعلن العدو ليلتها عن حصيلة الهجوم ثلاث إصابات في صفوف جنود الدورية،إحداها بجراح خطرة، حيث تعمدنا استهداف الدورية نظراً لفتح نوافذها وبابها الخلفي، على أن نستهدف الحافلة مستقبلاً، لكن المثير في الأمر،

المعلومـة التـي حصـل عليهـا خليـل مـن الإعـلام الصهيـوني بعـد يومين من العمليـة، وتفيـد بمـوت جنديـين مـن قـوات الاحتـلال بحـادث سـيرٍ جنوب نابلـس في ذات يـوم العمليـة!! ولـدى جمـع بعـض المعلومـات التـي كان يتناقلهـا سـكان المنطقـة الذيـن شـاهدوا آثـار التفجـير، تبـين أن الدوريـة المصفحـة تعرضـت لـضرر بالغ اسـتدعى حملها عـلى ناقلة خاصـة لإخلائها من المـكان!!

- يضحـك محمـود في أول لقـاءٍ مـع خليل بعـد «عملية الشـاين»: نقع فيما نخشـاه عن غـير قصد!

- فيبادلـه خليـل ذات الوتـيرة مـن الضحـك: أقسـم إننـا لم نكـن عـلى علـم بزيارتـه لنابلـس! فلـم نكـن لنخـسر شـيئاً لـو أجلنـا التنفيـذ ليـومٍ آخر.

- فيتدخـل الشـيخ يوسـف الفَـرِح بنجـاح العمليـة: أبـو عـمّار، يتحـرك كثـيراً، يلـف العـالم عـدة مـرات في الأسـبوع الواحـد، ولا أظـن أحـداً حتـى مـن السـلطة في نابلـس، كان عـلى علـم بحضـوره، فـلا تقلقـوا بهذا الشـأن وسـلمت الأيـدي التـي صنعـت ونفـذت.

- عمليتكـم هـذه- يقـول محمـود موجهـاً حديثـه لخليل- أشـعلت النار في صـدور الشـباب في الجبـال، يريـدون التحرك بأي شـكل.

- لا.. يجـب الحـذر والتريـث –يجيـب خليـل– لا نريـد التهـور، فأعـين الاحتـلال وأجهـزة أمـن السـلطة، تنشـط في هـذه الأيـام، وسـيأتي دورهـم في القريـب العاجـل إن شـاء اللـه – وفي انتباهـةٍ سريعـة من خليـل، التقط فيهـا شـيئاً يـدور بـين الشـيخ ومحمـود، دفعهـما إلى الحديث بالـكلام دون لغـة العينـين: لا أظنـه سيسـتوعب الأمـر! يقـول محمـود وهو يتابـع حركة

خليل قرب النافذة، فيعلّق الشيخ: سيستوعب، ولكن! عليه أولاً أن يخبرني كيف شاهد والدته من نافذة بيتي؟! هل انتقل الأهل للسكن قرب مقام الأمير؟!

- فابتسم خليل وهو يجلس على الأريكة المحاذية للنافذة: كانت برفقة شقيقي، ولا أعلم سبب وقوفهما قرب معارض المفروشات، تمنيت لو أصرخ عليها لتلتفت إلى النافذة، غير أني على قناعة تامة بأنها تحت المراقبة.

- فسأله الشيخ: أو تفعل ذلك؟!

- فضحك خليل قبل أن يتذكر حديثهما قائلاً: سأستوعب كل شيء، إلا أن تقف أمي خلف الباب!

- فانحرج الاثنان حزناً على تخييب ظنه، فسارع الشيخ لتدارك الموقف بالمزاح كعادته: ما تقوله صحيح، ولكن من الناحية النسبية، فأمك -حفظها الله-، تقف خلف باب مطبخكم في شارع السكّة، وأظنها تشعر بقرقعة بطنك التي ستمتلئ بعشاء زوجنا، ألا تشم رائحة «الكبّة»؟!

- فدخل محمود على الكلام، موجهاً حديثه للشيخ: وستذوق البيض المقلي على طريقة الشيخ! لقد كان يعدّه لنا على «الحطب» في مرج الزهور، بيضٌ لن تأكل مثيله ما حييت!

- فعلّق الشيخ وهو يدخل صينية الطعام من خلف الباب بالقول: يا عمي، أنا لا أحب بياض البيض، وهذا من صالح «الجاتوه»، ومع ذلك لن تأكلوا بشروطي، بل من ذائقة أم طارق، أمهر طبّاخة في جبل النار.

- وأثناء تناول وجبة العشاء، التي يحظى بها خليل من حين إلى آخر كلما

حضر إلى اجتماع ضروري في بيت الشيخ، تم التطرق إلى أحد المواضيع المهمة: هناك مقترح يقضي أن نتعاون مع السلطة الفلسطينية في أمر ما!!. قالها محمود وهو يرقب ردة الفعل لدى خليل، والذي توقفت لقمة الطعام على باب فمه لدى سماعه المقترح: ماذا؟!

- خرجت من تعابير وجهه التي نطقت بالرفض والاستنكار والغضب: عن أي تعاونٍ تتحدث؟!

- فطلب منه الشيخ يوسف أن يتريث: اصبر قليلاً، فربما يروقك الأمر ففيه بعض المنطق.

- توقفت شهية الطعام لديه، ورأسه المثقل يسأل ألف سؤال في آنٍ واحد، غير أن محمود بدأ ببسط الموضوع أمامه: تعلم أن معاوية والشباب يعملون منذ فترة على ملف عملاء الاحتلال والمشاكل الأخلاقية وأنهم كشفوا عدة أمور مهمة وفككوا مشاكل عالقة في القرية وما حولها، ظلت تؤرق الناس ردحاً من الزمن؟!

- صحيح أذكر أنك أطلعتني على شيء من هذا ولكن! لا أفهم علاقة السلطة بذلك؟!

- فتدخل الشيخ: الشباب، لا يستطيعون متابعة ما كشفوه لتشعبه وضرورة وجود عمل منهجي لعلاج الأمر وحتى لا تحدث آثار سلبية غير محسوبة، فبعض العقوبات التي أنزلوها على بعضهم لا تكفي لحل المشكلة، كما أن هذا العمل ليس من اختصاصنا في حال توفر الحد المعقول لدى السلطة لمتابعته.

- كان خليل ينصت جيداً للحديث وقد بدأ بطرح الأسئلة بعد التعقيب:

عندما أفكر بالأمر، لا يمكنني رفضه من حيث المبدأ، غير أن الخطورة تكمن في إمكانية الملاحقة لمصدر المعلومات، وبالتالي الوصول إلينا؟!

- فقال الشيخ: لا تقلق من هذه الناحية، لدينا طرقنا الخاصة لإيصاله، وحتى ترتاح، فالملف الذي أعدّه الشباب سيصل إلى جهاز البحث الجنائي في الشرطة وليس الأجهزة الأمنية.

- ابتسم خليل بسخرية: وهل سيقدّر هؤلاء ما نقدّمه لهم؟!

- فأجاب محمود: في النهاية، نحن نقوم بواجبنا دفاعاً عن أهلنا وطلباً للأجر من المولى -عز وجل- وبذلك نُعذر إلى الله والتاريخ، كما أن هناك ضباطاً شرفاء لا يقبلون الشرّ لأهلهم وحتماً سيعملون على الملف.

انتهى الاجتماع بموافقة خليل، وبعد فترة من الوقت، ليست بعيدة من لحظة تسليم القضايا للسلطة، باشرت الشرطة بالتحقيقات مستندة على الدلائل والاعترافات المسجلة والمكتوبة فاعتقلت مجموعة من هؤلاء، وزجّ بهم في السجن القديم الذي أعمل به، وقد عزل بعضهم عن السجناء، فكانت سابقةً لم أسمع أنها تكررت بين كتائب القسام وأجهزة السلطة في الضفة الغربية.



السيرُ على كف الرحمن!!

- كنت ومهند مسرعين، يجب تفريغ النقطة الميتة من مسجد الحاج نمر النابلسي في الوقت المحدد، ولا أدري لماذا كان مهند يجلس إلى جانبي في السيّارة؟! ربما التقطته من الشارع، أو جاءني لأمرٍ مهمٍ كالعادة، لكنه معي وهذا الأهم، فبينما كنت أقود بحذرٍ في أحد الشوارع القريبة، وعشرات الفراشات الجميلة، الزرقاء والخضراء وأسراب الحمام الملون، تعود لبيوتها من المدارس، لوحة من السماء، تدعوك للابتسام، تسأل نفسك: هل يدرك هذا الجمال ما نفعله لأجله؟! وفي غمرة ذلك وقيادتي! اختار أحد الأطفال الذي كنته في الصغر، أن يعبر الشارع بسرعة، مستخدماً قانون طفولته غير آبه بقياس المسافة وقوانين المرور وكل هذه الهرطقات التي لا تقربه من البيت!. فصدمته، دهسته، دعسته -يا إلهي- فطار قليلاً في الهواء ثم سقط على الأرض!!

مصيبة من العيار الثقيل، تبحث عن عدوٍ للتخلص منه، فتقع في دم بريء مهمتك حمايته!. كل العيون هجمت لأكلي، لتمزيقي: أنت المخطئ، الجبان، القاتل، فأجيب أعينهم الغاضبة: لستهم، أنا بعضكم الذي يصنعُ الأمل..!

- خرج مهند بسرعة والتقط الطفل عن الأرض، فقتيلي لم يمت، كان يصرخ ليس ألماً، بل لتحريره من يديّ مهند: دعني أذهب، لم يصبني

أذى. كان أكبر همه ألا تعرف أمّه بالحادث، لكنّ سراً لا أعلمه، أسكته بسرعة، أنزل السكينة على قلبه ومهند يخاطبه باسمه: لا بأس يا أحمد، اهدأ، كن بطلاً ريثما نتأكد بالعيادة الطبية أنك بخير، لقد كان أحد تلامذته في دورة تحفيظ القرآن الكريم، «الحمد لله، الحمد لله»، لكنّ ذلك لم يشفع لي عند أمه التي وصلت قبلنا للعيادة، بعد أن دفعني مهند إلى الذهاب حتى أُحضر الرسالة، فهيأت وجهي للصفع «راضياً» على الخدين، والأم المذعورة تنظرني كالقطة التي آذوا صغارها وقد ردها عني سلامة طفلها وحضور مهند.

- في البدء، لم نكن نتقن السياقة، فتعلمنا بسرعة واستطاع مهند الحصول على رخصة السياقة قبلي، رغم أني كنت الأمهر في فنها، كما كان يصفني عندما نكون خارج المدينة بعيداً عن شرطة الاحتلال، لكنّ المهمة التي كانت مقترحنا وصادق عليها خليل استوجبت سائقًا ماهراً سبق وأن علمنا القيادة ليلاً في مجمع الكراجات الشرقي، حيث قادنا أبو أمجد في مهمتنا الاستطلاعية للبحث عن هدف نستطيع من خلاله تحرير الشيخ المجاهد أحمد ياسين، قائد الحركة المعتقل في سجون العدو منذ عام 1989 ويقضي حكم المؤبد مرتين رغم شلله الكامل، لا تهمّ التفاصيل في البداية إن توفرت النيّة والإرادة، فإذا ما خطوت الخطوة الأولى، سيكون من المحتم البحث في أصغر الأمور، الشيء الذي كان لا يروق صاحب التفاصيل الصغيرة، خليل، والذي كان يخضع أحياناً لرغبتنا وتحديداً في مهمة رفيعة المستوى لم تنجح عشرات المجموعات القسّامية على تحقيقها، فشيخ الانتفاضة كان أسره يؤرقنا، يذبحنا، يجعلنا صغاراً أمام عزيمته، وسيندر أن تتشكل خلية مقاتلة دون أن تفكر بتحرير الشيخ، هل هذا صحيح؟!

لم نكـن نفكـر حينها بمبدأ التخصص، وسـنعلم لاحقـاً أن جميع المجموعات التـي أبدعـت في جانـب معـين وانتقلـت للعمـل في مجـال آخـر، أدى ذلك إلى كشفها!!

- سـار بنـا أبـو أمجـد عـصراً باتجـاه الأغـوار الفلسـطينية، شرق فلسـطين نـزولاً مـن مفـترق قريـة زعـترة عـلى طريـق نابلـس رام اللـه، حيـث يقيـم العـدو حاجـزاً للتفتيـش، مررنـا خلالهـا عـلى قـرى كثـيرة مـن كلا الجانبين، أوصريـن، قـصرة دومـا، وغيرهـا، تبتعـد القريـة أو تقـترب من الشـارع غير أنهـا تحتضنـك، تشـعرك بالأمـان وقباؤهـا تنتصـب كأعمـدة النـور، هكـذا نحـن سـكان المـدن، نختـال بمدينتنـا دونـاً عن غيرنا مـن أهل الريـف، فلما نعبرهـا حكايـة العشـق للـتراب والتاريـخ وشـجرة الخـروب التـي زرعهـا أجـداد أجدادنـا، تسـحرنا فنغـدو عيـالاً عـلى عتبـات فـلاّح يحـرث الأرض صباحـاً وفي المسـاء يطعمنـا مـن خـير يديـه.

- النـزول باتجـاه أريحـا، كالنـازل في بـئر، سـيبقى يجذبك إلى قعـره، أخفض منطقـة في العـالم، لا بـأس!! يعلمنـا شـيوخنا أن نمـضي بسرعـة مـن هنـاك لأنهـا منطقـة الخسـف التـي عـصى فيهـا قـوم سـيدنا لـوط -عليه السـلام- المـولى -عـز وجـل- فـكان عقابهـم وخيـماً، لكنهـا الآن بوابتنـا الشرقيـة مع العـالم، وسـنعتبر بهـا كـما يحـب اللـه ويرضى..

وبينـما كنـا نهبـط مـن الشـوارع المتعرجـة وبعضهـا يطـل عـلى أوديـة سـحيقة، فقـد أبـو أمجـد السـيطرة عـلى المقـود، فانحرفـت السـيّارة يمينـاً باتجـاه المنحـدر المخيف، فصرخت قلوبنـا وأرواحنا قبل ألسـنتنا، يا الله!!..

لحظـة مـن الرعـب، عملـت في أوصالنـا مـا عملت، بعيـداً عـن أحبابنا، عن ناسـنا، منطقـة خاليـة سـتبتلع سرنـا ولكـن!! مـا أجمـل «لكـن» خاصتنـا،

عناية الله ثم براعة سائقنا أنقذت الموقف، فاستقامت السيارة على الشارع وأكملنا مهمتنا في الأسفل على شارع أريحا - بيسان، وحددنا موقفاً للركاب الصهاينة بعيداً عن معسكرات العدو ومستوطناته ولمّا أخبرنا خليل بأن صهيونياً منفرداً أشار لنا بيده حتى نقلّه معنا، قال نصف مازح: ولماذا لم تأخذوه معكم؟!

وكانت تلك المهمة تدريباً عملياً على إمكانية الأسر لتحرير الشيخ والأسرى، غير أن الأحداث اللاحقة ستفرض نفسها على طبيعة العمل!!



قلّة الحيلة!

- خمسـة أشـهر صعبـة، ثقيلـة عـلى النفس، تـراوح فيها مكانك، لا تقيسـها بالمهـمات فهي كثـيرة: رصد، تدريب، خدمات للمقاتلين، بحث عن السـلاح الشـحيح، شـحيح في يدنـا ونهرٌ في يد غيرنـا! وتلك مفارقـات عجيبة: قريبي مناضـل سـابق أمـضى خمسـة أعـوام في سـجون العـدو ولمّـا تركـت ثورتـه سـلاح ثورتهـا على طاولـة المفاوضات عام 1993 – عفواً – سـيثور خليل إذا سـمع ذلـك، لأن الثـورة لم تذهب للمفاوضات بالسـلاح فاسـتحقت ما قاله في حقهـا صلاح خلـف. المهـم! أصبح قريبـي يحمل المسـدس علنـاً والعدو مـا زال في المـدن الفلسـطينية، ولمّـا اجتمعنـا مـرة في بيـت جدتنـا، والتـي أنجبـت والدينـا!، كان لقـائي الأول مـع هذا الـذي نموت للحصـول عليه فلا نسـتطيع إلا بشـق الأنفـس، فاحتضنتـه، قبلتـه، ونـام تحت وسـادتي، وتلك حـدود مـا سـمح بـه قريبـي، قانـون المرحلـة لديه، ترى السـلاح مـن بعيد، تتمنـاه، تحلـم بـه، وإياك أن تقـترب أكثر!

- أصبحـت الحكايـة صعبـة وفي أحيـانٍ مسـتحيلة، كثـير مـن النـاس الـذي مـا زال يحفـظ في ذاكرتـه الوطنيـة صـورة الفـدائي المخلـص القـادم مـن خـارج حـدود الوطن يثـق بخيارات الثـورة والقيادة التي عـادت إلى الأرض وبيدهـا الكلاشـنكوف!!، ولم يكـن عبثـاً أن يدخـل آلاف العائديـن وبيدهم رمـز الثورة الفلسـطينية «الكلاشـنكوف»، تفرح لذلك، رغـم إدراكك الأبعاد الكارثيـة للاتفـاق، بـل تأخـذ الصـور مع هـذه البندقيـة والتـي لم يتجاوزها

التسليح لقوات الثورة التي دخلت بصفة شرطية فقط، فإن أردت شراء طلقة، سيتهمك البائع الذي يرفض مبدأ البيع لك، أنك ستخرّب الإنجاز التاريخي للشعب الفلسطيني، ورغم ذلك، لم ينعدم الخير مطلقاً، وفي مسعانا للحصول على سلاح أوتوماتيكي والذي كان يتعثر بعقبات كثيرة، كأن تجد تاجراً يبيع بشروط جيدة، لتكتشف لاحقاً أن البندقية بيعت عدة مرات وتم مصادرتها من جانب ضابط في الأجهزة الأمنية تربطه علاقة بالتاجر المتآمر معه، وصلتنا رسالة من سجون العدو «سيكون لمرسليها دور في حكايتنا»، تدلنا على مكانٍ مدفون فيه بندقية كلاشنكوف، فطرنا إلى هناك، قرية في مدينة جنين، دخلنا ليلاً، اقتربنا إلى ساحة المنزل المرسوم في الرسالة، رأينا كومة التراب الموصوفة خلف الباب الخشبي المخلوع، لكننا لم نستطع الاقتراب، تفصلنا عن البندقية أمتار، أقسم أن قلب مهند كان يبكي: الله أكبر! السلاح أمامنا ولا نستطيع التقدم؟!. فأرد عليه وأنظاري إلى نوافذ البيوت المحيطة: لن ينجح ذلك، سيقبضون علينا بتهمة الاعتداء على البيت ومحاولة السرقة.

- ثم يحسم الأمر نباح الكلاب، الإنذار المبكر، فعدنا إلى المدينة، غير أن خليل لم ييأس، فأرسل مجموعة مختارة، لم نكن نعلم بوجودها، كانت أذكى منا، فزارت العائلة التي تملك البيت، تحمل لها سلامات نجلها الأسير «صاحب البندقية» والذي يريد صور البيت والحمار والحديقة، وبذلك استطاعت المجموعة تحديد المكان بالضبط، لكنها فشلت أيضاً بالعودة والحفر.

- عجزنا في تلك الأيام عن توفير السلاح الكبير، ليس معناه عدم توفره لدى المجموعات القسامية في أنحاء الضفة والقطاع الباسل، فكل

مجموعـة لهـا ظروفهـا الخاصـة، وظروفنـا كانـت صعبـة في هـذا المجـال ورائعـة في أمـور أخـرى، يفتقدهـا غيرنـا!! أمـا بندقيـة جنين، فقـد صادرتها الأجهـزة الأمنيـة الفـل.. لاحقـاً.

- عندمـا تكـون حـراً في الميـدان، تملـك سـلاحك وأهدافـك، تذهـب للعمـل دون حسـابات كثـيرة، ولكـن! عندمـا يقـف عـلى رأس عملـك قائـد كخليل الشريف سـتعلم حينها أصول القتال، ربما تسـتاء في حدود معرفتك لطبيعة العمـل الـذي تـراه بطيئـاً، فلما تكتشـف أجـزاء الصـورة الأخرى،تحمد الله أنـك التزمـت بالتعليـمات، فقيـاس إنجازنـا في تلـك المرحلـة، نـراه في الـدم الـذي ينزفـه العـدو، وخليـل يـراه كذلـك، غـير أن حسـاب الزمـن مختلـف لديـه تمليـه النظـرة الشـاملة مـن جميـع الجوانـب، لأي عمل ننـوي القيام بـه وفـق الإمكانـات المتوفرة.



اكتمال الدائرة

- لقـد حفـظ الجـدران الأربعـة عن ظهر غيـب: النقاط التـي لا يمكن لغيره الإمسـاك بهـا وقـد كشـفت عـورة الطـلاء، والسـقف الـذي أعـاد هندسـة بنائـه آلاف المـرات وعينـاه تجوبانه دون توقف، وهالـه التعرجات المختبئة تحـت الطـلاء، فضحهـا الضوء السـاطع نهاراً والمتسـلل من فتحـات النافذة المغلقـة «بالأباجـور»، سـيحكي بصـوت منخفض مع نفسـه حتـى يتذكر أنه يملـك صوتـاً، لـن يقـول عـن نفسـه مجنونـاً: لا فأنـا في معركـة لن أستسـلم فيهـا، تكفينـي أصـوات جارتنـا، التـي تجهل وجـودي وهي تطـارد أولادها، تلعنهـم في أحيـانٍ وترجـو أصغرهـم في أحيـانٍ أخـرى، حتـى يشـتري لهـا الخبـز مـن الـدكان، سـآنس لصوت امـرأة كبـيرة، أظنها جـدة الأولاد، تنطق العربيـة بصعوبـة: برازيليـة، فنزويليـة، أرجنتينيـة، لا يهـم! لكننـي أحـب سـماع صوتهـا، تذكـرني بأمـي، فـكل عجائز بلـدي هـنّ أمـي، آه، وددت لو أعـود طفـلاً تداعبني، تعضني من سـاعدي، تغسـل شـعري بصابون نابلسي فـأصرخ مـن حرقـة العينـين، فتضربنـي عـلى إليتـي مداعبـة، ولمـا تجففني مـن المـاء، تـأكل وجنتي بشـفتيها المقدسـتين ثم تحـررني إلى موعـد الحمام القـادم بعد سـبعة أيـام كاملة.

- يضحـك خليـل وهـو يتقلب على الفرشـة وسـط الصالون، يشـغل وحدته بالذكريـات الجميلـة، يقرأ القـرآن، يتقرب إلى اللـه بالنوافل.

وعندما تحين ساعة الأخبار يفتح المذياع الصغير ويضعه على أذنه، يستفزه الهدوء كثيراً، لا تستقيم لديه الأمور والعدو ماضٍ بجرائمه، يعض على شفته يحوقل، يحتسب عند الله، يتهم عجزه، وسرعان ما يعود لحقائق يعلمها تحول دون تقدم العمل لديه!، وبينما هو كذلك ويده تدير عجلة الراديو إلى برنامج الأسرى في صوت فلسطين، والذي دأب على سماعه والبكاء في كل مرّة ينصت فيها إلى أوجاع الأمهات والزوجات والأبناء، وهم يبثّون شوقهم إلى محبيهم خلف القضبان، استوقفته سلاماتٌ يهديها، معاذ بلال، فيبتسم: زميل المدرسة، لا أظنه يعلم ما حلّ بنا بعد هذه السنوات وقد كنا بالأمس خصوماً سياسيين في مدرسة الملك طلال وأصبحت الآن..! توقف خليل عن محادثة نفسه بعد أن اعتدل في جلسته مصغياً لكلمات يدخلها معاذ في حديثه الموجه إلى شقيقه عثمان وقائده عبد الناصر عيسى، المحكومين بالسجن المؤبد واللذين غادرهما قبل أيام من سجن عسقلان جنوب فلسطين حيث قضى فترة أسره الإداري هناك، فهزّ خليل رأسه وقرر أمراً لن يحققه سوى الشيخ يوسف!، وفي اليوم التالي ذهبت به ليلاً إلى حيث مقام الأمير مجير الدين أمام منزل الشيخ، وانتظرته ربع ساعة وفق الاتفاق، ولمّا لم يعد، غادرت المكان على أن أعود في وقتٍ آخر نعلمه معاً.

- لو انتظرت يوماً آخر لحضرت بنفسي إليك! – يخاطبه الشيخ وهو يقدّم إليه الشاي.

فيرد خليل: أفهم من كلامك أنك لست سعيداً برؤيتي؟! فضحك الشيخ وهو يأخذ بندقية العوزي من خليل ويقبلها: وددت لو أخدم المجاهدين بعيني، فكيف بك وإخوانك؟! أنا وزوجي وأولادي وبيتي في خدمتكم.

فابتسم خليل الذي يعرف حقيقة ذلك: يا شيخ، لا أريد أن يكشفك أبو أيمن فيعلم أني زودتك بمفتاح الشقّة كما حدث مع محمود؟!

- أبو أيمن ومهند من تلامذتي في الدعوة! ورغم ذلك، أنا معك بضرورة عدم توسيع دائرة انكشافي على المجاهدين، وإلا لكانا أوّل من أعانقهما بصفتي هذه.

- لم تخبرني أنهما من تلامذتك؟!

- ليسا من تلامذتي وحسب، هما نقيبان في الحركة! استغرب خليل من استخدام الشيخ للتراتبية العسكرية: لم أعلم بمسألة الرتب العسكرية رغم حداثة التحاقي بالحركة؟!

- فجلس الشيخ قبالته: ليست عسكرية تماماً، إنما تراتبية تنظيمية تبدأ بالنصير فالعضو والنقيب والرقيب وهكذا، وأبو أيمن ومهند اجتازا دورة تأهيلية، كنت أحد المدرسين والمشرفين عليها، وهي الحلقة الأولى في سلم القيادة، تأوّه خليل أسفاً: لله درّهما، لا يشعراني بذلك، وكأني في الدعوة منذ الولادة!. فقال الشيخ: هما يعلمان جيداً أن أعظم رتبة للمسلم، أن يبيع نفسه وماله لله، فكيف إن كان خليل الشريف؟!. احمر وجهه وسقطت دمعة غالبها فلم يستطع، هزته الكلمات، أوجعته، وتلك الأقسى على صدره، يضعه الشيخ في موقف لا يتمناه، عندما يعلّق الناس الآمال عليه، فيبقى أسير الخوف من خذلانهم، وفجأة! تذّكر خليل هدف الزيارة الأساسي، وكانت مناسبة لتغيير الموضوع: ومعاذ بلال؟!

- فرفع الشيخ حاجبيه: هل تعرفه؟!

- كنّا طلاباً في مدرسة واحدة، يتقدمني بعدة صفوف. فقال الشيخ بشيء

مـن الفخـر: أفـرج عنـه قبـل أسـبوع تقريبـاً، مجاهـد مـن عائلـة مجاهدة و...! قاطعـه خليـل بلطـف: يا شـيخ، معـاذ يمتلك شـيئاً أريده!

- اسـتغرب الشـيخ من ذلك، لكنه لم يشـك لحظة في نباهة وفراسـة خليل: وضِّح أكثر.

- سـمعته يبـث شـيفرة عـلى الراديـو، ولا يسـاورني شـك، أنـه يخطـط لأمر مـا. فقـال الشـيخ: ليكـن ذلـك، هـل يفـترض أن نكشـف كل المجموعـات علينـا؟! أم أنـك تريـد عنـاصر جـدد؟!.

- فأظهـر خليـل تلـك النظـرة الثاقبة وهو يرد على الشـيخ: لا هـذا ولا ذاك! حـدسي يخـبرني بوجـود شيء لـدى معـاذ، سـينفعنا، وأسـأل اللـه ألا يخيب حدسي.

- وقـف الشـيخ عـلى قدميـه، وضـع كوفيتـه عـلى رأسـه ووضّـب العقـال فوقهـا ثـم قـال بهدوئـه المعهـود: سـيكون عنـدك بعـد قليـل! واسـتأذن للمغـادرة وخليـل يبتسـم لهـذا القائـد الجنـدي، يقـول عندما سـأله أحدنا في جلسـة تربويـة سريـة في إطـار دورة النقبـاء وكان عائـداً لتـوه من إبعاد مـرج الزهـور: لمـاذا مـا زالـت مقاومتنـا العسـكرية النخبويـة تقتـصر عـلى فئـة عمريـة محـددة لا تتجـاوز النصـف الأول مـن العشريـن؟!

- فيجيـب فرحـاً لهـذا النوع من الأسـئلة: لأننا بحاجة إلى ثـورة في المفاهيم، فقائدنـا الأول محمـد بـن عبـد اللـه، سـيّد المجاهديـن وأبسـل المقاتلـين امتشـق الحسـام وامتطـى جـواد الحرب بعـد الثالثة والخمسـين من عمره، وكان زوجـاً وأبـاً، فهـل هنـاك أحـدٌ منّـا خـيرٌ مـن حبيبنـا المصطفـى -صلى اللـه عليه وسـلم-؟!

- طار الشيخ بسيّارته إلى منزل معاذ، فاختطفه من البيت بذكاء، دون كثير من الغرابة لديه، فمعاذ معتاد على الشيخ وأسلوبه في العمل التنظيمي وكثيراً ما كان جندياً يعمل تحت قيادته، فعاليات الانتفاضة، العمل الطلابي في الجامعة وما قبلها، أعمال الدعوة: ها يا شيخ! مهرجانٌ مركزي أم..!. قاطعة الشيخ بعد أن وقف بالسيارة في شارع فرعي قرب منتزه العائلات غرب المدينة: اسمع! أريد أن تتعرف على أحدهم!.

- فقال معاذ الذي تجاوز السادسة والعشرين من العمر، فقد أدرك فوراً أن الأمر لم يكن كما توقع: يا شيخ! يكفي أن أعرفك أنت، فالعمل التنظيمي ليس..!.

- أسكته الشيخ: إنه قائد في كتائب القسام!.

- ضحك معاذ بوجهه الحنطي الفاقع وهو يرفع كلتا يديه للأعلى في إشارة إلى خطورة الحديث قائلاً: أرجوك يا شيخ أن تبعدني عن هذا الأمر..!

- صمت معاذ والشيخ يحدجه بنظرات يفهمها جيداً، ومعناها لا يقبل تفسيرين: لا تتذاكى على أستاذك. فسارع معاذ للتمويه: يا شيخنا يا حبيبنا، لم يمض على تحرري من الأسر سوى أيام، وكما تعلم فأنا تحت مجهر مخابرات العدو وأجهزة أمن السلطة والعمل العسكري، معاذ! قال الشيخ: أنت تمارس العمل العسكري ودعك، فرد معاذ مخفضاً صوته وما زال يمزج جديته بالضحك: يا شيخنا، يا أبا طارق، كان هذا عام أربعة وتسعين وأنت على علم بذلك، ولم يستمر الأمر بسبب الاعتقال، وأنا الآن أستعد للزواج وبناء أسرة والتخرج من البكالوريوس، ثمانية أعوام في البكالوريوس ولم أنهه، تخيل ذلك؟!.

- فقال الشيخ: وإذا قلت لك إنك لن تندم بلقاء خليل الشريف؟!

- تفاجأ معاذ: تقصد محي الدين الشريف؟!

- لا، فذاك الأخ من القدس وهذا من نابلس وهو يطلبك شخصياً.

- لكنني لا أعرفه، لم أسمع باسمه؟

- ابتسم الشيخ وهو ينظر بالمرآة، يكشف خلف السيارة: لكنّه يعرفك، ويعرف أنك بعثت شيفرة لعبد الناصر وعثمان في الأسر وستأتي معي رغماً عن أنفك وهذا أمر.

- انصدم معاذ وهو يرافق الشيخ وينصاع لرغبته، وبعد خمس دقائق كان يجلس في غرفة الضيوف بمنزل الشيخ قبالة خليل الذي ذكرّه بنفسه، ولم يستطع معاذ أن ينفي عن وجهه الراحة التي سكنت محياه لدى رؤية هذا الذي يأسر بخلقه وصدقه الظاهر، جميع من يلتقيه: إذن! أنت من طلب رؤيتي؟!

- فرد خليل وهو ينقل رشاش العوزي، في حركة استعراضية، من جانبه الأيسر إلى الأيمن: ويشرفني أن نعمل معاً في سبيل الله ومن أجل أهلنا ووطننا.

- فابتسم معاذ: ولماذا أشعر أنك متأكد من إجابتي لطلبك؟!

- لأن الذي يدخل بيت الجهاد والمقاومة هذا، لا يمكن أن يخذل إخوانه!

- لقد غلبتني، دعنا نتحدث بصورة واضحة ومكشوفة عن إمكاناتنا المتوفرة.

- ففرح خليل، بان ذلك على وجهه: عندي الإمكانات البشرية التي

تُنجح أي عمل يوفقه الله -عز وجل-.

- فقال معاذ: وهذا ما أريده في مشروع تحرير الأسرى الذي حمّلني أمانته إخواني الأسرى. - فرد خليل: لقد بدأنا العمل به منذ مدة، وعندنا تصوّر وخطة للمشروع ولكن! يشغلنا أمرٌ آخر، يجعلنا نؤجل الأمر قليلاً!

- فانفعل معاذ الذي ما زال يعيش اللحظات الأخيرة وعبد الناصر عيسى يهمس في أذنه: انظر من حولك جيداً، جميعهم يعقدون الأمل عليك بعد الله -عز وجل-، إياك وخذلانهم.

- فقال خليل: خيرًا إن شاء الله؟!

- واجب الوقت! بل فرض الساعة أن نحرر الأسرى، لا شيء أعظم من ذلك.

- ونحن نقول بذلك ونزيد، قالها خليل وسكت، لا يستطيع أن يتحدث أكثر، يريد أن يعرف مزيدًا عن معاذ، لم يكتف بعد، يحدثه حدسه بأمر لم يفصح عنه معاذ، فيقول في نفسه: ليتك تريحني بسرعة..! وسرعان ما دخل الشيخ يوسف، يحمل بيده صينية «الرز بالحليب»، فتوقف فجأةً ولم يكمل سيره نحوهما، مخاطباً خليل بقسمات وجهٍ جدية: لماذا لم أسمع صوت الرصاص؟! ألم أقل لك أن تطلق النار عليه؟!

- فرد معاذ بضحكته أولًا ثم بلسانه: الله أكبر!!

- ثم سارع خليل بالقول: لم نضطر إلى ذلك.. وما لبث أن قام معاذ بوضع أصابعه العشرة على سلاح خليل معلناً: أنا معاذ بن الشيخ سعيد بلال، أبصم بالعشرة أنني معكما على شرطي!. وسرعان ما انفجر

الثلاثـة بالضحـك ومعـاذ يخبر خليـل: هذه الصينيـة وما بداخلها والبسـمة المرتسـمة عـلى الوجـه الجميـل حاملها، تتكـرر أمامي للمرة الخمسـين بعد المئـة ولكـن!! -يسـأل معـاذ الشـيخ- أيـن الأطفـال، شركاء اجتماعاتنا؟!

- فـيرد الشـيخ: هـذا كان سـابقاً، لا ينبغـي أن يـروا ويسـمعوا الـذي يـدور هنـا كأبيهم!

- فقال خليل: أنت على رأسنا، ودونك لم يكن ليحدث هذا اللقاء..

- إذن -يقـول الشـيخ وهـو يقـدم لهـما الصحنـين- فلماذا لا أشـعر بالراحة الكاملـة على وجـه خليل؟!

- فطلـب منـه الأخـير الجلوس مستشـيراً: يحمل الشـيخ معاذ أمانـة تحرير الأسرى في عنقـه، وتعلـم يـا شـيخ مـا أعلـم!!. فـأدرك الشـيخ يوسـف أن خليـل لم يحصـل عـلى مـراده الـذي رجـاه مـن اللقـاء، لذلـك لم يضطـر إلى قـول مـا لديـه: معاذ! لـدى خليل وإخوانه مـشروع يعملون عليـه منذ عام ونصـف، فـماذا لديك لتسـاعدهم؟!

- يا شـيخنا! أنا مسـتعد للمسـاعدة بكل ما أملك شريطة أن نمضي بواجب السـاعة، تحرير الشـيخ أحمد ياسين وجميع الأسرى.

- فـرد الشـيخ وهـو يدعـوه لـلأكل: كُلْ هذه من يـد خالتك أم طـارق، هل تريـد مزيـداً مـن القرفـة؟!، وما الـذي تملكه مـن ورائي يا ابن شـيخنا؟!

- فضحك معاذ، وخليل ينتظر أن ينطقها: ألا نتفق أولاً على..!

- قاطعـه الشـيخ: تكلّـم بمـا لديـك، فجميعنـا يريـد تحريـر الأسرى، هـل لديـك سـلاح؟! - فتدخـل خليـل وهـو يرفع يديـه للأعلى: يـا رب! أن تكون

البنـادق مـن النـوع الـذي نريـد، كلاشـنكوف، (M16) وغيرهـما؟!

- فـرد معـاذ حزينـاً عـلى تخييـب ظـن خليـل: مـع الأسـف الشـديد، ليـس لـدي رصاصـة واحـدة. فصمـت خليـل والشـيخ وهـما يحدقـان بعينيـه، فـصرخ: أقسـم إننـي أقـول الحقيقـة ولكـن!

- فقال الشيخ: هذه الّلكن، يحبها الله ورسوله والمؤمنون، قل قبل أن..!

- فسـارع معـاذ بالقـول وهـو ينظـر في عينـي خليـل الثاقبتـين: عنـدي متفجـرات تدمـرُ نصـف تـل أبيـب!

- ولم يكـد ينهـي كلمتـه حتـى خرجـت «اللـه أكـبر» مـن فـم خليـل كأذان بـلال فـوق الكعبـة، وقلبـه تتسـارع فيه النبضـات مـن الفرحة، لكـنّ ذراع الشـيخ يوسـف وجـدت طريقهـا بسرعـة إلى عنق معـاذ يأخذهـا إلى صدره وهـو يقـول: عنـدك كل هـذا الخـير ولا نعلـم به؟!

- فصاح معاذ: رقبتي يا شيخ، وما أدراني بحاجتكم؟!

- فأجابـه وهـو يقبـل رأسـه: لقد علمـت الآن بحاجتنا وستسـمع من خليل مـا يسرّك.

- فقـال معـاذ وهـو يرفـع كفـه للأعـلى مشـترطاً: عـلى أن نمـضى بمـشروع تحريـر الأسرى أولاً.

- وهنا تدخل خليل بعد أن حصل على ما يريد: يا شيخ معاذ!

- فأوقفـه الأخـير عـن الحديث: لا شـيخ بوجود الشـيخ «أبو طـارق»، أرجو أن تخاطبني باسـمي.

- فرد خليل: كنت أسـمعهم في المدرسـة ينادونك بالشـيخ، وأحب أن أبقيك

هكـذا في الواقـع والذاكـرة، فاحمـرّ وجهـه، أمـا خليـل فعـاد لحديثـه: أنت غائـب عـن الواقـع منذ مـدة، وهناك أحـداث وتطورات عـلى الأرض تفرض نفسـها عليـك، تجعـل مـن نمـط عملـك المـوكل لـك واجـب السـاعة، فقبل عـدة أشـهر مـن اليوم، كشـف الاحتلال خليـة صوريف بعد استشـهاد أحد أبطالهـا «مـوسى غنيمات» في عملية تفجير في مدينة أم خالد «نتانيا»، هذه المجموعـة لم تكـن تعلـن عـن عملياتهـا الممتدة منـذ قرابة عامـين، وأبرزها أسر الجنـدي «شـارون أدري» الـذي بقـي مدفونـاً في جبـال صوريف ثمانية شـهور حتـى يحين وقت المسـاومة عليه، لـولا اعتقال أفـراد المجموعة لدى الأجهـزة الأمنيـة الفلسـطينية والضغـط عليهـم للإقـرار عن مـكان الجندي والـذي تـم تسـليمه مـن جانـب السـلطة للاحتـلال، هـذه الخليـة المقاتلـة فهمـت واجـب الوقـت عـبر أسر الجنـدي وأعـمال أخـرى، وكذلـك كثير من المجموعـات التـي أسرت جنـوداً بتوجيـه أخينا المجاهد محمـد الضيف.

أمـا نحـن، ففـرض السـاعة لدينـا، زرع الخـوف في شـوارع العـدو، والإبقـاء عـلى قاعـدة تـوازن الرعـب حيـة لنردعـه عـن شـعبنا، وحتـى يفهـم الذين اجتمعـوا قبـل عـام في شرم الشـيخ ووصفونـا بالإرهابيين، أن دماء الشـعب الفلسـطيني ليسـت مـاءً وكل قطرة دم تسـيل مـن أطفالنا ونسـائنا وأهلنا سـينزل مكانهـا قطرات وأنهار، وتأكد يا أخي، أننـا لن ننسى إخواننا الأسرى، ثـم لا تنـسَ بـأن العمليـات الاستشـهادية متوقفـة منـذ عـام ونصـف الأمر الـذي يتمـترس خلفـه حـزب الليكـود الحاكم في دولـة الاحتـلال والذي جاء بعـد سـقوط حـزب العمـل عـلى إثـر عمليـات الـرد عـلى اغتيـال المهندس يحيـى عيـاش، بالقـول: لقـد نجحت سياسـتنا الحديدية ضـد حركة حماس.

- فضحك معاذ وهو يحدّث نفسه على مسمعهما: لم أكد أتخلص من اثنين حتى خرج لي غيرهما!

- فغمزه الشيخ بعينه، يسأل عن هويتهما، فأجاب: الجنجي والأسمر! فقال الشيخ موجهاً كلامه لخليل: هكذا اكتملت الدائرة، فسارع معاذ بالاستدراك عليه: يا شيخ! دعونا نأسر جندياً..!

- فقال خليل: سنفعل ذلك بعد تأديب الصهاينة.

لحظتها! لمعت فكرة في رأس معاذ بعد أن تأكد استحالة الذهاب لمشروعه: إذن فلنحي قضية تحرير الأسرى من خلال العمليات الاستشهادية!.

- فتبادل الشيخ وخليل النظرات، مبديان الرضى عن المقترح..

- وكيف يكون ذلك؟! -سأل خليل الأسعد من بين الثلاثة- فأجاب معاذ: وحدة الشهداء لتحرير الأسرى.



أعظم مجنونين في العالم

- كانت أفواج المهنئين تتقاطر على بيت معاذ، كما تعودت أن تفعل ذلك منذ زمن بعيد والوالد والأولاد والزوجة، ولاحقاً الأحفاد، يدخلون ويخرجون من الأسر، سيرةٌ تحافظ عليها العائلة، تأبى أن تجتمع على مائدة واحدة حتى لا تترك الأسر وحيداً!، فلم تكن المرة الأولى لمعاذ ولن تكون الأخيرة، فأن تكون رافضاً، معارضاً، مقاوماً، وإسلامياً على وجه الخصوص، ستصبح زائراً دائماً لسجون العدو، مارست حق الرفض العملي للاحتلال أم لم تفعل، فوجودك خارج الأسر تهديدٌ دائمٌ لكيانه فإن لم يجدوا لك تهمة واضحة، سيصدر بحقك قرار الاعتقال الإداري، البدعة الإنجليزية زمن احتلال بريطانيا لفلسطين، وسيكون الملف سرياً، ستة شهور يتبعها تجديد بأخرى فثالثة ودواليك.

- يعانق معاذ ويعانق حتى إذا ما ضمته ذراعا نسيم الطويلتان توقفت لحظته عند همس جميل: الحكاية جاهزة مع تأخر لسنة ونصف، سرت في صدره قشعريرة الثورة والجهاد، غيابه القسري في الأسر، لم يوقف عزيمة صاحبيه، يعود مرة ثانية إلى رائحة البارود الساكنة في ثياب هذا النسيم!، فرد على طريقة الأحرار، وكفه التي ما زالت تحفر بمعصمها آثار القيود، تضغط على ظهر صاحبه، لكن عينيه السمراوين، كانتا تخاطب الجنجي وهو يتلقفه بين ذراعيه: أهلاً بجاسر، ما زلت أشقر لم..!

فأسكته بحرارة عناقه وهمسه: ليس لدينا وقت، إن لم نلتق الليلة..!

- ضحك معاذ، قال كلمات يرددها لجميع المهنئين حتى يقطع همس جاسر، لا يريد أن تلتقط الآذان الفضولية شيئاً وربما كانت غير فضولية، يفترض المقاومون وجودها في كل مكان، ولمّا انتصف الليل وغادر آخر الناس، كانا ينتظرانه في الخارج، وأعين أهل البيت ترقبه وهو يستأذن لدقائق لمقابلتهما.

لم يكن غريباً عليهم، فهم يعرفون الدرس جيداً، يفهمون الواجب بطريقة غير مشروطة، لن تجد أحداً يعذر أحداً، إن تقاعس متذرعاً بالقول: لقد قمت بواجبي وكفى الله المؤمنين القتال. حينها! سيرفع الوالد الشيخ عصاه التي يتكئ عليها ويهوي بها على ظهره، وبقدمه السليمة «شلوتا» من العيار الثقيل.

- كان العناق هذه المرة مختلفاً، مخلوطاً بحرارة خالصة من الصدق الذي يفهمه المقاتلون، بعيداً عن أعين الناس، يقول نسيم: لم نستطع الصبر للنهار، لقد انتصف عام سبعة وتسعين، ولم نفعل شيئاً، ولا أظن بأن الأمر يحتمل صباحاً آخر؟!

- فسأل معاذ الذي لم يحتج مقدمات مع أخويه نسيم أبو الروس، القائد الميداني لحركة حماس في أحد أحياء منطقة رفيديا، وجاسر سمارو، المقاتل الصلب والناشط الذي ستعجب إن لم تره في كل مكان فيه مقارعة للمحتل: هل نحن جاهزون؟!

- فرد جاسر وهو يرقب بعينيه الشارع: منذ أن وصلت رسالتك من داخل الأسر ونحن نعمل على توفير الإمكانات اللازمة للتحرك.

- لحظتها لم يتمالك نسيم ذو الوجه الحنطي والطول الفاره نفسه فاندفعت الكلمات من فمه: لقد وقعنا على أمر سيشعل الأرض ناراً تحت أقدام الصهاينة، واقترب أكثر إلى أذن معاذ: هل تعرف ما هو؟!

فسأل معاذ على طريقة الرجاء: يا الله، يا الله؟!. يريد أن يسمع ما يتمناه كل حر على أرض فلسطين يتوق لقتال المحتل، فسارع جاسر لرفع وتيرة انفعاله، وشقرته المائلة للحمرة تزداد احمراراً: أمراً تمناه المهندس قبل استشهاده! - فصرخ معاذ: أستحلفكما بالله أن تتوقفا عن تعذيبي، هيا قولا!

- فقال نسيم: ما رأيك بخمسين كيلو «أم العبد»؟! فأمسكت يداه قميص نسيم ولم تكن عادة معاذ، الهادئ حد الاستفزاز، فعل ذلك: لا تلعب بأعصابي، سأضربك إن كنت تمزح؟!

- فرد نسيم ضاحكاً: اشتريت القميص قبل أيام، مزّقه وادفع ثمنه!

- فقال معاذ: ولماذا أمزقّه أيّها الذكي؟! ثم لماذا تغيّر الحديث؟!

- فأجاب نسيم وهو يرفع كفيّ معاذ عن ياقته: لأنك ستمزقه عندما تعرف بأننا نملك مئتي كيلو «أم العبد»!، ولما سكتت الموجة الأولى من الانفعال الذي استيقظ أيضاً في صدري نسيم وجاسر وكأنهما كانا لا يصدقان ما استطاعا الحصول عليه، سأل معاذ مذهولاً: كيف ومتى و..! فأسكته نسيم: هذا ليس مهماً الآن، الأهم أننا بحاجة إلى مخزن للمادة، فالأماكن التي نضع فيها غير آمنة، وهناك خطرٌ بأن ننكشف.

- فكّر معاذ لحظة وسرعان ما انفجر ضاحكاً: أنتما أعظم مجنونين في العالم، ومع ذلك امنحاني بعض الوقت لأرى ما سيوفقني الله لعمله.

- معاذ؟! قال جاسر: لا مجال للتأخير.

- ولمّا ودعهما عائداً إلى المنتظرين في البيت، سألهما بعينيه فأجابه نسيم قبل أن ينطق: من يفكر وينوي متوكلاً على الله لن يعدم الوسيلة!

- وفي اليوم التالي من الإفراج عن معاذ وأهل البيت نيام، كانت «أم العبد» تتسلل بين أيدي الثلاثة إلى الشقة الفارغة في البيت وبخفة وسرية مطلقة وجدت المتفجرات طريقها إلى «السدّة» التي يخزن فيها الناس الزيت والزيتون والجبن و«أم العبد» أيضاً: ضميري لا يطاوعني! فإن حدث خلل لا سمح الله ستنقرض عائلة الشيخ سعيد بلال عن الوجود باستثناء عثمان، فكّ الله أسره؟! قالها نسيم وهو يقف إلى جانب معاذ وجاسر، وثلاثتهم ينظرون إلى أعلى باتجاه «السّدّة».

- فرد معاذ: على الأقل هناك عثمان، سيجدد نسلنا وما لبث أن ضحك بصوت منخفض حتى لا يسمع أحد ارتداد الصوت داخل الشقة التابعة للبناية ولم تكن مسكونة في تلك الأيام: وأسأل الله أن نجد بديلاً في أقرب وقت قبل أن يحدث مكروه، فإن وقع المحذور، ففي أهلي وليس أحدٌ من أبناء شعبنا.

- لم يجد معاذ صعوبة في إقناع مقاتليه لترتيب أولويات العمل، على الرغم من توفر الأدوات اللازمة للمباشرة في مشروع العمليات الاستشهادية، فهما أسيران سابقان في سجون الاحتلال مطلع التسعينات، وقد شكل ذلك محطة مهمة في خبرتهما النظرية في مجال المتفجرات، ولو في حدودها الدنيا، فليس صعباً أن تعثر على كرّاس صغير يتنقل بين الأيدي خفيةً في معتقل مجدو يسرح أبجديات العمل العسكري المجموعة من الخبرات التراكمية لجميع الفصائل، فهناك أسرى محررون

أعـاد الاحتـلال اعتقالهـم في انتفاضـة الحجـارة، قـد تدربـوا فيـما مـضى في معسـكرات فلسـطينية في سـوريا ولبنان والعـراق وغيرها، وضعـوا خبراتهم في أوراق سـاهمت في بنـاء ثقافـة عسـكرية، اسـتفاد منهـا نسـيم وجـاسر، إضافـة إلى خـبرات مجموعـات الانتفاضـة التـي فجَّـرت عبـوات ناسـفة بدائيـة الصنـع، وأوجـدت بدائـل عمليـة عـن القنابـل اليدوية فيـما يطلق عليهـا محليًـا «بالأكـواع»، عـلى الرغـم مـن نـدرة ذلـك وعـدم تحولـه إلى ثقافـة انتفاضيـة واقتصـاره عـلى مجموعـات نخبويـة بـرزت عـلى وجـه خـاص لدى تأسـيس كتائب القسـام الذراع العسـكري لحركـة حماس مطلع تسـعينات القـرن العشريـن، لكن حادثة جـرت في معتقل مجـدو عام اثنين وتسـعين، جعلتنـا نحلـق حالمـين في سـماء المقاومة التـي ننشـد، عندما قام أحـد الإخـوة المعتقـل على خلفيـة تفجير أنبوبـة غاز مليئة بالمـواد المحترقة في أحـد المنشـآت الفارغـة والتابعـة للاحتـلال، بصنع نموذج صغـير لصاروخ بحجـم كـف اليد، اسـتطاع إطلاقه في الهواء مسـتعينًا بمـادة محترقة عملت عـلى دفعـه للأعـلى، وقـد صنع جسـد الصـاروخ من وعـاء معجون الأسـنان المصنـوع مـن معـدن رقيق جـدًا، وكانـت الممرات التـي تفصـل الخيام عن بعضهـا البعـض، سـاحة الإطلاق.

- لم يكـن خليـل والشـيخ يوسـف أقل حرصًـا على تحرير الأسرى من نسـيم وجـاسر اللذيـن وافقـا عـلى أولويـة العمـل على ملـف الأسرى قبـل أن يغير معـاذ رأيـه، فـكل الأطـراف لهـا رأيهـا الـوازن في المسـألة، لكـن حماسـها لتجديـد العمـل الاستشـهادي لم يخفـت واشـتعل نـارًا بعـد التعـرف عـلى خطـة العمـل الجديـدة، والتـي يقـف على رأسـها مطارد لم يسـمعا باسـمه قبـل أن يخبرهـما بـه معاذ!

فراق أم رحيل!؟

- يا ولدي خذني معكم، كفاك عنادًا، إلا إذا رأيتني عجوزًا، صحيح بأن أمك عجوز، لكنني سأعجبك إذا جعلتني أضرب على البرن.

فقهقه محمود المتربع على الحصى قبالة والده الذي يزوره في بطون الجبال، ويلتقيان تحت شجرة لوز يحفظاها عن ظهر قلب منذ أن زرعاها معًا قبل أعوام طويلة.

-ألا تخاف أن أخبر أمي أنك تبحث عن زوجة ثانية؟ فاستنكر الوالد المتكئ على «سنسلة» حجرية تخفيهما وراءها: لولا حاجتي لك، لجعلت هذه العصى تذهب وتجيء على جسدك! من أين اخترعت هذه الكذبة؟

- من يصف زوجته بالعجوز حتمًا يفكر بالزواج عليها! فهز أبو محمود رأسه: أعرف لماذا تقول ذلك، تحاول أن تصرف تفكيري -كعادتك- عن طلبي، لكنني سأظل أحاول..! فقاطعه محمود: يا والدي الحبيب تكفيك نية الجهاد وأنا أيضًا أكفيك... فأسكته: يا للخسارة! لقد علمتك الشريعة وأصول الدين ولم تفقهُما! وأظهر انزعاجه وغضبه فسارع محمود لإرضائه: أرجوك يا أبي ألا تغضب، إذا أردت أن أدربك على السلاح فسأفعل، لكنني لا أستطيع أكثر من ذلك، انظر! حتى إخواني معاوية وتوفيق ويوسف وبشار...

فـصرخ أبـو محمـود مقاطعًـا: لا شـأن لي بأحـد، أريـد أن أستشـهد ولكـن! ليـس بخسـارة، فسـأله محمـود: ومـاذا تسـتطيع أن تفعـل؟ وأخـيرًا تفتـح وجهـه وهـو يربـت عـلى كتـف محمـود راضيًـا: الآن أصبحـت تفهـم عـلى أبيـك؟ اسـمع: أنـا ختيـار لـن يشـك بي اليهود، فـإذا ألبسـتني حزامًا ناسـفًا سـأفجر أي مـكان تريـده.

-فقـال محمـود الـذي تعود عـلى ثوريـة والده: وماذا سـيقول عنـي عجائز القريـة؟ قتـل والـده وما زال هـو على قيـد الحياة!

- عـلى العكـس، رد أبـو محمـود، باستشـهادي سأشـجعهم حتـى يلحقوا بي وأيضًـا.،، سأكشـف الجبنـاء مـن بينهم.

- فقـال محمـود: ومـاذا سـتفعل زوجاتهـم بوالدتي؟ فسـكت العجـوز وهو يهمهـم يائسًـا مـن ولـده: أعـرف أنـك تدارينـي، لكننـي لـن أرضى عـن... فأوقفـه محمـود عـن الـكلام بلثـم يـده راجيًـا: لا يـا والـدي، أرجـوك ألا تقلهـا، فأنـا أعيـش مرتاح الضمير بفضـل رضاك عني، وصدقنـي، أن ظروفنا وأحوالنـا لا تسـمح بـأن نحقـق لـك مـا تريد وربمـا، أقـول ربما سـيأتي اليوم الـذي تحقـق فيـه مـا تريـد ولكن!

- وهنـا ابتسـم محمـود وهـو يسـأل – لمـاذا تقـول إننـي لا أفقـه بالدين؟! فأجـاب العجـوز وهـو يطعـم ولـده مـن طعـام البيـت الـذي أعدتـه أم محمـود: هـل تتذكـر قصـة الصحـابي أبو أيـوب الأنصـاري -رضي اللـه عنه- التـي رويتهـا لي قبـل سـنوات؟! لحظتها، أدرك محمود أنـه وقع في المصيدة، فأجـاب وهـو يـأكل «المسخّن»: نعـم يـا أبي، أذكر. فقـال أبو محمـود وقد تحـول إلى شـاب: استشـهد عـلى أبواب القسـطنطينية وهو ابـن الثمانين، لم يقاتـل عنـه أحـد، خرج للجهـاد في سـبيل اللـه، لماذا؟!

فرد محمود: لماذا يا أبي؟!

- لأنه فقه الدين كما يجب فعرف أن فريضة الجهاد للدفاع عن الدين والأرض والعرض واجب على كل إنسان ولا تسقط لكبر السن ووجود الأولاد.

لم ينقذ محمود من ورطة أبيه سوى مقدم بشار الذي حذرهما بوجود راع للأغنام يقترب من المنطقة وضرورة إنهاء اللقاء ومغادرة الوالد، فافترقا بسرعة.

كان محمود يتنقل ما بين نابلس وعصيرة الشمالية، قريته التي لا يستطيع الفكاك عنها، ففي المدينة يبقى داخل البيوت العديدة التي يوفرها الشيخ يوسف، بعضها خال من السكان والبعض الآخر مأهول بالعوائل التي تسمح ظروفها باستضافة المجاهدين، ولكن راحته الحقيقية كانت بين الوديان والجبال وحتى البيوت القريبة منها، والأهم رؤية تلامذته أسياد الجبال الذين يبادلونه ذات الشوق، وفي كل مرة يجتمع بهم تنتظره محاكمة جديدة على نفس التهمة.

- لقد أحضر والدي حصصًا من «المسخّن» لأربعتكم مع الدجاج والسمّاق وزيت الزيتون، ستأكلون أصابعكم لطعمها اللذيذ، قالها محمود وهو يستريح من تعب المسافة التي قطعها بعد مغادرة والده، وكان قد حضر صباحًا إلى الجبال قادمًا من المدينة ودار نقاش حاد على ذات الأمر الذي يتكرر كل مرة ومحمود يخفي أمرًا عليهم، يستفزهم، فتنفلت منه ضحكة بين الفينة والأخرى، وسرعان ما يعود إلى ذات الأمر فيثورون عليه، ومعاوية يحمل بين يديه ثعبان كبير يتناقله الأربعة بين أيديهم، احتاج عملية إنزال خاصة داخل بئر مهجورة جفت منها المياه

منذ سنوات طويلة للقبض عليه: ألن تكفوا عن هذه المغامرات التي قد تعرضكم للخطر؟! قال محمود وهو يفرد الطعام أمامهم.

فرد معاوية: الخطر في كل مكان، إن لم تذهب إليه وتواجهه سيأتي إليك وأنت نائم! ابتسم محمود قائلًا: صفاء الجبال يجعل من المقاتلين فلاسفة في فنون الحرب.

فرد يوسف الذي باشر بالأكل: بل قل في فن الاختباء وصيد الأفاعي.

- بالله عليكم، قولوا لي، لولا وجودكم في الجبال هل كانت المنطقة ستتخلص من عصابة الإجرام والسفالة التي كشفتموهما؟! فصاح توفيق متصنعًا البكاء، وهو يرفع كلتا يديه للأعلى: يارب، يا الله، لولا أن عبدك هذا، محمود أبو هنود، أحب الناس إلى قلوبنا لأريناك... فأوقفه بشار بيده، وفمه مليء بالطعام، وقد ظن البقية أنه يعاتبه على كلامه، لكنه فاجأ الجميع بدعوتهم لتنفيذ ما قصده توفيق حرفيًا بعد أن ابتلع الطعام بسرعة: هجوم!

حيث احتضنه من الخلف، مقعيًا إياه للوراء: سنريك الآن فنون الحرب على حقيقتها، فسارع يوسف للمشاركة وتثبيت القدمين قائلاً: وفنون المصارعة أيضًا، لن تفلت من أيدينا هذه المرة. فصاح محمود ضاحكًا ولم يشأ استخدام كامل قوته للدفاع عن نفسه وكأنه أحب ذلك: هل من نصير في هذه الجبال؟! وكان يوجه كلامه لمعاوية وتوفيق، فهبّ الأخير مدّعيًا تلبية النصرة: لبيك وسعديك ولكن! بعد أن تعترف بالحقيقة، هل تضحك علينا أنت وأبو محمد؟!

- وأخذ يزغزغه من بطنه، هيا اعترف؟!

فصرخ محمود: سأعترف، سأعترف، ولكن! عن ماذا أعترف؟! وهنا تقدّم معاوية بثعبانه الأسود الملتف على يده: أنك لست محمود أبو هنود، وأننا لسنا من كتائب القسام، وأن هذه الأرض ليست فلسطين المحتلة، ثم نظر إلى يوسف: أين نحن؟! فأجاب: في سويسرا. فتوقف المشهد لويحظات خاطفة والأعين تتجه ببطء نحوه، ترفقه بنظرات باردة، متسائلة، فبادلهم ذات الغربة، ولكن!! بنظرة طفل خائف يخفي وراء عينيه جريمة كسر زجاج الجيران، وبذات السرعة تفجّر المشهد ضحكا وقهقهة: سويسرا؟! يسأله معاوية –ألم تجد بلدًا أبيض من سويسرا يليق بشقارنا؟! – يقول ساخرًا ورأس الثعبان يقترب إلى وجهه وهو ينثني بجذعه إلى الأمام من فرط الضحك.

يا جماعة! -يتحدث يوسف وعيناه تضحكان معًا- نحن أحفاد الأفارقة الذين استوطنوا في سويسرا بعد أن تحرروا من الاستعباد.

فسأله محمود الذي تحرر من أيديهم: ولماذا تحولت بشرتكم السوداء إلى حنطية؟! فأسقط في يديه، وقد أعجزه السؤال الضاحك فتدخل بشار الذي كان مستلقيًا على التراب ينظر إلى السماء الصافية: لقد تزوج آباؤنا نسوة من ذوي البشرة الشقراء فخرجنا هكذا.

- فصفق الأربعة بعد أن وضع معاوية الثعبان تحت قدميه منهيًا صحبته لهم: لحظة، لحظة! –طلب يوسف انتباههم- وهذا الأشقر الجميل الساكنة أوروبا في عينيه؟! حينها والعيون والعقول والقلوب تتجه مجددًا نحو محمود، تذكر الأربعة قضيتهم، شاغلهم الذي يحوز على تفكيرهم، لا ينفك يطاردهم في اليقظة والأحلام، غير أن وجه سيدهم الأشقر بقي على غير عادته، محدقا في الأفق البعيد، نظرات

لم يعهدوها عليه، ابتلعت ضحكاته، مزاحه، بشاشته الرائعة! فتناقلوا التساؤل البصري بينهم؟ أترانا أثقلنا عليه؟! يخاطب توفيق نفسه، فترد عينا يوسف: لو كان غيره لقلت نعم. وبحركة من يده، قطعت حيرتهم، دعاهم للجلوس حوله وعيناه تغرقان بحزن لم يشهدوه سابقًا، ثم حوّل نظره إليهم، تاركًا لسكان الأشجار من الطيور أن تستمتع بالهدوء الذي يخيّم في المكان، وبكلمة واحدة ندّت من فمه: إذن! فسارعه الأربعة: إذن ماذا يا أبا عبادة؟! كنيته التي أحبها منذ الصغر.

وبعد هدوء إضافي وأصابعه تعبث بالتراب: لقد اقترب موعد الفراق!

تحولت وجوههم إلى السواد، أقطبوا جباههم، فتبخرت آثار الضحك: عن أي فراق تتحدث؟ -يسأله معاوية وجميعهم يرقب شفتيه يود ألا ينطق ما يخشونه، لذا سارع بشار للتعبير عن ذلك: أرجوك أن تقل أي شيء غير فراقك لنا!ولماذا تفارقنا وقد تعاهدنا على القتال والشهادة معًا؟! -يعاتبه توفيق- ألا يوجد في الضفة الغربية غيرك؟! الوسط والجنوب مليء بالخير والمجاهدين، يصرخ معاوية ومحمود على حاله، حتى سأله يوسف: ألا تقل شيئًا يا أبا عبادة؟

فقال: حزينون على فراقي؟! فرددوا جميعًا باستهجان المحبين: هذا سؤال لا يجاب عليه بالكلمات.

فعاود الصمت، تخنقه العبرات، لم يهيئ نفسه لذلك، هم قطعة من روحه، كلامهم، لهفتهم، حبهم، نظراتهم، كل حركاتهم، وسكناتهم.

تصعّب عليه الأمر: لا تستوعبون فكرة فراقي، فكيف سأقوى على رحيلكم؟!

نظر الأربعة في وجوه بعضهم، لم تكن الحيرة سيدة الموقف، لا لا، ولا الشعور الذي سبق العبارة الأخيرة، إنما!! محاولة جماعية للتأكد من قوله الكلمة الأخيرة رحيلكم!! فقائدهم أستاذ في اللغة العربية وغير وارد أن يخطىء في تذييل الجملة على نحو غير الذي فهموه، لذلك!! لم تشأ رغبتهم، أرواحهم، شوقهم، إطالة اللحظة، فكبّروا: الله أكبر، الله أكبر.

اهتزت أوراق الشجر، تمايلت الأغصان، تناثرت أنغام العصافير في الهواء تلحن فرحتهم، تحتفل على طريقتهم، ترسمهم في السماء أقمارًا من زهور، تراها ولا تقوى على استنشاق عبيرها.

رحيلنا! يعني الشهادة؟! -يخاطبه معاوية محذرًا بعينيه الراجيتين ألا يقل غير الذي عناه، فهزّ محمود رأسه مؤكدًا: نعم، إنها الشهادة، لقد انطلق المشروع كما أردتم. فعاودوا الانفعال واحتضان بعضهم البعض، ثم عانقوه على نحو مختلف، لأن كل شيء سيختلف من تلك اللحظة التي علموا بها أنهم مقدمون على صناعة التاريخ بالطريقة التي أحبوا، لكن غصة ستظل ماثلة تذكرهم برجل عظيم يرفض أن يبتسم لفراقهم: يا رجل -يقول يوسف- لقد أتيتنا بأروع خبر سمعناه منذ ولدتنا أمهاتنا، فأرجوك أن تبتسم؟!

فنظر محمود إلى وجوههم: يرفضون أن أكون أولكم! فاستهجنوا جميعًا: ماذا؟ فتفاعل مع استنكارهم: يرفض خليل مجرد تفكيري بالأمر في هذه المرحلة، يسانده في ذلك... انتبه محمود إلى انزلاق لسانه الذي كان سيبوح باسم الشيخ يوسف، فقال بشار محتدًا: ومن قال إننا سنسمح لأحد أن يتدخل في قراراتنا؟! وابتسم محمود، رغم علمه أن القرار ليس

بيـد أحـد غير خليل ومشـورة الشـيخ يوسـف، وتحمس للأمر لعله يسـتغل مـا سـمع في إقناعهـما: أمتأكـدون أنكـم سـتصرون عـلى أن أكـون معكـم؟! فـرد بشـار: إصرار يفـوق الفـولاذ في صلابتـه ولكن!! فسـأل محمـود: ولكن مـاذا؟! فأجـاب معاويـة: ولكـن في تأييد موقـف إخواننا، فهـذا ليس دورك، يجـب أن تبقـى لتقـود، لتزرع الأمـل في نفـوس الناس...!

أوقفـه محمـود عن الـكلام: كفى، كفى، جميعكم مدرسـة واحـدة، فضحك توفيـق وأنت الأسـتاذ فيها.



قبل أربعين يومًا من العملية

-هـي المـرة الأولى التـي يتحـرك فيهـا خليـل نهارًا، ليـس من عادتـه، قانونه الأمنـي يرفـض ذلـك، فالمطـارد ظـل يطـارد العـدو، شـبح لا يمكـن رؤيتـه بـل رعـب يـترك ألمـه في صـدر العـدو ويختفـي، لا أسـتطيع القـول إننـي اسـتغربت، فطلبـه اللقـاء بالمهنـدس أيمـن حـلاوة في مـكان آمـن لوقـت طويـل، لا يمكـن تحقيقـه ليـلًا، نظـرًا لطبيعـة عمـلي ومحدوديـة التـصرف بمـكان الاجتـماع، والحـق أن هـذا النـوع من المقاتلين، المخلـص لقضيته على نحـو مثـير للإعجـاب، يعيد القيمـة لمفهوم المقاومـة ورجالها، فـإن تحرك لا يـراه النـاس وإن غـاب افتقـد أثـره الناس.

كنـت أرقـب عينيـه وهـما تلقيـان التحيـة عـلى الأحيـاء والشـوارع يعيـد تعريـف الأشـياء الجميلـة في ذاكرتـه وقـد غـاب عنهـا -نهـارًا- مـدة عـام ونصـف، أعـبر بـه عـلى تخـوم البلـدة القديمـة مسـتظلًا بجرزيم وسـفوحه التـي تـرد عـلى ابتسـامته التحيـة، أصـل بـه إلى الحـارة، الشـارع، الحـي، جميعهـا تسـكن اللسـان، ننـزل والقبعـة العسـكرية والنظـارة تغطيـان وجهـه، ندخـل العـمارة السـكنية ثـم الشـقة التـي أخلـت نفسـها مـن السـكان نـزولًا عنـد رغبتـي، كذبـة بيضـاء؟! لا أدري، الأهـم أني صرفـت أمـي وزوجتـي وبالطبـع طفلتي المشـاغبة عـن البيت، مسـتغلًا غياب باقي الأسرة في العمـل والمدرسـة، أريتـه الشـقة مـن الداخـل والبـاب الـذي كان يـؤدي إلى طريـق هـروبي زمـن انتفاضة الحجارة، وسـيضطر إلى اسـتخدامه

حـال الطـوارئ، وقبـل أن نعود إلى غرفـة الضيوف، أشرت بيـدي إلى الزاوية فسـألني: هنـا كان ينـام؟! في هـذه الزاويـة؟!

فأجبته: وأين تريد أن ينام الشـهيد؟! كان يسـألني عن شـقيقي الذي أحبه دون أن يـراه، اسـتدفأ بسريـره الـذي اسـتضافه في بيـت مهنـد، فهـزّ رأسـه متأثـرًا ونحـن نسـمع معًا جرس البيت، فأخرج رشـاش العـوزي من الكيس، واتخـذ سـاترًا للمواجهـة، سرعان ما هـدأ لدى دخول المهنـدس أيمن حلاوة، وعناقهـما الحـار مدعـاة للغـيرة، تركتهـما وفـق الاتفاق لوحدهـما وذهبت أمـام العـمارة للمراقبـة مدعيًـا تنظيف السـيارة وفحصهـا، وفي الداخل كان الأمـر مختلفًـا، أيمـن يعاتب: لماذا تهملني؟ أنسـيت عهدنا المشـترك؟! أم أن غـيري قـد أخـذ مكاني؟! يـا أخي، بارك اللـه للمقاومة فيه وبغيره، ألا تتسـع السـفينة لي؟! لقد سـئمت الانتظار.

فضحـك خليـل وهـو يلـف ذراعيه عـلى كتف أيمـن: لقد أخبرتـك، أن دورك لم يحـن بعـد، لمـاذا تسـتعجل الأمور؟ ثـم، ألا يجوز أنك تحـت المراقبة منذ أن عثروا على بندقية المسـتوطن في شـقتنا المشـتركة؟!

تنهّـد أيمـن قائـلًا: هـذا كان منـذ عـام ونصـف، وأخبرتهـم أننـي لا أعـرف شـيئًا، باللـه عليـك أن تكـفّ عـن إبعـادي، فأجـاب خليـل: ومـع ذلـك أنـا بحاجتـك! فابتسـم أيمـن وتوسـعت وجنتـاه المنتفختـان أصـلًا: قل مـا تريد حتـى ولو!

فقاطعـه خليـل: قلـت إنني بحاجتـك وليس أكـثر، فلا تذهـب بعيـدًا، المهم معنـا سـاعتان فقط، علمني أكـثر عن الدوائـر الكهربائية.

فأظهـر أيمـن تأسـفه: سـاعتان لا تكفـي، أنـت بحاجـة... فأوقفـه خليـل: تكفـي، تكفـي، ودعـك مـن المنـاورة، أريـد أكـثر من الـدرس الـذي علمتني

إياه سابقًا -ثم فتح خليل الكيس وأخرج منه حقيبة يد صغيرة- وهذا كل ما يلزمك فضحك أيمن وهو يخرج الأسلاك الكهربائية والبطاريات ومستلزمات العمل المطلوب: لا يفوتك شيء ولو أخبرتني ما تريد لكفيتك؟! دعني أنخرط بالعمل...!

أوقفه خليل بسرعة: عن أي عمل تتحدث؟! أنا فقط أريد أن أزداد علمًا في هذا المجال، هيا أنجز.

وبعد المدة المقررة والدرس العملي الذي تعلمه خليل وإلزامه أيمن بأن يرسم ويكتب كل شيء، حان وقت المغادرة، لكن أيمن رفض أن يتحرك من مكانه، شعور غريب انتابه وهو يودع صديقه، قائده، لا يريد أن ينتهي عناقهما، ولم يملك سوى معاودة الرجاء: أستحلفك بالله ألا تحرمني شرف الجهاد والمشاركة فيما تنوي القيام به؟!

رق قلب خليل، لكنه لم يستسلم لعاطفته: لقد أخبرتك سابقًا وما زلت أقف على كلامي، سيكون من الحماقة أن تنخرط بالأمر في هذه المرحلة، يجب عليك أن تستوعب ذلك وتعد نفسك جيدًا لمرحلة تكون المقاومة بأمس الحاجة فيها إليك، الأهم -وأشار بإصبعه إلى صدره- أن يكون هذا عامر بالإرادة والإيمان وهذا -وأشار إلى رأسه- مليء بالعلم الذي يصنع الحكايات التي تستحق أن تروى.

- أعدت خليل إلى شقتنا في حي رفيديا وقبل أن أودعه قال: أيمن يدعو لك ولمهند الطاهر بالخير فلا تنسَه من الدعاء.

فأجبت: أخشى أن يكرهنا بعد أن استحوذنا عليك!

- لا، لا.. فأيمن نوع خاص من الرجال، فقلت: صديقي وأعرفه، خير المخلصين لأي قضية يؤمن بها ولا أراه يستسلم في هدف يسعى إليه،

فشعر خليل بالنشوة وهو يثني على الحديث: أحسنت، لقد أصبت فيما أعتقده تجاه أيمن، توقف خليل عن الاستطراد، فلو استمر بالحديث لقلت إنه ليس الذي أصحبه منذ عام.

تكررت اللقاءات الليلية والطارئة بين خليل ومعاذ، وأصبح العمل على قدم وساق بعد أن تكشفت حقيقة ما يفعله نسيم وجاسر، لتتضح أجزاء الصورة التي بقيت سرًا نوويًا حتى تحرر معاذ والتقى بخليل: يضع خليل كلتا يديه فوق رأسه مذهولًا: الله أكبر! شركة وهمية؟ طن من المواد الخام؟ فيجيب معاذ الذي لا يزال يحمل ذات الذهول مذ أخبراه طريقة عملهما: ليس هذا فحسب، يستطيعان إحضار أطنان أخرى متى شاءا وعلى التلفون!

كانت فكرة بسيطة وذكية في ذات الوقت، فنسيم يعمل بحياكة الملابس وأغلب مصانع الحياكة النابلسية تصنع ما يطلبه التاجر اليهودي! وهل يصح ذلك والعدو الصهيوني يحتل الأرض ويرتكب الجرائم بحق شعبنا؟! سؤال بسيط، لكن الإجابة عليه أكثر الأمور تعقيدًا، فالضفة الغربية وقطاع غزة لا تشبهان أي مكان تعرض للاحتلال، تريد أسواقًا لبضاعتك، هي للمستهلك اليهودي، فإذا رفضت! لن تحصل على المادة الخام، لماذا؟ لأنه لا تصدير واستيراد للواقعين تحت الاحتلال، رقبة الاقتصاد الوطني في يد المحتل، التوت الغزاوي، أشهر توت في العالم، يزرع بأيدٍ فلسطينية صرفة، يشتريه اليهودي بثمن بخس ويسوقه لأوروبا مكتوب عليه «فخر الصناعة الإسرائيلية». غير أن نسيم وجاسر وجدا الثغرة التي يبحثان عنها: شركة وهمية للمستحضرات الطبية، تعمل في مدينة نابلس وتوزع المواد المطلوبة للمستشفيات وغيرها... سال لعاب التاجر اليهودي وهو يتلقى الدفعة الأولى من النقود عبر المراسلة القانونية،

فسارع إلى بعث موته بيده، مجموعة كبيرة من المواد المختلفة من بينها التي يتم من خلالها صناعة «أم العبد» وهي الغاية المنشودة.

يستغرب خليل من جرأة معاذ: تضع المتفجرات في البيت؟ ألم تجد خيارًا آخر؟ -فابتسم معاذ: عندما وجدنا الخيار الآخر كدنا أن ننكشف!

أثار الأمر خليل فقال: أرجو أن أكون في صورة التفاصيل، فقاطعه معاذ بلطف: لا تذهب بعيدًا لعلي بالغت قليلًا، هي امرأة فاضلة من عائلتنا تركت مفتاح بيتها عندنا قبل أن تسافر، نقلنا المواد إلى هناك... وانفجر معاذ ضاحكًا قبل أن يكمل: فضحك خليل على ضحكه مستفسرًا عن السبب: ولما كان نسيم وجاسر منهمكين في تجفيف أم العبد عبر بسطها على الأرض، وكانت كمية كبيرة، انصدما بدخول السيدة عليهما دون سابق إنذار، لم يستطيعا التحرك من مكانهما، لم يبديا ردة فعل تلقائية، فقط! أخذا يحدقان ببعضهما، فصرخت عليهما: ماذا تفعلان في بيتي؟ وما هذا الذي اتسخت الأرض بسببه؟ فاستفاق نسيم من صدمته: مهلًا أيتها الخالة! نحن نعمل مع قريبك معاذ، فقاطعته: معاذ لا يفتح في بيتي مصنعًا لمواد التنظيف الرديئة؟! لو سمحتما، اجمعا بضاعتكما واخرجا من بيتي، هيا... - سنفعل، سنفعل ولكن، كما ترين نحن بحاجة إلى بعض الوقت، وهذا أخي سيذهب لإحضار معاذ حتى يساعدنا، فسأله خليل: وكيف أنهيتم المسألة؟ فأجاب معاذ: كان أسوأ موقف أعيشه، لكنني ضمنت سكوتها بعد أن علمت يقينًا بأن أبي سيطردني من البيت إن علم باستغلالي لبيتها في عملي التجاري، فسامحتني.

- وهل كان الشيخ سيطردك فعلًا من البيت؟ أجاب: لو كنت فعلًا أستغله للعمل التجاري.

لقد تزوَّجَت!!

صلى الفجر جماعة في مسجده «السلام»، طاف على الرواد الذين اعتادوه حمامة، نسمة، لازمة بين المحراب والمنبر، يخاطبه عجوز المسجد وقد رآه يهم بالمغادرة مسرعًا: ألن تقرأ لي أيها النسيم كعادتك؟ لم تتخلف عني أبدًا؟! فالتفت إليه خجلًا: ستعذرني هذه المرة، وأعدك بالتعويض في الأيام القادمة إن شاءالله.

-والمأثورات؟ ألن تقرأها أيضًا؟ فضحك نسيم وهو ينحني لتقبيل يد الشيخ العجوز، والذي لم يغب عنه طوال سني ارتياده للمسجد: سأقرأها ماشيًا وستدعو لي ولإخواني في ظهر الغيب، أليس كذلك؟ فابتسم العجوز قائلًا وهو يشد على يده: انتبه لنفسك يا ولدي، وفقك الله واحذر من أولاد الحرام!! لم يدر العجوز ورواد الفجر أن نسيم لم ينم الليل، كان ساهرًا على حكايته، فجاء لإسكات الفضول المفترض، وعاد بسرعة إلى المكان! في الطرف الأقصى من شارع حيفا غير البعيد عن مسجد السلام غرب المدينة.

لم يجب جاسر على طرقات الباب، حاول مرة ثانية وثالثة دون جدوى فتمتم في نفسه: غفر الله لك، ما الذي دعاك للمغادرة؟ فنظر حوله، تفحص المكان، الهدوء المطلوب، الظلام الدامس، والبيوت البعيدة، كل الشروط المطلوبة لأمن المكان الذي تصنع فيه الحكاية، تحرك قليلًا

ناحيـة اليسـار، باتجـاه أحـد الأبـواب العديـدة للمخـازن، ولم يكـد يفتـح دفتـه حتـى دفعتـه الرائحـة إلى الوراء، لم يسـتطع احتمالهـا، لكن الأصعب! جعلـه يقتحـم إلى الداخـل، لم يبـالِ بقـوة الرائحـة التـي وجـدت بانفتـاح البـاب منفسًـا لهـا، تفتـش عينـاه بصعوبـة عليـه، يغالـب الرائحة السـامة، يـصرخ: جـاسر! جاسر! يسـمع أنينًا خافتًـا جانب البـاب الأول، يسرع نحوه والـدوار قـد بـدأ يسـيطر عليـه، كاد أن يقـع إلى جانبـه، لكنه تمالك نفسـه فأمسـكه بكلتـا يديه وأخـذ يجره باتجاه البـاب المفتوح، واسـتطاع إخراجه إلى الهـواء، لم ينظـر هـذه المـرة مـن حولـه، لم يكـترث للـضرورات الأمنيـة، أرعبتـه فكـرة فقـدان روحـه، أخيـه، رفيـق الطلقـة والدمعـة والزنزانـة وسـجود الليـل، جـاسر! جـاسر! ينـادي باسـمه محـاولًا إنقـاذه وهـو يدلك صـدره، اسـتيقظ يـا رجـل! استنشـق الهـواء، بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم، اللهـم رب النـاس أذهـب البـأس يـا شـافي يـا الله!

سـعل جـاسر، خـرج المـوت من صـدره، فتح نصـف عينيه، لم يدر نسـيم ما العمـل، كفتـه أغلى ابتسـامة خرجت من روحه لترتسـم على وجـه الصباح: تنفـس جيـدًا، هيـا، ثـم أجلسـه وجـاسر ينطـق أول كلمـة: مـاذا جـرى لأم العبـد؟ فأطلـق نسـيم ضحكـة وهـو يجلـس إلى جانبـه متكئًا عـلى جدران المخـازن: لقـد تزوجـت! فابتسـم جـاسر رغـمًا عنـه ولا يـزال يعاني مـن أثر الإغـماء الـذي لم يكتمـل تمامًـا: افتـح الأبـواب والنوافـذ العلوية فـورًا، قبل أن يطلـع النهار.

- سـأفعل، لا تقلـق، الأهـم الآن هـل هنـاك ضرورة للذهاب للمستشـفى؟! فنظـر جـاسر إليـه وهـو يسـعل: أهـذا وقـت المـزاح؟ قليـلًا مـن الكنافـة النابلسـية وسـأرجع كالأسـد.

كانـت هـذه الحادثـة درسًـا عمليًا لنسـيم وجـاسر، جعلهما يتخـذان جميع الاحتياطـات الوقائيـة أثنـاء صناعـة «أم العبـد»، فلـم يعمـلا بعدهـا دون كمامـات واقيـة ومـراوح لتحريـك الهـواء ودفعـه إلى الخـارج، لكـن القـرار الأهـم الـذي اتخـذاه: عـدم عمـل أحدهـما منفـردًا كـما فعـل جـاسر الذي ظـنّ بأنـه يخلـط المـاء بالـشراب بكميـات كبـيرة، فـكادت الرائحـة الناتجة مـن التفاعـل أن تقتلـه، ورغـم الحادثـة لم تتوقـف وتـيرة التصنيـع وإنتـاج «أم العبـد» اسـتعدادًا للأعـمال القادمـة، يحركهـم في ذلـك الـروح الجديدة التـي يرونهـا في وجـه معاذ.

لم أكن حينها أدري أن المخازن التي كلفني خليل بالسـؤال عنها لاسـتئجارها قـد أصبحـت في أيدينـا ويراهـا من نافـذة شـقتنا في رفيديا: أخـي أبو أيمن، هـذه المخازن البعيدة عن السـكان يجب أن نسـتأجرها!

كان اختيـاره صحيحًـا، فأصبـح يراقـب كل شيء حـول المخـازن الثلاثـة المفتوحـة عـلى بعضهـا البعـض، فلـما زودتـه بمنظـار والـدي ذي العـين الواحـدة، غـدت أصغـر حركـة يعلمهـا، يلتقطهـا، يدرسـها، فأصبـح حـارس نسـيم وجـاسر مـن بعـد اللـه -عـز وجـل-، الأمـر الـذي كان يفاجـئ معاذ وأخويـه لـدى زيـارة المخـازن، فيتعجبـون من دقـة ملاحظته ولم يـدروا أنه ليـس بعيـدًا عنهـم، كنت أوصلـه إلى أماكن عدة قبل أن يطلـب مني إنزاله في المـكان الحقيقـي الـذي يريـده، فلا ينبغـي أن أعلم شـيئًا لا يخص عملي وحـده المقـام بالقـرب مـن منـزل الشـيخ يوسـف السركجـي، وكأنـه تعمـد ذلـك حتـى لا أفكـر بالشـيخ! لكننـي فكـرت وخاصة بعـد فترة مـن العمل عندمـا طلـب منـي خليـل القيـام بمهمـة مختلفـة وغريبـة: نريـد مجاهـدًا ذكيًـا وصلبًـا لمرافقـة أحـد الإخـوة المسـتهدفين مـن جانـب العدو!

هـل يمكنـك توفـير ذلـك بسرعـة؟ فأجبت: مـن حيث المبـدأ نعم، أسـتطيع ذلـك، لكننـي بحاجـة إلى بعـض المعلومـات عـن الشـخصية، نظـام حياتها، طولهـا، فضحـك خليـل مسـتفسرًا: ولمـاذا تسـأل عـن الطول؟

-سـألني ومـا زالـت الضحكـة تـلازم وجهـه وقـد ظننـت بـأن السـبب عدم درايتـه: لأنـه لا ينبغـي أن يكـون المحـروس أطـول مـن الحـارس، وهـذه بديهيـة ينبغـي توفرهـا بالمرافـق، فهـزَّ رأسـه: معلومـة صحيحـة منطقيًـا، ومـع ذلـك ليسـت واجبـة في حالتنـا! وهنـا جـاء دوري بالضحـك: إذن شـخصيتنا قصـيرة جـدًا ولـن نغلـب معهـا.

-عـلى كل حـال -قـال خليـل- نريـد مـن الأخ الحراسـة من بعيـد والتدخل في حـال محاولـة اختطـاف الشـخصية مـن جانـب قـوات العـدو الخاصـة، فقلـت: هـذه مهمـة صعبـة يلزمهـا أكـثر مـن مجاهد.

-لكنها ليست مستحيلة وبالمناسبة هل في رأسك شخص محدد؟

فأجبـت: في الوقـت الراهـن، لا يوجـد أنسـب مـن مهنـد الطاهـر، فهـو ذكي وشـجاع يتحكـم بحركتـه اليوميـة، لكـن.. يجـب أن أدربـه جيـدًا عـلى اسـتخدام المسـدس.

عرضـت بعدهـا الأمـر عـلى مهند فوافـق دون تـردد، ولما طلبـت من خليل في موعـد آخـر توفـير المسـدس للبـدء بالتدريب المكثـف، أخـبرني بالعدول عـن الفكـرة مـن أساسـها: لقد أعدنـا دراسـة الأمـر مجـددًا، فوجدناها غير فعالـة آخذيـن بعـين الاعتبـار ما أخبرتنـا به وأمـور أخرى.

-طبعًـا.. -قـال مهنـد عندمـا أخبرتـه بإلغاء المهمـة وهو يضحـك- ومن أين سـنجد حارسًـا يصل حتى إلى كتف الشـيخ يوسـف؟ أعترف حينها بأن الأمر

فاتنـي ولم يفـت رجـل التنظيـم مهنـد، فعقب على اسـتغرابي: لا تسـتغرب، جميعنـا نعلـم بأن الشـيخ مطلـوب للعدو الصهيـوني ولا يسـتطيع الخروج مـن منطقـة «أ» كـما نعلـم أيضًا أنـه أطول إنسـان في المدينة ومـا حولها.



عشاق الندى

كان عـشرات الجنـد المدججـين بالسـلاح، يمشـطون الجبـل، يتنقلـون بـين الأشـجار، يعتلـون السناسـل فتنهـار تحـت أقدامهـم، ترعبهم طيور الشـنار التـي تطـير فجـأة محدثـة صوتًـا مفزعًـا فتسـقط قلوبهـم بـين أقدامهـم، يبحثـون عـن عـدو لا يرونـه، يشـعرون به يراقبهـم، يعد أنفاسـهم، يتمنون في قـرارة أنفسـهم أن تنتهـي المهمـة دون غالـب أو مغلوب، لقـد ابتلعتهم المسـاحات الشاسـعة ولم يمشـطوا بعـد ربـع الجبـال المطلوبـة، يخاطبهـم قائـد الحملـة عـبر جهـاز اللاسـلكي: لا تبتعـدوا عـن بعضكـم البعـض، أبقوا أعينكـم مفتوحـة، فتشـوا كل شيء، لا نريـد اليـوم خسـائر، لا تكشـفوا أنفسـكم للعـدو. فـيرد عليـه جنـدي: اسـمعوا هـذا الأحمق وأيـن هو هذا العـدو الـذي يحذرنـا منه؟؟

لم ينـه عبارتـه حتـى شـاهد الرعـب عـلى حقيقتـه وغـزال يقفز مـن فوقه، يثـب في الهـواء، مخترقًـا الجنـود، فتفجـر التوتـر بالرصاص وإصبـع الجندي يضغـط عـلى الزنـاد، طلقـات أثـارت بقيـة الجنـود، حرقـت مـا تبقـى مـن أعصابهـم، فبـدأ بعضهـم بإطـلاق النـار عـلى الأشـجار والأحجـار والسـماء مصحوبـة بالصراخ.

لقـد أبلغهـم قائـد الحملـة قبـل الانطـلاق: هـذه ليسـت مهمـة اعتقـال اعتياديـة، فهـؤلاء نـوع آخـر مـن المقاتلين، قـرر أن يحاربنـا بإرادتـه، لذلك

لا تنتظـروا منهـم الاستسـلام لأنهـم لا يفهمـون معنى هذه الكلمة، فسـأله أحـد الجنـود مـن الوحـدات المختـارة: تشـعرني بأنـك تتحدث عـن المارينز أو «سـيرت ميتـكال»؟

فأجـاب: لا هـذا ولا ذاك، شـخص مـدني يقاتـل حتـى آخـر طلقة من سـلاح جـده القديـم ولا يستسـلم، يجـب أن تحـذر منـه، لأنـه لـن يسـمح لـك بالوصـول إليـه حتـى لـو قاتـل بيديه.

فضحـك الجنـود سـاخرين قائـلًا أحدهم: أصبحـت أتمنى لقاء هـذا المقاتل الخـارق، فضحـك الضابـط على ضحكهم حتى لا يحطـم معنوياتهم وداخله يسـخر مـن سـخريتهم وقد عـاد بذاكرتـه القريبة قبـل ثلاثة أعـوام إلى واد القـاضي في مدينـة الخليـل، عندمـا حـاصر وعـشرات الجنـد بنايـة يتحصـن فيهـا ثلاثـة مـن رجـال كتائب القسـام، يـصرخ عليهم عبر مكـبرات الصوت: إيـاد أبـو حديـد، عايـد الأطـرش، مـروان أبـو رميلـة، سـلموا أنفسـكم، وإلا هدمنـا البنايـة عـلى رؤوسـكم..فجاءه الـرد بالرصـاص، ولمـا حاولـت إحدى شـخصيات المدينـة إيصـال تهديـد العدو بصـورة مبـاشرة، أخـبروه بالعبارة التـي أصبحـت قانـون المجاهديـن منـذ زمـن، حتـى يقولهـا للضابـط: أيهـا الكلـب، رجال القسـام لا يستسـلمون..

فاسـتمرت المعركـة ثلاثـة أيـام بلياليهـا، اسـتخدمت فيهـا جميـع الأسـلحة والصواريـخ، ولمـا تأكـد العـدو في اليـوم الأخـير من اسـتحالة بقائهـم أحياء، تقدمـت جرافـة ضخمـة لهـدم مـا تبقـى مـن البنايـة، فخـرج المـوت مـن تحـت الأنقـاض؛ ليقتـل السـائق برصـاص المجاهـد إيـاد أبـو حديـد الـذي استشـهد فيـما بعـد خنقًـا مـع أخويه تحـت الأنقـاض، وهنا تذكـر الضابط بـأسى فقـدان بعـض جنـوده في تلـك الملحمة التـي أحرجت كبرياء جيشـه.

أغلـق معاويـة جفنيـه، لم يطبقهـما تمامًـا، كان يكفيـه القليـل مـن الرؤيـة وكثـير مـن السـكون، المـوت المصطنـع، الاتحـاد مـع الأعشـاب الخـضراء، وزوج مـن الحـمام الـبري، يقـف بالقـرب مـن رأسـه، يحمحـم موسـيقاه الصباحيـة، يغـازل الطبيعـة النديـة، فيقسـم معاويـة في صـدره أن يكـف عـن اصطيـاد الحـمام أسـبوعًا -بـل أسـبوعين- كاتمًا صـوت أنفاسـه حتى لا ينفضـان مـن حولـه فيكشـفان مكانـه ويحرضـان أسراب الطيـور المختلفـة التـي التجـأت إلى الـوادي عـلى المغـادرة كان ممـددًا عـلى ظهـره، خطـة صغـير الشـنار الـذي ينقلـب عـلى ظهره حـال الخطر فيبـدو للعـدو حجرًا، ومعاويـة وإخوانـه الثلاثـة المنتـشرون في المـكان، تماثلـوا مـع صغار الشـنار وهـم ممـددون بـين الأعشـاب الكثيفـة، وبنادقهـم بـين أيديهـم، يؤنـب توفيـق نفسـه وهـو يـذوب برائحـة الزعـتر النفـاذة صباحًا: عـشرون طلقة فقـط؟ أضعنـا رصاصـك عـلى التدريـب والصيـد؟

يخاطـب البندقيـة الإنجليزيـة الممددة إلى جانبه لحجمهـا الطويل -ماذا لو دارت معركـة-؟ ثـم تـدارك نفسـه: لا لا، ليـس هذه المرة، لـن أموت هكذا، سـألقى العـدو كـما يحـب اللـه ورسـوله -وكأنـه يسـمع ضجيـج المعركـة الدائـرة مـا بين صدر يوسـف ودمعه- يـارب.. كنت أتمناهـا في جبال قريتي فعدلـت، فارزقنـي الشـهادة في المـكان الـذي أحـب.. يـارب، يـارب.. لكـن بشـار كان في معركـة مـن نـوع آخـر، والاحمـرار ينتـشر عـلى جلـده: لـن أحـكك.. سـأصمد، لـن تهزمنـي عشـبة قارصة.

كان نصيـب بشـار قارصًـا، مجموعـة مـن الأعشـاب التـي أخفتـه تحتهـا، أخـذت بلسـعه، ضاحكـة عـلى سـكونه وجلـده الحسـاس، فصـبر عـلى ألمه متوعـدًا إياهـا.

كان المجاهـدون الأربعة الذين كشـفوا تحرك القـوات باتجاه الجبال، الأكثر خـبرة مـن العـدو في كيفيـة التعامـل مع الأمـر، فاختـاروا أسـفل الجبل لأن الجنـود لا يختـارون السـير فيـه، حتى لا يكونوا فريسـة سـهلة للقنص، غير أن الدافـع الأبـرز لتمركزهـم هـذا، كان في كشـف حركة العدو الـذي اختار وقـت الصبـاح الباكـر لتحركـه، ومـا درى أن الرجـال الذين يبحـث عنهم لا يـرون الصبابـة إلا في نـدى الصبـاح، قطراته التي تسـيل عـلى العنب والتين والزعـرور فتجعلـه جنـة الصيـف، فيذوب في فمها كالسـحر، تعشـق رائحة فلسـطين، زعـتر وزيتـون، تفـاح ورمـان، خـوخ وبرتقـال، وكيـف لفـدائي أن يمـوت في الوطـن حبًـا دون أن يقبله مـع الندى؟



"يتكور على نفسه خائفًا"

لم يقتنع خليل بحجته، عاتب نفسه، اتهمها بالأنانية: لماذا لم أصر على موقفي؟ دائمًا أستطيع إقناعه برأيي، إلا في هذا الأمر، لا لا، لقد أردت ذلك، نعم، لو لم أكن أحب أن ينتهي النقاش على ما انتهى إليه، لأصريت وصممت وإن لزم الأمر أمرته بذلك فأطاع، لكنني -غفر الله لي- مدني، مدلل، لم أعتد النوم على الحصير.

أراح خليل الغطاء الخفيف عن جسده، لم يستطع النوم، فهمس: شيخ محمود؟ محمود؟

كان محمود أبو هنود في ضيافة خليل، ينام في زاوية الصالة، فنهض بسرعة ممسكًا مسدسه فسارع خليل لتهدئته: على هونك، لا يوجد شيء، أردت فقط أن...، تلعثم بكلامه لم يدر ما يقول، فتدارك محمود الموقف: لا بأس يا أخي لعله خير، ثم نظر إلى ساعته: بارك الله فيك، أيقظتني قبل الموعد بقليل، فقال خليل: لكنك لم تنم.. فابتسم لحديثه: يبدو أن أحدًا غيري لم ينم، لقد أخذت قسطي من النوم، وجاء وقت قيام الليل، ولكن.. هل هناك ما يقلقك فأيقظتني؟ هل تذكرت شيئًا مهمًا يخص المشروع؟

تنهد خليل أسفًا: اسمع؟ لم أنم دقيقة واحدة وأنا أراك تنام على غطاء رقيق، لقد تيبس جسدي عوضًا عنك، رغم أني أنعم بفرشة. قاطعه

محمـود ضاحـكًا بصـوت منخفـض: لقـد أخبرتـك أننـي معتـاد عـلى النـوم هكـذا، عـلى الـتراب، على الحجـارة، على الحصـير...! فردَّ عليـه خليل بحزم: هـذا ليـس عنـدي، سـتنام مـكاني وإلا أقسـمت أن أنـام عـلى الأرض!

- الأمر بسيط، أنت فعلًا تنام على الأرض.

فضحـك خليـل مغتاظًـا: أقصـد مـن غير فـراش، هكـذا، على البـلاط، وتمدد إلى جانبـه ثـم نهـض يـود الحلفـان مـرة أخـرى، فأوقفـه محمـود جـادًا: لا تقسـم، أنـا أتعمـد ذلك لسـبب! فسـأله خليـل مازحًـا: حتى تثبـت نظرية الخشـونة لـدى الفـلاح أمـام نعومتنـا أهـل المدن!

فعـاود محمـود الضحـك: لـو كان أهـل الريـف مثلـك، لتحـررت فلسـطين منـذ زمن!

- ومع ذلك –قال خليل- ستنام مكاني! فرد عليه: أنت بذلك تفسدني.

- معـاذ اللـه، أريـد راحتك.. راحتي بقيام الليل فـإن نمت على الفراش اعتاد جسـدي عـلى الراحـة، أمـا عـلى الحصـير؟؟؟ أكمـل خليـل: تضطـر للنهوض مـن بعـد أن يتيبس جسـدك فـلا يفوتك القيـام، ترى! هل سـيصطفيك الله –عـز وجل- شـهيدًا قبلي؟

- فأجـاب محمـود: الـشيء الوحيـد الذي أتمنـاه، فتفاجأ خليل: يـا رجل قل أمنيـة غـير ذلـك، فقـال محمـود: لم تدعنـي أكمـل الأمنيـة بـأن نلقـى الله سـويًا، فابتسـم خليـل، ضحـك وجهـه: أسـأل اللـه ذلـك ولكـن.. إلى حينهـا وقبـل أن نقيـم الليـل بوقتـك، ثـم نظـر خليـل إلى سـاعته - ثـلاث سـاعات قبـل أذان الفجـر وسـاعتان عـلى وقتي-، سـتحدثني عن قصة المسـتوطن!!

- رفـع محمـود حاجبيـه كالعـادة: فعلها الأشـقياء سـيرون...! أوقفـه خليل:

لا تكمـل، انزلـق لسـان بشـار فالتقطـت الأمـر وعليـك أن تبسـط حكايـة المسـتوطن وأيضًـا المسـدس، الآن! فاسـتنكر محمـود: الآن!! وقيـام الليـل؟ فأجابـه: ألم تسـمع قـول اللـه -عـز وجـل-: «ويذكـرون اللـه قيامًـا وقعودًا وعـلى جنوبهـم»، وسـيرة الجهـاد والمجاهدين العاملين في سـبيل اللـه، أيضًا ذكـر اللـه -عـز وجـل- أليـس كذلك يـا فضيلة الشـيخ؟

وقـف محمـود عـلى قدميـه متجهًـا إلى أحـد الشـبابيك، محـاولًا النظـر مـن فتحـات «الأباجـور» المغلقـة باتجـاه نوافـذ المستشـفى: لم أعـرف أنك أصبحـت مفـسرًا!

فقـال خليـل: ليـس بوجـودك، لكننـي متشـوق لسـماع مـا تخفـي مـا دام تلامذتـك يعرفـون، ثـم دعـك مـن المشـفى، فهـذه غـرف المرضى وأشـك أن أخـاك الممـرض سـيجد وقتًـا أو ضرورة للنظـر خلـف الشـبابيك.

- فقـال محمـود: لا بـأس، يعزينـي مجـرد الشـعور بوجـوده خلـف تلـك النوافـذ.

- إذا أردت -مازحه خليل- جعلنا «أبا أيمن» يرتب لك موعدًا معه!؟

- لم يجـب محمـود المبتسـم بطبعـه فتسـلل في الظـلام إلى المغسـلة، توضـأ وعـاد إلى خليـل بعـد أن تنـاول حبـة الـدواء، التي نـسي تناولها قبـل النوم، فسـأله خليـل: ألا تسـتطيع التوقف عن تنـاول الدواء؟ فلـكل دواء أعراضه الجانبية.

- كنـت أتمنـى ذلـك، غـير أني لا أسـتطيع، فمضـار الكـف عـن تناولـه أكـبر بكثـير مـن مشـكلة الأعـراض، فسـأله خليل: لمـاذا لم أتعـرف عليـك حينها؟ كنـا قـد اختصرنـا الوقـت وبدأنـا العمل عـام 1988.

- أين ستتعرف علي، في المستشفى أم على ظهر الحمار؟

- كنت أقصد مستشفى الاتحاد الذي كنت أرتاده باستمرار لقربه النسبي من حارتنا، ولعلني زرتك حينها، أما الحمار -قالها ضاحكًا- ما زلت أجهل كيفية اعتلائه ولكن ماعلاقته...! قاطعه محمود الذي استيقظ جيدًا وجلس متربعًا أمام خليل: أعلم أنك رجل التفاصيل وتريد أن تعوض وحدتك باستنزافي، ولكن حسبي أني سأؤجر بالتسرية عنك، أما الحمار فكان رفيقي يومها وأنا عائد من حراثة أرضنا في الجبال عندما جمعني القدر بمواجهة حامية مع قوات الاحتلال على أطراف القرية، فنزلت عن صهوة حماري –قالها محمود وهو يلوح بيده- والتحمت مع الجنود بالحجارة، وما بين كر وفر والعدو عاجز عن اختراق دفاعاتنا الطبيعية من أشجار التين والزيتون والحجارة الكبيرة في الشارع، ونحن ندفعه إلى الخلف، بدأ بإطلاق النار الحي مباشرة باتجاهنا فأصبت في بطني، إصابة خطرة أقعدتني في المشفى عدة شهور!

- يا إلهي! وهل كانت فلسطين حينها ستفقد محمود أبو هنود؟

- يا أخي اتق الله، سأنام إن بقيت تحرجني، وهل فعلت نصف الذي قمت به أنت؟

-صمت خليل وكأنه وجد أمرًا يفقده منذ زمن: انظر تقديرات المولى –عز وجل- ففي علم الأسباب، كان يفترض أن نكون تحت التراب منذ وقت طويل ونحن نطارد المحتل بالحجارة فيواجهنا بالرصاص الحي، نطلب الشهادة فتأبانا، ثم تشاء الأقدار أن نجتمع اليوم لأمر لو كنا نعلمه في حينها...! أوقفه محمود: لا تكمل، فلو عادت بي الأيام إلى ضرب الحجارة لظللت أطلب الشهادة حتى أنالها، كما أطلبها اليوم، وتأكد أن

الله سيهيئ لهذا الشعب المظلوم رجالًا أفضل منا بكثير، لذلك يجب أن أكون في أول عملية استشهادية.

- انتبه خليل إلى العبارة الأخيرة وكأنه كان في عالم آخر: ماذا تقول؟ ألم ننه الأمر هذا منذ مدة؟ عندما يحين دورنا سنتقدم معًا ولكن لا تحلم قبلها بغير ذلك، والآن قل لي ما حاجتك للدواء بعد هذه السنين؟ فأجاب محمود: لقد أعطبت الرصاصة أمورًا في بطني ستظل بحاجة إلى دواء، ولكنها ولله الحمد، لا تستطيع إعاقتي عن أداء واجبي، ثم قل لي: كم كان عمرك يوم إصابتي؟

- فضحك خليل: العمر الذي يؤهلني لمشاركتك بالمسدس.

- أتدري أين المسدس الآن؟ صادرته أجهزة أمن السلطة الفلسطينية لدى اعتقالي بداية دخولها إلى نابلس، لقد احتفظت به ثمانية أعوام، شارك بأمور كثيرة قبل الإبعاد وبعده، صادروه دون خجل ولكن!!

- ابتسم محمود لم يسألوا عن مصدره؟ أتدري لماذا؟

- حرك خليل نفسه متحفزًا: لا، وأريد أن أعرف القصة من البداية.

- ابتسم محمود: كنت أصطحب أشبال المسجد الذين كان بعضهم في عمرك مطلع ثمانية وثمانين، للعب كرة القدم في المدرسة الثانوية ما بين قريتنا وقرية ياصيد المحاذية، عندما شاهدنا قوات الاحتلال تطارد مجموعة من المستوطنين...! قاطعه خليل: تقصد الشباب وليس المستوطنين؟! بل عتاة المستوطنين الذين لا يكتفون بالجرائم المنظمة التي ترتكبها دولتهم بحق شعبنا، بل يتجاوزون ذلك بأفعال لا يستطيع الجيش توفير الحماية لها.

- مثل ماذا؟ سأل خليل، فأشار له محمود بيده أن يصبر: مثل اقتحام قرية سبسطية التاريخية دون التنسيق مع جيش الاحتلال الأمر الذي سيعرض حياتهم للخطر حال اكتشافهم من جانب الأهالي وبواسل الانتفاضة، لذلك، لاحقهم الجيش لإعادتهم من حيث أتوا فرفضوا ذلك وحصلت المطاردة التي رأيناها، فاتخذت قرارًا بإعادة الأشبال إلى القرية.

- توقف محمود عن السرد فجحظت عينا خليل: ها.. وأين قصتنا من ذلك؟ فأكمل محمود: عدت بعدها لوحدي.

- ضحك خليل: هذا هو الكلام الصحيح، فقال محمود: لماذا بصلتك محروقة؟

- لا أصبر عند حكايات المجاهدين.

تفحصت المكان الواسع جيدًا، أريد أن أتأكد من أمر لمحته لدى اتخاذ قرار العودة للقرية، وأثناء بحثي الحذر بين أشجار الزيتون رأيته جالسًا على تلة ترابية صغيرة، يتكور على نفسه خائفًا وبيده المسدس، مستوطن مغتصب بلحمه ودمه.

- والجيش؟! فأجاب محمود: لم يكن موجودًا، غادر الجنود المنطقة، ففكرت ماذا أفعل، هل أضرب عليه حجرًا كبيرًا؟ لا، قد لا أصيبه فيقتلني، إذن؟ سأحضر عصا وأضربه على رأسه فيغمى عليه، لكنه قد يذهب أثناء بحثي عن العصا فتضيع فرصته....!

فأكمل خليل مقاطعًا: قتله. فرد عليه: بل الحصول على مسدسه وهو الأهم لدي حينها، لذلك وبعد حوار سريع مع نفسي اتخذت قرار الفرصة التي لا تتكرر وتوكلت على الله مستحضرًا نية الشهادة حال

الفشل، فتقدمت متسللًا من خلفه وعزائم الكون أشعرها تجري في جسدي، تحولت لحظتها إلى شعب بأسره يأخذ حقه من عدوه، قفزت بكل ثقلي وقوتي على ظهره، فتدحرج عدة مرات كالكرة إلى الأمام، وقبل أن يدرك ما جرى له، جثمت فوقه، ثبَّته بحركة رياضية غارسًا وجهه في التراب حتى لا يراني، والمفاجأة أنه استسلم لتهديدي بقتله إذا لم يبق هادئًا.

- هل استسلم بهذه البساطة ومعه مسدس؟ سأل خليل فأجابه: المسدس طار من بين يديه من قوة الضربة، لكن ما أدهشني عدم مقاومته لمجرد تهديدي له، فقال خليل: وهل كان يفهم اللغة العربية؟

-هددته بالعربية وبعض الكلمات العبرية التي أحفظها وأظنه قد اعتقد بوجود سلاح معي..

- ومسدسه؟ سأل خليل.

التقطته بسرعة واكتشفت بأنه دون مشط للرصاص، لم يهمني ذلك لأنني شعرت بامتلاكي دبابة، أما المستوطن فأخذ يرجوني بعدم قتله فوعدته بذلك شريطة أن يبقى دون حركة، وقد أوهمته بامتلاكي سلاحًا وبحركة سريعة أجلسته ووجهه للأمام وهو يرتجف من الجبن، وانسحبت دون أن يشعر بذلك...!

قاطعه خليل: لحظة لحظة لم تقتله.. لم تفجر رأسه!

لم يكن ذلك ممكنًا لأنني سأُكشَف، فبعض الناس رآني وأنا ذاهب لتلك المنطقة ولم أكن حينها مطاردًا، ثم كفاني حينها المسدس، والأهم أنني طرت إلى القرية محتضنًا «الفرد العراقي»، سعة 14 طلقة، واستغربت

مـن وجـوده مـع هـذا المسـتوطن، وفي المسـاء بعـد ثـلاث سـاعات مـن مغـادرتي المكان!

- اقتحم جيش العدو القرية بحثًا عن السلاح -قال خليل-

- أبـدًا، لم يسـأل أحـد عن المسـدس حتى اليـوم لأنه لم يبلغ عنـه، بل عدت إلى المـكان مـرة أخـرى، لم أكـن في حينهـا أراعـي القواعـد الأمنيـة فوجـدت المسـتوطن عـلى حالـه لم يتحـرك شـبرًا واحدًا، فأكمـل خليل: فقتلتـه، أليس كذلك؟

ضحـك محمـود: لم أقتلـه، تركته مـرة ثانية ولم أعد ثم جـاءت بعدها قوات الاحتـلال وعثرت عليه.

- لقد أخبرتك قبل قليل، لو تعرفت عليك حينها لقتلته عنك.

لا بـأس، لم يفـت الخـير فالقادم أعظـم والمجاهدون ينتظـرون على أحر من الجمـر، عـلى ألا يطول التجهيز.

- الأمر مرهون بتوفيق الله أولًا ثم نجاح مهمة «أبو أيمن».

- هل أخبرته بها، أقصد هل سيستطيع عليها؟

- أدعـو اللـه ذلـك، لقـد نجحـت مجموعتـه بإنجـاح كل المهـمات الموكلـة لهـا حتـى اللحظـة وثقتـي به وإخوانـه عاليـة، وغـدًا، أقصد اليوم سـأكلفه بالمهمة.

-والدائرة الثالثة، المتفجرات، هل أنت متأكد من إمكاناتهم؟!

ابتسـم خليـل: كثقتـي من أنـك محمود أبو هنود، لكـن الأهم الآن موقوف على مهمـة الدائرة التنفيذية!

الباحث والخريطة

العاشر من تموز، قبل عشرين يومًا!

وصلت مدينة رام الله- البيرة، سأظل أجهل حدودهما الجغرافية، نزلت في دوار المنارة، وما زال نعاس الليل وإرهاقه يسكن في عيني، لعله الإرهاق العصبي، التفكير، تحريك الدماغ، لم أستطع إغماض جفني، ليس لمبدأ نومي في غرفة سجن استخدمناها لراحتنا، وإن كان الأمر مزعجًا حد الجنون أحيانًا، دفعني في أوقات الصفاء الذهني لصفع عقلي: ماذا تفعل في هذا المكان؟ فأكثر الأسرى المحررين يرون غباء من يمتهن صنعة السجان، إنما لثقل المهمة وخصوصيتها جعلتني كلمات خليل التي حملتها معي إلى الدوام الليلي أمس، طيرًا يحلق في السماء فرحًا، فهذا ما انتظرته، حلمت به وتمنيته: لقد انطلق مشروع العمل الأصعب والأمر متوقف على مهمتك.

لم أشأ لحظتها كشف أسرار الأمس حتى يرى البدائل ولعلني تذكرت عهدي مع مهند فعدلت، لا أدري بالضبط، غير أني رأيت الإصرار واضحًا على وجه خليل، كلامه، استماتته لإنجاح الأمر هناك لا غير، فعزمت على عزمه وتوكلت على الله.

- سرت قليلًا، توقفت ثم واصلت التحرك باتجاه موقف السيارات المسافرة إلى القدس، وهناك رأيتني أتجه إلى المكتبة، لم أفكر قبلها بالأمر، كانت

بالقـرب مـن محطـة السـيارات، صحيح بأني أعشـق رائحة الكتب، تسـكرني طقطقـة أوراقهـا، تسـحرني عـبرات المنفلوطـي، أول كتـاب أدبي يـأسرني في عمـر السادسـة عـشر، وأنـا في معتقل النقب، تشـدني الروايـات إلى زاويتها، لكننـي لم آت مـن أجـل ذلـك، فاتجهـت بعينـي إلى البائـع: مـن فضلـك أعطنـي دوسـية جامعيـة، أوراقًـا وقلـمًا، دفعـت النقـود وخرجـت متجهًـا إلى المحطـة، توقفـت قليـلًا: ليـس بعـد، قصدت بائـع النظارات الشمسـية، ابتعـت إحداهـا وطـرت بعدهـا راكبًـا إلى بـاب العامـود والالتفـاف الـذي أعرفـه زمـن التلـة الفرنسـية من خلـف حاجـز العدو.

-آه، سـأتنهدها كلـما رأيـت القـدس، مخلوطـة بخـوف يحـوم حـول قلبي، لـن أعتـاد المدينـة فتصبـح روتينًـا يجعلهـا كأي شيء، بل لا يمكـن اعتيادها، فهـي الجـمال الـذي يتجـدد كلـما وقعـت العـين عليـه، لم أمـارس طقـس الجلـوس قـرب السـور، فالمهمـة تعمـل في رأسي، تحثـه للارتجـال، لا وقـت لـدى فلسـطين التـي تنتظـرني، ترقبنـي، تحثنـي وتجلـس متربعة عـلى باب السـماء تدعـو لي: لا نملـك مجاهـدًا مقدسـيًا يسـتطيع إنجاز المهمة ولسـنا معنيـين بتوسـيع الدائـرة، الأمـر جميعـه منوط بـك! قالها خليل ثـم أردف: هـذه المهمـة، وجهتهـا وتفاصيلهـا تبقـى سرًا بينـي وبينـك، حتـى مهنـد لا يجـب أن يعـرف أي شيء في الوقـت الراهـن، فقلـت: لم أدخـل القـدس الغربيـة يومًـا ورغـم ذلـك سـأبذل قصـارى جهـدي لإنجـاز الأمر.

فأمسـكني خليـل مـن يدي متـوددًا: أخي أبـو أيمن! أتـدري...! فأوقفته عن الحديـث: لا تكمـل، سـأنجز المهمـة بعـون اللـه وتوفيقـه، فابتسـم خليـل، دب فيـه الحـماس: هـذا أبـو أيمـن الذي أعرفـه. وبينـما كنت أسـتنجد الله عونًـا ولم أهتـد بعـد لطريقـة الدخول إلى الشـطر الغربي المحتـل عام ثمانية

وأربعين، لمعت لدي فكرة فصعدت إلى سيارة نقل عمومية يقودها شاب عربي: أنا باحث في مركز الدراسات الفلسطينية، هل يمكنك إدخالي للقدس الغربية...! فقطع حديثي وهو يهم للسفر بركابه، معتذرًا لعدم قدرته ترك خط السير الذي يعمل به لكنه حل الأمر بسرعة وهو يخاطب من نافذته سائق أجرة آخر: يا حاج! خذ هذا الزبون، فنزلت من فوري متجهًا لسيارته الجديدة رجل كبير السن، لا أدري حينها مقياسي للأعمار فأنا لم أبلغ الثالثة والعشرين بعد، ومن المؤكد أنني رأيته عجوزًا في عمر الخمسين، ركبت إلى جانبه، فسار بي بعيدًا عن أزمة السير الدائمة في باب العامود، ثم توقف جانبًا: أين تريد السفر؟ سألني فأجبت راجيًا من الله إقناعه: أنا باحث في مركز الدراسات الفلسطينية أجري بحثًا عن القدس الغربية لأقارنها بمدينة نابلس القديمة، شعرت لحظتها أنني أخطأت بذكر اسم مدينتي، فقال السائق: جميل، هذا عمل جيد.

- لكنني لا أملك تصريحًا للدخول؟! فأجابني العجوز الذي أحببته رغم عبوسه الدائم: لا بأس، سنتغلب على ذلك، انزل الآن واجلس في الخلف.

كان يعلم تمامًا ما يفعل، ساعده مظهري السلمي الوديع وأنا حليق اللحية، على عيني نظارة تناسب شخصيتي المنتحلة لكن الأهم الزي الرسمي الذي ألبسه وكلام الباحثين، سأكتشف بعد دقيقة من جلوسي في الخلف، أن كل ذلك لم يكن الأهم لديه: دعنا نتفق على الأجرة، سآخذك ساعة أو ساعتين كما تريد.

- أصبحت أسعد إنسان في القدس، ترقص الفرحة في صدري والعزيمة ترتفع حد السماء: كم تريد على الساعة؟ فأجاب بكل ثقة وقد أغراه

ردائي الفخـم نسـبيًا: خمسـون دولارًا أمريكيًا، فتصنعـت المفاجأة: هذا كثير وأنـا مجـرد باحـث... ولو طلـب خمسـمائة دولار لأعطيته دون تـردد، لكن ينبغـي أن أسـاومه عمـلًا بأبسـط قواعـد التمويه في عملنـا المقاوم.

فقال حاسـمًا المسـاومة: سـتعطيني خمسـة وسـبعين دولارًا على السـاعتين، فهـززت رأسي كالمسـاوم الأبلـه موافقًـا على الصفقة: على بركـة الله، على أن تكـون دليـلي لـكل معـالم الشـطر الغـربي للمدينة فقـال: سـأفعل ما دمت تجلـس دون لفـت الانتبـاه حتى لا نقع في مشـكلة.

- ثـم سـافر بالسـيارة باتجـاه «بـاب الجديـد» أحـد أبـواب البلـدة القديمة المقابـل لشـارع يافـا، وهنـاك انعطـف يمينًـا مخترقًـا مـا كان يعـرف قبـل احتـلال الشـطر الشرقـي للمدينـة عـام 1967 بخـط وقـف إطـلاق النـار، وبذلـك أصبحنـا خلال ثـوان معـدودة في المنطقة اليهودية الصرفـة، الخالية مـن أهلهـا العـرب الأصليـين: هـذه بدايـة شـارع يافـا الأشـهر في القـدس الغربيـة –قـال سـائقي الدليـل- وهـذه البنايـة عـلى يمينـك مقـر البلديـة وهـذه...! سـيتحدث العجـوز كثـيرًا وسأسـمعه كثـيرًا، لكـن غضبـي وألمـي وحـزني سـينتفض كثـيرًا، سـيوجعني كل شيء وسـتقتلني الحقائـق اللعينـة، سـأبكي وأبـكي حكايـة يافـا التـي تشـتم رائحـة أزهـار برتقالها مـن القدس: شـارع يافـا!!! لـو جـاءت أمـم الأرض لـن تزحـزح حرفًـا مـن اسـمه.

فاجـأني العجـوز، سـكب وقـودًا عـلى نـاري فتركتـه يسـتطرد: لقـد حاولـوا تغيير اسـم شـارع غزة فلم يسـتطيعوا فعدلوا عن التفكير بشـارع يافا، كل شيء، هنـا مـا دون اليهـود «بيتكلـم عربي».

أضحكنـي في قمـة غضبـي فأعـادني إلى مسـار المهمـة، ولم أكـن متأكـدًا أني خرجـت عـن النـص بالثـورة التي بدأت تغـلي في دمي، فمهمتـي تحتاج إلى

خليط من الغضب والثورة ثم الغضب، وكيف لي ألا أغضب؟! وأنا أسير وسط أكبر حشد من المحتلين، أو للدقة أكثر، الساحة الآمنة للمحتلين، يمارسون سفالات الكون علينا، ليلًا ونهارًا، صيفًا وشتاءً، لا حرمة لشيء ما دمت فلسطينيًا، أفراحك تزعج الجندي في النقطة العسكرية فيطلق النار على أعمدة الكهرباء، لا يراك إنسانًا تستحق الحياة، لذا ينبغي أن تدفع ثمن خدمته العسكرية، تضرب الحجارة، تصرخ وترفع شارة النصر، سيعالجك برصاصه ولن يحاسبه أحد، لا لا نحن سنحاسبه ونحاسب «عظام بن غوريون في قبره».

بدأت الأماكن في شارع يافا تلفت انتباهي.. طريق بن يهودا المخصص للمشاة فقط، المطاعم والمقاهي المترامية على أطرافه..! تتوقف السيارة على تقاطع طرق رباعي: هذا المفترق الحيوي يؤدي إلى..!

يقول العجوز مخلصًا لمهمته، لكنني أدوّن أول مشهد برأسي موهمًا إياه أني أسجل كل كلامه: يا إلهي، عشرات المحتلين يعبرون التقاطع مرة واحدة، جيد!! ثم أنتبه إلى حديث السائق الذي بدأت أحبه: فندق الملك جورج، أكثر الفنادق عراقة وأقدمها في القدس فجرته العصابات الصهيونية عندما كان مقرًا للقوات البريطانية، ضحك العجوز ساخرًا: كان توزيع الأدوار مدروسًا بين العصابات، مناحيم بيغن وعصابته الأرغون تستهدف البريطانيين وبن غوريون وعصابته الهاغانا يستنكرون ذلك، ودائمًا الجميع متهم بمعاداة اليهود، لذلك -قال العجوز المثقف- عندما أنهت بريطانيا احتلالها لفلسطين سلمت أسلحتها الثقيلة لليهود حتى تنهي مهمتها التي بدأت أيام وعد بلفور –قاطعته بسرعة: ما هذا السوق يا عم؟!

فأجاب: هذا أكبر أسواق القدس قاطبة، سوق محني يهودا.

- كان على يسارنا ونحن متجهون غربًا، مكتظ عن بكرة أبيه بالمتسوقين فقلت: يشبه أسواقنا العربية باكتظاظه وضيق ممراته؟! فأجابني بأمر كنت أنتظره: ما تقوله صحيح، مع أنه عربي بالأصل ولكن مع فارق جوهري يمتاز به عن جميع أسواق اليهود، أتعرف ما هو؟!

أثارني سؤال العجوز ونحن نتجاوز السوق باتجاه محطة الباصات القديمة: الحقيقة أنني لا أعلم. فقال: هذا معقل لمؤيدي حزب الليكود المتطرف.

هززت رأسي وصدري يرحب بالمعلومة: هذا الذي زعيمهم يقول إنه قضى علينا؟

سنرى لاحقًا من سيقضي على الآخر وبعد مسافة قصيرة تجاوزنا محطة الباصات المركزية الجديدة وسائقي يسير ببطء حتى يمضي الوقت بسرعة دون أن تنقضي الأماكن وهذا ما أدركته لاحقًا ولم يزعجني في الحقيقة كثيرًا وخاصة عندما ذهب بي إلى أماكن لم أكن أحلم أن أراها وأنا الأسير السابق الذي يحظر عليه الدخول إلى أجمل أجزاء من وطنه الحبيب حتى لو أصبحت شرطيًا في سلطة أوسلو.

فالماضي الذي أحمله على كتفي لا يقنع أصغر ضابط مخابرات صهيوني أني ألقيته خلفي ومضيت ولكن لكل شيء نقطة ضعف، وأنا نجحت باستغلالها لدى الجميع حتى لأبناء حماس وأصبحت لا أتدخل بشيء، وها أنا أتجول في جوهرة وطني المحتل «القدس» وبدليل سياحي وضبّاط الشاباك يسكرون في مقراتهم وقد انطلت عليهم تحولاتي التي

بـدأت منـذ عامـين فأسـماني أبنـاء حماس بالمتسـاقط عـلى طريـق الدعوة.

-سـأجهل بعـد شـارع يافـا الاتجاهـات، لا يهـم، وسـيمضي السـائق بي إلى أماكـن خـارج نطـاق مهمتـي، أيضـا لا يهـم، لأننـي لا أسـتطيع لفـت انتباهـه بالطلـب منـه البقـاء في الأماكـن التـي تهمنـي، وعـليّ حينهـا أن اسـتمتع بالمشـاهد، هكـذا ظننـت فلـم أسـتطع، لأنـك سـتكون منـزوع الضمـير، الأخـلاق، الدين والإنسـانية إن لم تبك على صراخ الأطفال والنسـاء والشـيوخ في ديـر ياسـين، نعـم.. لقـد قـادني إلى هنـاك، فتـح الجـرح هناك، لـو كنـت أخطـط للمهمـة بالقلـم والورقـة لما خرجـت هكـذا.. صحيح أن في كل شـبر مـن بلـدي مجـزرة، دمها عـلى أيدي المحتلـين الصهاينـة اليهود، نعـم اليهـود.. هذا الـذي يقطر حقدًا يغصـب أرضي بغطـاء يهوديته، لكنها الذاكـرة الموجعـة في ديـر ياسـين، وكأن طفلـة تغـرق بدمهـا تسـتنجدني بعينيهـا بعـد أن فقـدت كلتـا يديهـا فـلا أسـتطيع نجدتهـا، هـي الزيتونـة التـي مـا زالـت تـسرق هنـاك، وشـجرة الكينيـاء والخـروب والتـين وأحجـار البيـوت العتيقـة، آه يـا جـدي، جـدتي.

- تنقل السـائق بي إلى أوجاع أخرى، عين كارم والمستشـفى الضخم السـاكن عـلى أعتابهـا «هداسـا» عـين كارم ثـم قريـة لفتـة وأماكـن كثيرة حتـى عاد بي إلى أحيـاء القـدس الغربيـة القديمـة وحـي القطمـون الـذي تـصرخ فيـه الفخامـة الفلسـطينية العريقـة، بيـوت كانـت بالأمس تشـع حداثـة واليوم تـئن مـن تخلـف سـاكنيها الغربـاء: وهنـا كانـت القنصليـة المصريـة -قـال سـائقي- لقـد كنـا نلعـب صغـارًا بجانبها وهنـا وهناك.

- فطلبـت منـه العـودة مجـددًا إلى شـارع يافـا: حتـى آخـذ صـورة وافيـة عـن الأماكـن التاريخيـة والجديدة، فاسـتجاب لي ولا أدري كيف وصلنا إلى

أماكـن حساسـة كبيـت رئيس دولة الاحتـلال ومقر الكنيسـت برلمان العدو وغيرهـا مـن المقـرات الغايـة في الأهميـة ودليـلي يشرح لي، فـما زلت أجهل جغرافيـا المدينـة وأنـا الـذي لم يخـرج مـن حدود شـمال الضفـة الغربية إلا قليـلًا وإلى بعـض أجـزاء وطني في بوسـطة الاعتقـال فقط.

أشـد مـا أعجبنـي في سـائقي وأدهشـتني في أحيان كثـيرة، عدم رؤيته شـيئًا مـا دون القـدس التـي يعرفهـا في طفولتـه ما قبـل النكبة عـام 1948، وكأنه لا يـرى سـوى ما تراه الذاكـرة النظيفة، فلا العمـران الحديث وكل الطوارئ عـلى القـدس التـي أحـب، تسـتطيع تشـويه لوحتـه الأجمل..أعاد جسـدي بعـد سـاعتين إلى بـاب العامـود وأبقـى روحـي معلقـة مـا بـين ديـر ياسـين وطفلتهـا والقطمون ومسـجدها.

قفلـت عائـدًا إلى نابلـس وكأني بسـمائها الثائرة مشرعة لأهل الله، تسـتقبل مـا شـعرت بـه يحيطنـي وأنـا هنـاك، بـكاء العابديـن، ضراعـة المسـتغيثين، نجـدة المستسـلمين، إعلان الضعف أمـام القوي فبدونه الأسـباب قاصرة، لم يكـن مهـمًا لنسـيم وجـاسر ومعاوية ورفاقـه أن يعرفـوا التفاصيل:

- ادعـوا اللـه أن يتمـم الأمـر الـذي نريـد، ألحـوا عليـه فنحـن نمتحـن في صدقنـا.

ومهنـد الـذي كلـما غبـت عـن ناظريـه تعاظمـت خشـيته، يحـث تلامـذة حفـظ القـرآن لديـه بأن يدعـو: اللهم وفّـق المخلصين، لكنّ محراب الشـيخ يوسـف الـذي اسـتنفره خليل على عجـل، كان يضج بالبـكاء في صلاة الظهر عـلى غـير العـادة في غير النـوازل والمصائـب، والناس من خلفـه يبكون على بكائـه الحـار: يا حـيّ يا قيوم برحمتك نسـتغيث فأغث عبـادك المجاهدين فإنهـم يقفـون عـلى بابـك بـلا إله إلا أنـت سـبحانك إني كنت مـن الظالمين.

أمـا ثلاثتهـم، خليـل ومحمـود ومعـاذ، فـكأني بـأبي بكـر وعمـر يحنـان على عيونهـم وقلوبهـم: هوّنـوا عليكم، هوّنـوا عليكم.

فقـد قـال سـيد الأنبيـاء محمـد أن اللـه رحيـم حيـي كريـم يسـتحي مـن عبـده أن يرفـع يديـه ثـم لا يضـع فيهـما خـيرًا.

- أدركـت فـور لقـائي بخليـل أن الحكايـة أكـبر مـما تخيلـت، كفـاني عناقـه الحـار لأدرك معنـى نجـاح المهمـة، وضعـت تفاصيـل البحـث والرصـد بـين يديـه فأخـرج القلـم والورقـة قائـلًا: سـيكون عملنـا مـن الآن فصاعـدًا على الخريطـة، لـن نتحـرك خطـوة دون الخريطـة وأيضًـا!!

- نظـر إلى عينـيّ مبتسـمًا وهـو ينقـر بالقلـم عـلى الورقـة - لـن يعـرف ما يـدور عـلى الورقـة قبـل تمزيقهـا أحـد غيرنـا، فقط أنـا وأنت.

- قـد نضطـر إلى إشراك مهنـد في مرحلـة معينـة مـن العمـل كـما فعلنـا في عمليـة التلـة الفرنسـية. - فأجابنـي: سـنتفق عـلى ذلـك في حينهـا ولكـن أكـرر أمـرًا سـألتزم بـه قبلـك، هـذا سرنـا فقـط، والآن اشرح عـلى الورقـة.

- قـد أضطـر لتكـرار الأمـر والعـودة مجـددًا للقـدس حتـى أتأكـد تمامًا من خياراتي.

- أولًا، سـنتحدث مـن الآن فصاعـدًا بالشـيفرة الكلاميـة فنسـمي كل شيء باسـم آخـر، وثانيًـا إن كنـت ترى ضرورة لذلـك فافعل وإلى حينهـا، أريد أن تفكـر بالتفاصيـل وتسـاعدني في وضع أنسـب تصـور للعملية.

وبعـد يومـين سـافرت مجـددًا إلى بـاب العمـود، وبينما كنت أهـمّ للصعود في سـيارة أجـرة منتحـلًا الشـخصية ذاتهـا تفاجـأت بسـائقي الأول يمـر مـن أمامـي فصعـدت معـه كاسرًا أبسـط القواعـد الأمنيـة بعـدم الرجـوع إليه،

على الرغم من اتخاذي في المرة الأولى والثانية قواعد السلامة الأمنية وأولها البصمات حيث اجتهدت بوضع منديل ورقي في يدي وأنا أفتح وأغلق باب السيارة، لكن الله سلّم فلم يترتب على ذلك أي أذى، فكل الناس أقربهم وأبعدهم، أحسنهم وأسوأهم خطر على العمل السري ينبغي الحذر منهم، وبجولتي الثانية اكتملت الصورة لديّ فكانت إشارة القائد خليل لدائرة محمود الاستشهادية ودائرة معاذ الهندسية للبدء بإخراج الخطة التي رسمت على الخريطة إلى حيز التنفيذ بعد التشاور معهما منفردين ومباركة الشيخ يوسف السركجي، مظلة العمل المقاوم بأسره.



فاصل وقح

المحتل قبيح، قذر سوقي بأصله، ليس بحاجة إلى أدلة تثبت ذلك، فمبدأ الإحلال والفرض والقرصنة والتغوّل واغتيال الواقع، والمستقبل وتزوير التاريخ وفرض الوقائع الظالمة، جميعها مفردات لجملة خارجة عن نصّ العدل والحق، نسميها الاحتلال، لذا!! فالقتل والجرح والأسر والسرقة والمصادرة للممتلكات، وإهانة الكبير وترهيب الصغير واغتصاب الحرائر وإجهاض الحوامل على الحواجز العسكرية: يوميات الفلسطيني، يراها يسمعها، يتنفسها ويشربها كل لحظة، يستنشقها مع الهواء المغبر برائحة المستوطنات التي إن يممت وجهك يمينًا أو يسارًا رأيتها هناك، ولكن!! صنعة الظلم التي يمتهنها محتل بلادي، تجعل منه حكاية غباء يبدأها بحماقة فتنتهي بصفعة على رقبته!

- كان الاستياء عظيمًا، صارخًا رغم الألم اليومي: المستوطنون الصهاينة في مدينة الخليل جنوب الضفة الغربية، يعلقون ملصقات على الجدران مرسوم عليها صورة خنزير مكتوب عليه اسم...! يصرخ مهند: توقف لا تكمل لا أريد أن أسمعها. فقلت محاولًا تهدئته: أنت رجل مجاهد، دارس للواقع والتاريخ... فقاطعني: أبو أيمن؟! أعرف ما ستقول، أدرك ذلك تمامًا، لكنني لا أستطيع سماعها مرة أخرى، لقد سمعتها في الراديو واهتزت روحي قبل جسدي.

- ابتسـمت في وجهـه وأنـا أضـع يدي على كتفـه ولم أتكلـم، خاطبته عيناي فابتسـم ثـم ضحـك منفعلًا: هل هـذا قريب؟!

- لا أدري عـمَّ تتحـدث؟! فنهـض مسرعًـا ينظر خلف البـاب كعادته ثم عاد بلهفـة: لا أريـدك أن تكشـف لي سرا ولكـن اصدقنـي القول، هل سـنمزقهم قريبًـا؟! - فأجبـت: في فمي ماء.

- فنهـض يعانقنـي ثـم سـجد على الأرض شـكرًا للـه فقلت له: أنـا لم أخبرك بشيء حتى تسـجد؟!

- فلحّـن ضحكتـه وكأنـه ليـس مهند ما قبـل دقائق، ثم اسـتأذنني للذهاب إلى اجتـماع طـارئ: الحركـة في كل مـكان تسـتعد لتنظيم مظاهـرات عارمة احتجاجًـا عـلى الصـور المسـيئة لنبينا محمـد -صلى الله عليه وسـلم-.

- ثـم تحشرجـت الكلـمات في صدره وقبـل أن يخرج قـال: لا تحرمني شرف الوجـود في المقدمـة، فنحن لم نخلـق لغير ذلك.

- كان الاسـتفزاز لمشـاعر المسـلمين مـن جانـب المحتلـين في الخليـل، مقيتًـا وبشـعًا، انتقـل كالنـار في الهشـيم إلى كل مـكان، فقـد أتقنـوا الاسـتفزاز: اسـم سـيّد البشريـة محمـد بـن عبـد اللـه مكتـوب عـلى جسـد الخنزيـر، فعـبّر الجميـع عـن غضبـه كل بطريقته، الطفـل بمقلاع سـيدنا داوود -عليه السـلام-، والعجـوز باللعنـات المحقّـة، والشـاب «بمولوتوفـه» والرجـال والنسـاء بالمظاهـرات، أمـا رجـال القسـام، فحكايـة أخـرى مختلفـة تمامًـا!!



القرعة

قبل ثمانية عشر يومًا!!

-وصل محمود إلى الجبال، كانت قدماه ثقيلتين كروحه المثقلة بصراع عنيف: سحق العدو، مقاومته، ردعه، تمزيقه! أوجب الفرائض على المظلومين، لكن ظفرًا من إصبع شاب من وطني خير من المحتلين، فكيف أفرّط بأرواح أحبتي، أشيعهم بيدي إلى الموت؟! الموت!! - يحاور محمود نفسه

- نلقاه كل ساعة في الطرقات، في أزقة المخيمات، في زنازين التحقيق والمعتقلات، الموت!!

-قرين الفلسطيني المطرود من بيته في حيفا، المذبوح في صبرا وشاتيلا، المغدور ساجدًا في الحرم الإبراهيمي، الموت!! ذلك القهر المرسوم على وجه أمي في مخيم الوحدات تتسول الطعام من وكالة الغوث، الموت!! لقيته ذات مرة -قالها وهو يضع يده على بطنه- لكنه عدل عني، كنت أطلبه كريمًا، واقفًا، مقاومًا، مجاهدًا وبيدي الحجر حتى لا يأخذني ذليلًا أو على فراش المرض أو برصاصة يتسلى بها الجندي على جسدي وأنا على شرفة بيتي.

- ألقى محمود التحية على معاوية أول المستقبلين له وما زال الأمر يعصف برأسه فسأله: ما هو الموت؟!

- فضحك معاوية: الشيخ محمود أبو الهنود يسألني عن الموت؟!

- قفزا معًا عن سنسلة تحد أحد البساتين الجبلية: أسألك بجد فلماذا لا تجب وكفى؟!

- فقال معاوية وهو يفكر متمتمًا ذلك بفمه: انقضاء الأجل، مفارقة الروح للجسد، الانتقال من دار الممر إلى دار المستقر.

أليس كذلك يا أستاذنا؟! فأوقفه محمود بيده: انتظر، أقصد الموت الاختياري.

- ها، فهمتك، ألم تنتهِ من ذلك في الزيارة السابقة؟! ومع ذلك -تقدم نحو محمود أكثر يتكلم بشيء من الحزم – الموت قادم لا محالة، بالحجر نموت، بالمظاهرة نموت، بالاشتباك المسلح نموت، فلماذا لا نختار الميتة التي نميت فيها عدونا؟ ثم من قال لك إننا سنموت؟! فابتسم محمود الذي طردت عزيمة صاحبه الحيرة والصراع الداخلي: نحن لا نموت، نميت عدونا ونلقى الله شهداء، أحياء عند ربنا نرزق ولكن -أمسك بقميص معاوية العسكري- هل ستشفع لي يوم القيامة؟!

- سأفعل بشرط واحد.

- تفضل بقوله قبل أن نصل الشباب.

- أن تجعلني أول الاستشهاديين.

- هذا ليس بيدي، فلا تحرجني مع إخوانك.

- إذن؟!

إذن ماذا، هل تراجعت عن الشفاعة؟ لا بأس فعندي ثلاثة آخرون،

وربما سألقى الله شهيدًا قبلكم الأربعة و...

- بالله عليك، تعرف أنني لا أقصد ذلك، لكنهم لم يتنازلوا لي حتى اللحظة، وأريد مساعدتك فربما تستطيع التأثير عليهم. - وفجأة سمعا صوتًا يخرج لهما من خلف شجرة تين كبيرة: يؤثر علينا بماذا؟! - فارتبك معاوية وهو يرى وجه يوسف يطل عليهما ومن خلفه بشار معلقًا: لهذا أصرّ على استقبال الشيخ لوحده.

- فجاء صوت توفيق من الأعلى وهو في بطن الشجرة المعمّرة وفمه مليء بالتين: حتى لو أحضره على كتفيه محمولًا من نابلس، فلا يحلم بما يفكر به فالأمر محسوم لديّ وانتهى. - فنظر الثلاثة إليه، جميعهم يرى في نفسه الأحقية الحصرية لتنفيذ العملية الأولى وما زالوا منذ اللقاء الأخير في نقاش دائم لم يحسم حتى اللحظة، فقال محمود منفعلًا بحماسة لا مثيل لها: دعونا نصل إلى موقعنا أولًا وسنحل الأمر بإذن الله.

-لقد علمت ذلك- يحدّث محمود نفسه.

-ستكون أصعب من العملية الاستشهادية ذاتها، لا، لن أتدخل في هذا الأمر، يا إلهي، لو كنا نملك العتاد العسكري المناسب لما لجأنا إلى القنابل البشرية.

- ثم نظر إلى يوسف: أليس كذلك؟!

- فتأخر قليلًا عن رفاقه ممسكًا بيد قائده: سأقول نعم على أي شيء تريده بشرط... أوقفه محمود: لا تكمل ودع شروطك جانبًا فما تريده ليس بيدي، يا الله أعني...! ورفع يديه إلى السماء، لكن يوسف لم يستسلم: لماذا تعقّد الأمور؟!

- يوسف! كان معاوية أذكى منك ولم يستطع إلى ذلك سبيلًا.

- أعلـم أعلـم، لذلـك ينبغـي أن يظـل آخرنـا حتـى يضمـن نجـاح العمـل، أليـس أذكانـا ودائمًـا ننتخبـه أمـيرًا لنـا في الجبـال؟!

- فضحـك محمـود بأعـلى صوتـه والبقيـة ترقـب مـا يحـدث، يحركهـا دافع مشـترك واحـد لا غـير، لم يعـد شيء في الدنيـا يشـغل بالهـم غـير الشـهادة، لا لا، فالشـهادة ثقافـة الفلسـطيني منـذ الـولادة، يرضعهـا مـع حليب أمه، لكنهـا ذروة الفدائيـة والتضحيـة والبسـالة «العمليـة الاستشـهادية».

تحـاور أسـود الجبـال فيـما بينهـم، فمنـذ اللحظـة التـي علمـوا بهـا أنهـم سـيهزون دولـة العـدو بأجسـادهم، أصبحـوا كـما وصفهم محمود فلاسـفة بحـق، ولكـنْ فلاسـفة، عمليـون يطبقـون أفكارهـم بأنفاسـهم عـلى أرض الواقـع، يقـول بشـار: هـل الشـهادة هـدف؟!

- فسـكت ثلاثتهـم لم يتوقعـوا السـؤال، وللدقة أكثر، لم يكـن من ثقافة ذاك الزمـن فظنـوا أن بشـار يصيـغ تـردّده الـذي لم يعلمـوه قبـل ذلـك بسـؤال، فتـدارك الأمـر فـورًا: انتظـروا قليـلًا، لا تذهبـوا بعيدًا فما زلـت أصر على أن أكـون أولكم فهـذا العدو!

- ظننـا شـيئًا آخـر؟! يعلـق توفيـق بسـؤال اسـتفزازي، فيعـاود بشـار شرح الأمـر: أعلـم أن السـؤال غريب وأي مظلـوم، فضلًا عن أن يكون فلسـطينيًا سيسـتهجنه، لكنـه يجـب أن يسـأل وينبغـي علينا نحن طلاب الشـهادة أن نجيـب عليه.

- مـا أعرفـه ويـدرك عقـلي -يقول يوسـف- أننـا لا نطلب المـوت لذاته وإلا أصبحنـا انتحاريـين، هدفنـا وضـع حـد لحياتنـا وهـذا حـرام وفـق المنطـق

الدينـي والدنيـوي ولكن!! -وهنا فلسـفة الأمر- نطلب المـوت حتى توهب الحيـاة لشـعبنا...! وفجـأة!! صفّـق الثلاثـة وهـم يصرخـون: اللـه، الله، من أيـن أتيـت بهـذا الكلام؟!

فاحمـرّ وجـه يوسـف وتـوردت وجنتـاه ثـم أصرّ عـلى منحـه الوقـت حتى ينهـي فكرتـه ومـا زال الثلاثـة يحرجونـه بمديحهـم الـذي لا يخلـو مـن الضحـك: دعـوني أكمـل دون مقاطعـة...!

قاطعـه معاويـة: هـا، عرفـت مـن أيـن جئـت بهـذا الـكلام الجميـل، مـن كتـاب الرسـائل للإمـام الشـهيد حسـن البنـا؟! فأجاب يوسـف: سـأقول لك ولكـن أريـد أن أسـألك سـؤالًا، من تعتقد أقـوى، دمك الذي سيسـفك قريبًا في سـبيل اللـه ثـم أرضـك وشـعبك، أم الكلام؟!

- قـام معاويـة مـن مكانـه متوجهـا نحـو يوسـف ممسـكًا إيـاه مـن وجهه ومحـركًا ذقنـه يمنة ويسرة: هل أنت يوسـف الشـولي أم شـخص آخر؟! فلم يسـبق لي أن التقيـت بهذا اللسـان الـذي يتحدث.

- ثـم حـاول مازحًـا أن يفتـح فمه، فسـارع بشـار للتدخل: مهـما كانت قوة الـكلام الـذي نتعلمـه مـن سـاداتنا العلـماء وقادتنـا الأفـذاذ، إلا أن الـدم والتضحيـة بالنفـس أبلـغ وأعظـم مـا يمكـن أن يحـدث للمـرء، لذلـك نـأتي بفخـر عـلى كلام الإمـام البنـا وسـيّد قطـب وعمـر المختـار ويحيـى عيـاش لأنهـا سـقيت وارتـوت بدمائهـم مـن أجـل الوطـن والفكـرة.

- وهنـا جـاء دور يوسـف للتصفيق والمديـح: أرأيتم؟ هذا مـا قصدته ولكن هنـاك إضافـة مهمـة تكمـل فهم الأمـر على أصوله: فـإن رحلنا عـن الحياة، رحلنـا شـهداء وتلـك الجائـزة الكـبرى التـي تقتضيهـا العدالـة السـماوية

وينبغـي أن تكـون عظيمـة لصاحبهـا كعظـم تضحيتـه...! فعقّـب توفيـق: أحسـنت، لذلـك لنـا نحـن الشـهداء، الفردوس الأعـلى من الجنـة وكل شيء حرمنـا منـه في الدنيـا، بـل وأكثر.

- ثـم ضرب بكفيـه عـلى جبينـه- مـا أسـخفني، وهـل يقـارن مـا عنـد اللـه بدنيـا البـشر؟! يكفيـك الحـور العـين! فتدخـل بشـار قائـلًا: وهنـا أحـد أسـباب سـؤالي الـذي أجـاب يوسـف عـلى أجـزاء مهمـة منـه. فقاطعـه معاويـة: «ياسـلام» تطلـب الشـهادة وتتخـلى عـن الحـور العـين؟! اشرحهـا لي يـا رجـل؟! لقـد حاولـت في لقـائي الأخـير مـع أمـي، إقناعهـا بالعـدول عـن فكـرة تزويجـي مسـتخدمًا جمال نسـاء الجنة وصفاتهـن، فصمتت ولم تقتنـع، وأنـت..! فاحتـد بشـار مقاطعًـا: يـا معاوية يـا أخي وصديقـي لماذا تسـتعجل، امنحنـي دقيقـة وسـأريحك فأنـا أحلم بالحـور العـين...! فصفق الثلاثـة، فطلـب منهـم الانتظار وهو يضحـك: لكن العدو الصهيـوني وأذنابه يشـنّون حربًـا تشـويهية ضـد الاستشـهاديين مسـتخدمين الحـور العـين في حربهـم تلـك، وكأن الشـباب الفـدائي هدفه الحـور العين، وهـذا ما جعلني أسـأل السـؤال، هـل الشـهادة هـدف؟! لأننـي سـمعت عـلى الراديـو كيف يشـوهون الاستشـهاديين، فقال يوسـف: لذلك تصدّر الأسـتاذ جمال منصور للـرد عـلى ذلـك ومـا زلـت أحفظ ما قالـه في جامعـة النجاح قبـل أن نصبح مطارديـن. - فسـأله توفيـق: ومـاذا قـال؟!

- فأجـاب: مـا سـمعتموه مني قبـل قليل، والأهـم الآن أن نعلم جيـدًا بأننا لا نتمنـى لقـاء العـدو كـما قـال نبينـا -صـلى اللـه عليـه وسـلم- «لا تتمنوا لقـاء العـدو» لكننـا ظلمنـا واحتلت بلادنـا وانتهكـت حرماتنا وشرّد شـعبنا فلـم يبـقَ لنـا إلا الجهـاد بمـا اسـتطعنا والنفـس نقدمهـا راضـين دفاعًـا عن

أهلنا ومقدساتنا، ولن تكون الشهادة يومًا هدفًا بل مكرمة من الله يستحقها المظلومون.

-لم يكن المقاتلون منعزلين عن القراءة والمتابعة وتحديدًا في موضوع ساعتهم «العمليات الاستشهادية» فقد تتبعوا ولاحقوا كل صغيرة تحاربها وكل كبيرة تساندها كفتوى الشيخ العلامة يوسف القرضاوي الذي أجازها ضد العدو الصهيوني كأرقى أنواع التضحية فحاربه بعض علماء السلاطين.

وصل محمود ومقاتلوه إلى أحد مقراتهم في نقطة مريحة وقصية بين وديان الجبال الموحشة للعامة والمؤنسة لرهبان الليل وفرسان النهار.. بدأ محمود بالحديث: حتى تنهوا خلافكم يجب أن تحتكموا إلى وسيلة تريحكم نتائجها ولا ينقضها أحدكم.

نظر الجميع في وجوه بعضهم البعض، لا أحد ينوي التنازل وجميعهم يأمل بأن يكون الأول، لكنهم في غمرة الصراع الذي لا إيثار فيه، لم يفكروا بحل يرضي الجميع فكان محمود الحل: يا أبا عبادة -يتحدث يوسف- اختر الطريقة المناسبة التي لا تظلم فيها أحدًا، فردَّ عليه: بل أنتم الذين ستحددون. فقال بشار وكأنه قرأ ما يفكر به محمود: القرعة؟



زاوية الهندسة والحقائب

قبل عشرة أيام

نحن لسنا متسرعين، بل نتعجل ضرب العدو ولكن بخطة وصبر.

كان خليل يرد على حثي له بالإسراع في التنفيذ حتى لا يصل العدو لنا قبل أن نصيبه في مقتل، فضحكت وأنا أقود باتجاه واد التفاح: لا أفهم كيف تجمع ما بين التعجل والصبر، فابتسم: أحب رؤيتك وأنت تضحك.. فقلت: هذا ما تخبرني به زوجتي دائمًا ولكن يا أبا محمد كثرة التفكير ترهق أعصابي.

فأجابني قبل أن ينزل من السيارة نهاية شارع حيفا: إلا هذه، أنت بالذات نريد أن تكون أعصابك هادئة حتى ينجح الأمر كما خططنا له معًا وكن على يقين بأن لحظة الصفر قريبة جدًا.

غادرني مسرعًا باتجاه الغرب ثم انتظر قليلًا ريثما تمر إحدى السيارات، فالوقت شارف على العاشرة ليلًا وبعد مغادرتي تقدم باتجاه المخازن وهناك كان المهندسان بانتظاره، اصطحباه إلى زاوية منعزلة عن المعمل جعلاها زاوية اختراعاتهما الإبداعية فابتسم خليل وهو يجلس بجانب معاذ الذي سبقه إلى هناك: لقد ظننت وأنت تخبرني عن زاوية الهندسة بأنني سأرى -على الأقل- طاولة؟

فـردَّ نسـيم وهو يتربـع جالسًـا قبالتهما: فكرنـا بالأمر ثم عدلنـا عنه، الأهم أن العمـل يسـير بشـكل جيـد. فتـورد وجـه خليـل، قفـزت الحماسـة مـن عينيـه قائـلًا: هـل نجحتـم بتصميـم مـا طلبنـا؟ فقـال جـاسر الـذي يتنقـل مـا بـين الزاويـة والبـاب للمراقبـة: بضعة أيـام تغلبنـا فيها عـلى الصعوبات الدقيقـة، ويلزمنـا....، قاطعـه معـاذ: يجـب أن ينجـز العمـل بسرعـة فـلا وقـت لدينا.

فـردَّ جـاسر: شـوقنا لإنجـازه لا يمكـن وصفـه فنحـن نحلـم باللحظـة التـي يتحـول فيهـا إلى نار تحـرق العدو، لكننـا بحاجة إلى بعض المسـتلزمات غير المتوفـرة إلا في مـكان أو مكانـين.

وهنـا تدخـل نسـيم: لذلك نتريـث قليلًا حتى لا نثير الشـبهة، ونـأتي بها من مدينـة أخـرى فالتجـارب التي أجريناها عـلى الحقائب المطلوبة، اسـتنزفت العديد منها.

كان خليـل صامتًـا وهـو يسـتمع إلى الحـوار، يقلـب بـين يديـه مـا صنعـه المهندسـان: يـا شـيخ معـاذ يقول نسـيم: هذه المـرة الأولى التي سيسـتخدم فيهـا هـذا النـوع مـن الحقائـب لذلك...

قاطعـه خليـل بلطف مكمـلًا منطقه: الشـباب بحاجـة إلى الوقت المطلوب فلنمنحهـم ذلـك، تعجـل في كل شيء إلا بعمـل هذيـن الجميلـين، فنحـن والأمـة بأسرهـا بحاجـة إلى نسـيم وجاسر.

فـرد معـاذ: يبـدو أننـي أصبحت بعـد هذا الكلام خـارج الصـورة، الآن أريد أن أتعلـم كل شيء عـن المتفجـرات والكهربائيـات فلربما أحظـى بقليل مما تحظيـان به عنـد هذا الرجـل الخطير.

- أتعلـم؟ -قـال خليـل- يجـب أن نأخـذ معًـا دورة مكثفـة في هـذا المجـال فقـد يـأتي وقت نكـون مضطريـن فيـه للعمـل بأيدينا.

فأجـاب معـاذ: أشـك بأننـي سـأنجح في ذلـك، فأنـا رجـل قلـم وورقـة... فقاطعه نسـيم: وتشـكيل مجموعات عسـكرية والإيعاز ب.... فصرخ معاذ واضعًـا كفـه عـلى فم نسـيم: توقف توقـف تريـد أن تحكم علينـا بالمؤبد؟

فعلـق خليـل: مـا تفعلـه الآن ليس له عقوبـة لدى المحتـل إلا أن تلقى الله شـهيدًا، فضحـك معـاذ: شـدد عـلى الكلمـة الأخـيرة فأنـا أفضلهـا ويـا حبذا لـو كانـت بالطريقـة التـي نعمـل عليها الآن، ولكـن إلى حينها فـلا بأس من إطـلاق النار.

فتصنـع جـاسر المفاجـأة: تريـد أن تستشـهد رميًـا بالرصـاص؟ فـرد معـاذ بسرعـة: إطـلاق النـار، عمليـات إطـلاق نـار عـلى الصهاينـة، أفهمـت الآن؟ فأنـا جاهـز مـن هـذه الناحيـة.

فانفجـر نسـيم وجـاسر بالضحـك ومعـاذ يعـض عـلى شـفته السـفلى طالبًا منهـما -بعينيـه- الكـف عـن ذلـك، الأمـر الـذي أثـار خليـل فسـأله: هـل تدربـت عـلى المسـدس الـذي زودتـك بـه؟ فانقلـب نسـيم عـلى ظهـره مـن شـدة الضحـك أمـا جـاسر فانهمـرت الدمـوع مـن عينيـه، لم يسـتطع ضبـط نفسـه ودخـل خليـل في نوبة الضحـك الهسـتيرية ومعاذ يقـول: لقد انفضحنـا ورب الكعبـة.

لم يسـتطع معـاذ المسـؤول في الكتلـة الإسـلامية والقائـد الميـداني في حركـة حـماس، كتـم فرحتـه بامتلاك المسـدس عـلى الرغم من رؤيته للسـلاح عدة مـرات قبـل ذلـك، فطـار بـه إلى البيـت كالطفـل الـذي يحصـل عـلى هدية

للعيـد، يفعـل ككل حـر ومظلوم، يقبلـه، يحضنه كحبيبته، يدلله، لم تسـعه الغرفـة فانتقـل إلى الشـقة الفارغـة وهناك.

بـدأت مغازلتـه الحقيقيـة لمعشـوقته، يرتمـي أرضًـا، يزحـف باتجـاه العدو، يصـوب واقفًـا، لقـد كان يفعلهـا وهـو صغـير ولكـن بسـلاح خشـبي أمـا الآن.. فسـلاح حقيقـي وهنـا ولدت الفكـرة الجهنمية، فأغلـق النوافذ جيدًا وأتبعهـا «الأباجـور» ثـم فتـح المسـجل عـلى أغـان حماسـية ورفـع الصوت عاليًـا، بعدهـا توجـه إلى المطبـخ وأحـضر المفرمـة الخشـبية السـميكة جدًا ووضعهـا قـرب باب الحمام، وبثـوانٍ معدودة عمَّر المسـدس تأسره فكرتان: الإحسـاس بالشـعور لـدى إطـلاق النـار بسـلاح مقـاوم، وهـل سـتخترق الرصاصـة اللوح الخشـبي السـميك؟

فجـاءه الـرد فـورًا عندمـا أطلـق الرصاصـة مـن مسـافة مـتر، فـالأولى لم يسـتطع اختبارهـا لأنـه فقد السـمع لثوانٍ معـدودة أما المفرمة فانشـطرت إلى نصفـين بفعـل الرصاصـة التـي اسـتمرت بطريقهـا مخترقة بـاب الحمام ثـم حـوض الاسـتحمام لتسـتقر بعدهـا في الجـدار..

- يا إلهي.. يصرخ معاذ الذي تطن أذناه من شدة الصوت.

لم يشـغله حينهـا سـوى شيء واحـد، ألا يعلـم أحـد في البيت مـا جرى حتى لا تلوكـه الألسـن دهـرًا مـن الزمـن، فحصـل ذلـك ولـو في نطاق ضيـق إنما مـن العيـار الثقيـل كفعـل الرصاصـة، فبينـما الشـيخ سـعيد -والـد معـاذ- يتجـول مسـاء كعادتـه في البيـت فـإذا بـه يتوقـف عند بـاب الحـمام الذي قـام معـاذ بإلصـاق ورقـة عليـه فرفعها رغـم صعوبـة انحنائه للأسـفل: أف أف.. هالـه المشـهد فدخـل الحـمام متتبعًا أثـر الفتحة التـي لم تخف عليه.

فضحك ساخرًا كعادته وهو يرى مسار الرصاصة: ما هذا؟ هل فتح أولادي الجبهة في البيت؟ ثم توجه إلى النافذة: معاذ اصعد إلى هنا، أريدك في الأعلى.

لم يستطع خليل الصمود ريثما ينهي معاذ سرد الحكاية فأمسك بخاصرتيه من شدة الضحك ثم سأله: وماذا فعل الشيخ معك؟ فأجاب: زودني برصاص من عنده كان يدخره للوقت المناسب.

بعد عدة أيام من زيارة خليل لزاوية الهندسة وتأكده من إنجاز دائرة معاذ لعملها، أرسل معاذ إشارة للمجاهد الأسير عبد الناصر عيسى في محبسه بسجن عسقلان، عبر والده الشيخ أثناء زيارته لشقيقه عثمان، يخبره بها بالشيفرة الكلامية عن اقتراب الوعد.



الفجر والوداع الأخير!

قبل اثنتين وسبعين ساعة!

-كانت المرة الأولى منذ فترة ليست قصيرة، التي يقتربان فيها من بيوت القرية، طوابينها، حواشيها الجميلة، زيتونها الأقرب، يجذبهما صياح الديكة الأروع، إنذار الموحدين المبكر، يخبئهما سواد الليل يخفيهما في عتمته، يحرسهما في وداعهما الأخير، يقتربان أكثر يلامسان شجر السرو العتيق واللوزة المعمرة التي اختبآ خلفها صغارًا في لعبة الغميضة، يشربان من بئر «الهيش» يتوضآن، تلاطفهما نسمات الهواء، يطربان على صوت حفيف الأشجار، ثم يجلسان بانتظار موسيقى الصباح، ترنيمة العابدين وعشقهم، يهمس توفيق: وماذا لو لم يوقظه أحد؟! فيرد معاوية وعيناه متسمرتان باتجاه الطريق المؤدي للمسجد وقلبه يخفق بسرعة حصان: لم يتخلف عن الفجر منذ أن عرفته.

-فكسرت عبارته رهبة الموقف فضحك توفيق: ومتى تبدأ معرفة الابن بوالده؟ -فوضع معاوية كفه على ساعد توفيق طالبًا منه الإنصات لدى سماع خشخشة المذياع في مئذنة المسجد إيذانًا بقرب رفع الأذان: إن لم يخرج الآن من المنزل فسأراه في....! قاطعه توفيق بلهفة: باب بيتكم انفتح! فوقف معاوية على قدميه وجسده يرتعش لكن توفيق استمر بلفت انتباهه: انظر إلى شرفة بيتكم أيضًا، لقد أنارها أحدهم.

- فتحشرجت الكلمات في صدره بل انخنقت هناك وهو يتلعثم بأحرفها التي نجحت بالخروج من فمه: إنها أمي، ترقب والدي العجوز. ثم انفعل أكثر: هذه عكازه تخرج من الباب، إنه أبي، انظر جيدًا، عباءته البنية التي ابتعتها له قبل سنين من نابلس –ثم ضحك- انظر إليه، سبعينيّ ويمشي مسرعًا كالشباب، ليتني أستطيع احتضانه ولكن!!.

-فقال توفيق وهو يضع يده على كتف صديقه: دعنا ننتظره خلف الجدران..! قاطعه معاوية: لا لا، لن أعرّض العمل لخطر غير محسوب، دعني الآن أشبع من أمي، أعرفها جيدًا ستجلس هناك بانتظار عودة والدي وعقلها معنا في الجبال، لقد أخبرتني بذلك في لقائنا الأخير و... توقف عن استرساله بالحديث ملتفتا إلى وجه توفيق المنفعل بانفعاله: سامحني يا أخي، لقد نسيتك، هيا بنا نذهب بالقرب من بيتكم، علك ترى أحد أحبابك!

- لا.. أجاب توفيق بهدوء حزين دعنا نبقى هنا.

- فقال معاوية مستغربًا: لماذا ألم تكن رغبتك؟!

- نعم لكنها لم تعد فأهلي هم أهلك ويكفيني أن أراك فرحًا.

- لكنك... فقاطعه: لا أريد أن أضعف، لا أضمن نفسي إن رأيتهم فأنا بشوق لأنفاسهم لرائحة ثيابهم، دعني أرحل هكذا.

- ولكن! -قالها توفيق وقد تحولت أشجانه إلى غضب وهو يرفع قبضته إلى أعلى– حسبي وإياك أننا سنحفظهم بدمائنا حتى لا يزحف اليهود داخل بيوتنا.

"شيفرة الأردن وأنوف مخابرات العالم"

قبل ثمانٍ وستين ساعة

- طرت إليه، جسدي يسبق السيارة، أدري تمامًا لماذا! كدت في مرات عديدة أن أستسلم أمامه، أبوح بما حلمنا به معًا، حاولنا سابقًا فلم ننجح، لكنني تراجعت، منعتني...! لا يهم، ما زال المنع وجاءت لحظة مهند، طرقت باب المطبخ خلف البيت القديم، طريقنا السري من بين أحبال الغسيل، استقبلني بابتسامته: ادخل، لم أتناول الفطور بعد، شاركني بما قسمه الله.

- لقد قسم الله لنا خيرًا من الطعام! لم أكد أنهي العبارة حتى خرج يمسكني بيدي ويجرني إلى عمارة العائلة المحاذية وغرفة خليل مقر اجتماعاتنا السرية: أعد عليّ ما قلت، أو أخبرني بالأمر فورًا.

- فجلست على السرير: عن أي أمر تتحدث فما زال الماء في فمي؟!

- فضحك واضعًا كفيه على رأسه: أهذا الذي كنت تخفيه عني طوال الشهر المنقضي؟! أتدري كيف عشت تلك الأيام؟!

- والآن جاء دور رجل المهمات الخاصة، مهند بن حافظ الطاهر.

- تحدّث قبل أن أضربك واعذرني لأنها ستكون المرة الأولى.

- اجلس وصلِّ على النبي، هناك عمارات سكنية تؤجر شققًا مفروشة، أريدك أن تستأجر شقة فيها!

- هذه العمارات في نابلس؟! لم أسمع بها قبل اليوم.

- في حـي المخفيـة تحديدًا، لا يوجد بها سـكان، تسـتأجرها الوفـود القادمة إلى المدينـة، نريدهـا لثلاثـة أيام، ثلاثـة أيام فقط.

- هل سأستأجرها باسمي، أم بالبطاقة المزورة؟

- لا، معلوماتنـا تفيـد بأنهـم لا يدققـون في طلـب الوثائـق، المهـم أن تكون التغطيـة جيـدة كأن تسـتأجرها لوفـد...! أسـكتني مهنـد: دع الأمر لي فمنذ متـى أصبحـت تدقـق في التفاصيـل، دائمًـا كنـت تتركها للعبـد الفقير؟!

- منـذ أن تعرفـت عـلى رجـل التفاصيـل خليـل الشريـف، لقـد أرهقنـي يا رجل.

- هـا، وبعـد ذلـك؟! - سـألني مهنـد، فأجبتـه: دعنـا ننجـز أمـر الشـقة أولًا وسـتعلم كل شيء في حينـه، لكـن الأهـم الآن الحرص الحـرص وعدم الإتيان عـلى أي أمـر غـير اعتيـادي حتـى لا نثـير الشـكوك مـن حولنـا حـال بدأنـا التنفيـذ، فأنـوف مخابـرات العـالم ستنشـط بعـد أيـام لتعقـب آثارنا.

- الله أكبر ولله الحمد- خرجت من فم مهند -إذن الأمر كما توقعت؟

- نهضـت مغـادرًا هربًـا مـن ضعفـي أمـام أعظـم المجاهديـن وأكثرهـم صلابـة وأخطرهـم عـلى المحتلـين: سأسـتلم منـك مفتاح الشـقة عـصرًا، قل إن شـاء اللـه.

- فأمسـكني مـن الخلف، اسـتدرت نحـوه فعانقني قائـلًا: أني أحبك في الله وتأكـد أني لـن أخـذل دينـي ووطني، وسـيكون ما تريـد بإذنه تعالى.

- وفي الوقـت الـذي كنـت فيـه أبلـغ مهنـد بـأولى مهماتـه، كانـت رسـالة

خليـل المكتوبـة بلغـة الشـيفرة بـين يـدي قائـده في الأردن والتـي وصلتـه للتـو عـبر النقـاط الميتة هنـاك: «الجمعية تعـاني من أزمة مالية أسـعفونا».

- سـجد القائـد فـور قراءتـه للرسـالة والتي لا يعرف معناه سـواه ومرسـلها فقـط وتقـول: عمليـة استشـهادية في القدس خـلال أيام.



أبو مصطفى وغرفة العمليات

قبل خمسة وعشرين ساعة

كان بانتظاري في شقة رفيديا، يجلس على سجادة الصلاة بعد أن أعذر إلى الله وأخذ بجميع الأسباب المطلوبة لإنجاح الخطة، يستنجد بخالق الأسباب وسيظل يفعل ذلك طيلة العمل كما فعل فيما مضى من أيام، استقبلني بلهفة مرتديًا بزته الشرطية: أين أنت يا أخي، لقد تأخرت؟ فنظرت إلى ساعتي ثم إلى وجهه فابتسم قائلًا: لا تحاسبني فأنا في قمة الانفعال وأعلم أنك لم تتأخر، انقلني بسرعة إلى الشقة فلقد عشت أصعب يومين في حياتي.

فسألته: وأنا أعلم الجواب نظرًا لنشاطه الليلي الأخير: هل نحن جاهزون؟ فأجابني ونحن نهم بالخروج: إن شاء الله إذا لم يحدث أي عائق.. لم يكن خليل يكثر الكلام، يعلم أن المصلحة تقتضي عدم كشف دائرة محمود أبو هنود على دائرة معاذ بلال، ينسحب الأمر على دائرتي التي أطلق عليها مجموعة الموظف، سأكتشف ذلك لاحقًا، فقد عقد اجتماعين منفصلين معهما وضع خلالهما اللمسات الأخيرة مبقيًا على سرية بعض الأجزاء من الخطة، هل كان ذلك غريبًا على العمل المقاوم في تلك المرحلة؟ لم يكن كذلك، إنما أسلوب العمل الذي انتهجه خليل هو الأمر النوعي، تجلى ذلك في تعامله مع قائده خارج

فلسـطين، قاعدتـه الذهبيـة: العناويـن العامـة والمختـصرة دون الدخول في التفاصيـل؛ لأن التفاصيـل لا تعنـي أحـدًا غـير رجـل الميـدان، ولما حـادت بعـض المجموعـات عـن الخـط الصارم في أمـن العمل تلقـت الضربات على رأسـها، وتلـك آفـة المقاومـة التـي لا تتعلـم مـن تجاربهـا ولربمـا كنـا لاحقًا إحداها.

كانـت الشـقة التـي اسـتأجرها مهنـد في الطابـق الثالـث، مفروشـة بشـكل جيـد، دخلناهـا الثلاثـة بعـد أن أقليت مهند مـن مكان متفق عليه مسـبقًا ومـا زال يتعـرف رويـدًا رويـدًا عـلى دوره في العمـل، لم أمكث كثـيرًا معهما فغـادرت لتنفيـذ الجـزء الأهـم مـن الخطـة لهـذا اليـوم، وضعـت سـيارتي الفيـات الصفـراء «عزيـزة» في زاويـة مظلمة أمـام عمارة تجاريـة تقع قرب مجمـع الحافـلات الغـربي ومـا كان يعـرف سـابقًا بالبسـاتين، ولطالمـا خفنـا صغـارًا مـن المـرور سـيرًا على الأقـدام من تلك المنطقـة الخاليـة القريبة من متنـزه المدينـة لاحتلالهـا مـن جانـب السـكارى، لتصبـح وحشـتها -ليلًا- في زماننـا، مكانًـا نسـتغله على الوجـه الصحيح.

عقـدت خيطًـا رفيعًـا عـلى مقود السـيارة، ثـم وضعت جريـدة القدس على مقعـد السـائق وغـادرت مسرعًـا بعـد أن أغلقـت الأبـواب باسـتثناء البـاب الخلفي الأيمن، وبينما كنت في طريقي إلى شـارع فلسـطين المؤدي إلى دوار الشـهداء وسـط المدينـة حيـث ينبغـي أن أغيـب عـشر دقائق وفـق المتفق عليـه، تفاجـأت بأمـر لم أتوقعه، حسـبتني أخطـأت بالموعد لكن ابتسـامته التـي خرجـت لي عـلى ضـوء القمـر مـن مجلسـه عـلى مقعـد يرتـاح عليـه المسـافرون نهـارًا، أذهـب عنـي التوتـر: ارجع، إنهـما ينتظرانك في السـيارة.

أبـو مصطفـى - خاطبتـه بعـد أن اقتربـت إليه مصافحًـا فصافحنـي بحرارة

ولم أكن أعلم حينها أنه محمود أبو هنود وأن اثنين من رجاله سيصبحان في عنقي بعد تلك اللحظة، على الرغم من لقائنا المسبق في شقة رفيديا، أيقنت حينها أن سري قد خرج عن نطاق خليل لكنني في الحقيقة لم أفكر كثيرًا بالأمر ولربما زادتني رؤية محمود اطمئنانًا، وظل شاغلي الأوحد إيصال الاستشهاديين إلى غرفة العمليات، فعدت مسرعًا إلى السيارة.



كسوة العروسين والعشاء الخاص

قبل أربعة وعشرين ساعة

سأعترف بأن مشاعري متضاربة، غير مستقرة، ينتجها قلبي بسرعة عشرين حصانًا لأن عقلي في تلك اللحظة، كان يعمل في كل الاتجاهات، يحلل، يستنتج، يسبق قدمي إلى السيارة: من هما؟ أشكالهما؟ لماذا حذرني خليل من رؤية أحد أفراد السلطة لهما؟ يا إلهي، يتعبني عقلي كثيرًا، منذ متى أرتبك هكذا؟ آه وجدتها.. أخشى من تكرار الفشل في عملية التلة الفرنسية فتجيبني حجرة التفاؤل في عقلي: دعك من التشاؤم وقل يا الله.

- لكن السكتة القلبية ستصيبني هذه المرة إن لم نخرس رئيس وزراء العدو نتنياهو ولن أقوى على....

- لقد أمرتك أن تستعين بالله، ماذا جرى لإيمانك؟

- أستغفر الله العظيم، لكن هذا الأرعن استفزنا وهو يتحدانا قبل أيام على شاشات التلفزة: «أكرر ما قلته سابقًا لقد قضينا على إرهاب الفلسطينيين الذي تقوده منظمة حماس الإرهابية ولن تعود تلك الأيام».

- وصلت السيارة: السلام عليكم، هنا حافلات الخليل؟ فأجابني الشاب

الجالـس في الأمـام: للأسـف لا، هنـا كـراج أريحـا فصعـدت فـورًا مصافحًـا كليهـما وسـأعترف مجـددًا بـأن ابتسـامتها الرائعـة، أنهـت ارتبـاكي الذهني، شـحنتني بطاقـة رائعـة: مرحبًـا بكـما، أخوكـما في اللـه أبـو أيمن، سـنتحرك الآن إلى حـي المخفيـة ومهـما حصـل في الطريـق أبقيا عـلى هدوئكما فأنتما بأمان.

- لم أكـن حينهـا أرتـدي الـزي الشرطـي حسـب تعليـمات خليـل، لكننـي أردت طمأنتهـما فسـألني الجالـس إلى جانبـي والـذي سـأعرف بعـد فـترة مـن الزمـن بأنـه معاويـة: وإن أوقفتنـا أجهـزة أمن السـلطة الفلسـطينية؟ فأجبـت وأنـا أتحـرك بالسـيارة: بـإذن اللـه لـن يوقفنـا أحـد، هـي دقائـق معـدودة وسـنصل هدفنـا

- لم يكونـا مرتبكـين أو خائفـين، تلقائيتهـما جميلـة، ظـلا يتبـادلان الحديث بوجـودي وكأننـي جـزء منهـما، لقـد أخبرهما محمـود قبل لحظـات الوداع الصعبـة: سيسـتقبلكما أبـو أيمن، مجاهد أعرفه جيدًا سـيوصلكما إلى خليل، تسـتطيعان الاعتـماد عليه.

- كان يتحـدث إليهـما بعينيـه وقلبـه، لسـانه مـتردد غـير قادر عـلى صياغة كلـمات الـوداع، خفقـات قلبـه تحـاوره: وكيـف وداع الـروح؟ هـذان بعض مـن روحـي فكيـف سأشـيع روحـي إلى الأبد؟

فيعانقـه توفيـق بحـرارة قائـلًا بشـجاعة: لقـد انتهـى الـكلام يـا أبـا عبادة، ليـس عنـدي سـوى كلمـة واحـدة وأخـيرة، أنـت أعظـم الرجـال الذيـن التقيتهـم.

لم يخـرج الـكلام مـن فـم محمـود الـذي كان يتصنـع رباطـة الجـأش حتـى

لا تنهار عيناه، فانتقل لعناق معاوية، يشده إلى صدره، يشتم رائحة الشجاعة: مثلما قال لك توفيق: أنت أحب الناس إلى قلوبنا، فضحك توفيق: صحيح أنه أحب الناس على قلبي لكنني لم أقل ذلك.

كشفت ملاحظته انفعال معاوية لكنه وجد في ذلك هروبه من أصعب اللحظات التي لم يتخيلها يومًا، فضحك وهو يقبل رأس قائده فردها محمود قبلتين على رأسيهما ثم كان الفراق.

- استقبلهما خليل، رفيق المغارة والحكايا الجميلة، ولما هممت للمغادرة أوقفني مبتسمًا بيده: إلى أين؟ فاستغربت لأن مهمتي انتهت لهذه الليلة ويتوجب عليَّ التوجه للعمل استعدادًا ليوم طويل غدًا: إلى الدوام الذي تعرفه.

كان معاوية وتوفيق يستمعان لنا مبتسمين: لكن الشباب بحاجة إلى ملابس، فقلت بسرعة: ألم نتفق؟ فقاطعني بأدب ولباقة: أنت ستقوم بكل ذلك، هل كنت تظن أن غيرك سيفعلها؟ وأيضًا هناك أمر آخر... ثم سأل معاوية وتوفيق: كيف أنتم والعشاء؟ فأجابا: لم نأكل منذ غادرنا الجبال صباحًا..

فأدركت أن ليلتي لم تنته بعد وعليَّ أن أتأخر قليلًا عن الدوام، لا بأس؛ لأنني لم أعِ تمامًا، بسبب تلاحق المهمات وضغط العمل، أنني أعيش لحظات من العالم الآخر، قرأتها في وجه مهند وانفعال خليل، لكن المهمة تعقدت أكثر بعد أن اتخذ خليل قرارًا غريبًا لدى شروعي بأخذ مقاسات الأخوين: ما رأيك باصطحاب المجاهديْن معك؟ لم أجادل كثيراً، عملنا جميعه قائم على المخاطرة وربما كان الأسلم بقاؤهما في الشقة، لكنني اصطحبتهما يرافقنا مهند الذي لا يقل سعادة عن الاستشهاديّيْن

فرتبنـا أمـر الطعـام أثنـاء سـيرنا باتجـاه حـي رفيديا، سرنـا قليلًا في الشـارع الرئيـس الـذي ينتصـف الحـي بحثًـا عـن معرض جيـد للملابس التـي تلائم العمليـة فوجدنـا ضالتنـا قبالـة مسـجد الروضة.

نزلنـا ثلاثتنـا ودخلنـا المعـرض بسرعـة دون لفـت الانتبـاه، بينـما ذهـب مهنـد بالسـيارة إلى منزلـه حتـى يعـد لنا الطعـام على أن يعـود بعد أربعين دقيقـة، اسـتقبلنا البائـع بصـورة جيدة وكان محلـه خاليًا مـن الزبائن: أريد أن تكسـو العروسـين مـن أخمـص القدمـين إلى الـرأس فعرسـهما غدًا.

شـاهد البائـع السـعادة عـلى وجهيهما الضاحكـيْن، أبهجهما اللقـب الجديد وأسـعدهما أنهـما سـيكونان أعظـم عروسـين تدفعهـما الدنيـا إلى السـماء، فسـألنا البائـع بلطـف: ومـن أين الشـباب؟

كنـت أود إخبـار الدنيـا وليـس هو فحسـب، أنهما من أعـالي الجبال، صقور القمـم التـي تنظرنـا مـن فوق، ترانـا من بطن السـماء صغارًا نلهـو بالتراب، أصرخ.. أدعـي.. أنـادي العابريـن مـن هنـاك: هنـا الحكايـة يـا قوم، سـيفُ عـلي ورائحـة عمـر، ها هم السـطر الـذي سـيكتب بالدماء فيخـط التاريخ الذي يمهـره الأقوياء..

أجبت البائع: هما من قرية «صرَّة».

فبـدأ العمـل ينتقـي أفضـل مـا عنـده ومعاويـة وتوفيـق يتفاعـلان بصـورة ممتـازة، يشـاركان البائـع عمليـة الاختيـار، يقيسـان يخلعـان أشـاركهما الاستحسـان مـن عدمـه، لكـن انتباهـي كان خـارج المعـرض، عينـاي لم تفارقـا الشـارع المكتـظ عـادة بحركة السـير النشـطة والمتنزهين مـن الناس الذيـن يخرجـون للاسـتمتاع بليـل نابلـس الجميل، خشـيتي من طـارئ غير

محسوب، لكنها عناية الله وتوفيقه، تشعر أنها تحيط بالعمل، ترافقه وترعاه «من توكل على الله فهو حسبه».

- أكثر ما أدهشني وأنا أرقبهما أملأ عينيَّ منهما أنهما كانا يستمتعان بما يقومان به، لا أزعم أنهما يحبان الموت كلا، أقسم إنهما ليسا كذلك، أدري أن أحدهم سيزعم يومًا من الأيام وجود تناقض فيما أقول، فكيف يجمعان ما بين إقدامهما على الموت اختيارًا وما بين حبهما للحياة؟

سأفترض حكمًا بأن السائل ليس مظلومًا أو كان كذلك فارتضى لنفسه ولقرعة أبيه أن تدوسها أحذية الغزاة.

دفعت للبائع ثمن الملابس.. لم أفاصل وأساوم هذه المرة، ترى لو علم ما سيفعلانه في من يسرق البسمة من أطفاله، هل تراه يطلب ثمنًا لبضاعته؟ تأخر مهند عن الموعد المضروب لعودته، مضت ساعة على مغادرته فانتظرنا داخل المعرض ثم اضطررنا للخروج والانتظار بالجوار في مكان مظلم نسبيا حتى جاء..... فأسكتتنا رائحة الطعام عن لومه، فانطلقت بهم وصينية الأكل بين معاوية وتوفيق: يبدو أن الخالة أم محمد علمت أنَّ عشاءنا سيكون خاصًّا بامتياز؟ فأجابني مهند: المسكينة أعدت الطعام بسرعة قياسية، فقلت موجهًا حديثي للمقاتليْن: ستأكلان طعامًا نابلسيًا على الأصول، فضحك الاثنان وهما ينظران إلى بعضهما البعض فظننا حينها أنهما يقومان لمجاملتنا ولم ندر بأن والدة معاوية نابلسية أصلية من عائلة «حرز الله» أكلا من يديها المباركتين كل الذي تفتقت عنه ذائقة النابلسيات الشهية.

كان أروع عشاء نتناوله في حياتنا، لقد أكل خمستنا وكأننا مدعوون على وليمة عرس، ولم أجد تعريفًا دقيقًا لما يحدث وللدقة أكثر لم أستطع

إيجـاد تسـمية لـذاك العشـاء، أنـا أتنـاول الطعـام مـع فدائيـيْن مجاهديْـن استشـهادييْن سـيتمزق جسـداهما غـدًا فـداء لدينهـما ووطنهـما الغـالي.. يالـلـه.. أعنـي عـلى اسـتيعاب ما يجـري، وعنـد انتهـاء الطعام واسـتعدادي للمغـادرة مـع مهنـد، هـزني الاثنـان اللـذان لم أعرفهـما سـوى مـن بضـع سـاعات وهـما يسـألان خليـل وعيونهـما متجهـة صـوبي: هل سـيذهب أبو أيمـن؟ ألـن نـراه بعـد الآن؟

لقـد عصـف سـؤالهما بفـؤادي، مزقـا قلبي مـن الداخـل، فأجابهما مبتسـمًا وهـو يضـع راحتـه عـلى كتفـي: هـذا الرجـل سـيكون آخـر مـن سـترونه في الدنيـا غدًا !

فخرجت من فيهما كلمة واحدة وهما يضحكان باستغراب: غدًا !!

اكتشـفت حينهـا أن محمـود لم يخبرهـما بموعـد العمليـة وبقـي الأمـر سرًا حتـى عـلى الاستشـهادييْن، فبـدأ المجاهدان يتحدثـان فيما بينهـما بوجودنا حديثًـا رائعًـا جميـلًا بسـيطًا عظيـمًا: يوسـف وبشـار، كيـف سـيعرفان بالعمليـة؟

يضحـك توفيـق: الراديـو ليـس بحوزتهـما سـيجنًا إن حصلـت ولم يتابعـا الأخبـار، فيمسـك معاويـة الحديـث وقهقهتـه نسـمعها في الغرفـة: سيشـد بشـار شـعره عندمـا يكتشـف الأمـر بعـد يومـين أو أكـثر.. المسـكينان.

غـادرت ومهنـد الشـقة بعـد توديـع الثلاثـة ومـا زالـت المفاجـأة السـعيدة تصنـع منهـما طائريـن في السـماء سـيحلقان غـدًا في سـماء غـير سـمائنا.



ليلة البيان والبصمة العائلية

قبل اثنين وعشرين ساعة

لم نعلم ونحن في معرض الملابس نكسو عشاق الشهادة أن بيتًا خلف مسجد الروضة بقليل يصنع جزءًا من الحكاية يكتبها بلون خاص سيبقى سرًا حتى كتابة هذه الأسطر......

ينقر القائد معاذ على الآلة الكاتبة، يصف أسطر البيان العسكري وما يلبث أن يشطب ما كتبه معاودًا النقر مرة تلو الأخرى، لا تطاوعه البداية فيصك على أسنانه: أهذه مقدمة بيان سيهز العالم؟ فيقف على قدميه يحرث الغرفة جيئة وذهابًا، لقد اتفق مع خليل على الخطوط العامة لكنه يعجز عن إخراج ذلك النور.

لقد كتبت مئات الكلمات والخطب، برعت في صياغة البيانات الانتفاضية وأعجز الآن عن...، ثم يضحك على نفسه وهو يتذكر فحوى الإعلان المكلف بكتابته: لكن.. هيهات هيهات.

وبينما كان يعزي نفسه بذلك وما زالت الكلمات تعتصم على رأس لسانه الفصيح دائمًا والمستعصي اللحظة، دخل الشيخ سعيد بلال الغرفة كعادته قبل إيوائه للنوم، فقد افتقد نجله الثالث على الترتيب معاذ، جليسه الدائم والباحث عن أسرار الماضي: ماذا يشغل ولدي في هذه الليلة الجميلة فلم يأتِ لمسامرتي؟ لم يرتبك وهو يرحب بأبيه، كفته

ابتسامة خجلى حتى يدرك العجوز خطورة ما يقوم به وبالتالي سريته القصوى فقال مرحبًا بالشيخ سعيد، مهمة كلفت بها وسأنجزها إن شاءالله.

- يبدو أنها من النوع الثقيل وإلا لاستشرتنا بها؟ قالها الشيخ القائد مبتسمًا وهو يستدير بعكازه ينوي الخروج من الغرفة فأسرع معاذ يمسك بذراعه: وهل هناك شيء أستطيع إخفاءه عنك؟ ثم أغلق الباب وقدم الكراسي لجلوس والده: لكنها المرة ثقيلة واقترب إلى أذنه سيصل صداها للعالم.

- فهز الشيخ رأسه واقشعر بدنه وهو يستمع إلى الكلام الذي تطرب له الدنيا ولم يستطع الحديث لدخول زوجه أم بكر وبيدها أكواب الشاي: وهذه لوازم جلستكما التي أتمنى ألا تطول كثيرًا حتى تستطيعا قيام الليل، وبعد أن شكراها وهمت للمغادرة اشتمت رائحة غريبة: يبدو أن عائلة بلال تخفي أمرًا جللًا؟

- فسكت الشيخ الهادئ بطبعه وتطوع معاذ بالرد: يقنعني أبي بالزواج.

- فقاطعته المرأة الحديدية موجهة سؤالها الماكر للشيخ وهي تدرك أنه لن يكذبها: أصحيح ما يقوله هذا الشاب؟

- فأجاب بكل بساطة: لا إنه يكذب.

فضرب معاذ بكفيه على رأسه وهو يحدق بعيني والده: ماذا تقول يا أبي؟ يستحلفه أن يحفظ السر ولا يفضح أمره: لا تنظر إليَّ هكذا، لقد أخبرتني بأمر غير الزواج وأنا لم أتعود الكذب على أمك.. فارتبك ودخل في بعضه..

فتقدمت أم بكر نحوه ممسكة أذنه: أنسيت أننا الثلاثة زملاء زنزانة واحدة؟ فقال: لم أنسَ يا أمي لكنه أمر...،

فأسكتته: هل سألت أخاك عثمان فيما مضى حتى أسألك الآن؟ يكفيك أن تخبرني بالإشارة فأفهم أن الأمر سري فأكف عنك، أخبره يا شيخ قواعد هذا البيت.

فهجم معاذ على يد أمه يلثمها معتذرًا فانفجر الأبوان بالضحك، وبعد أن غادرت الأم واطمأن قلب معاذ، فأخرج من صدره سؤالًا مخبوءًا منذ زمن بعيد لطالما خشي أن يوجهه لأبيه: قبل أن أستشيرك بالأمر الذي بين يدي أود أن تريح فضولي بجواب شافٍ عن دورك في أسرة الجهاد.

فضحك الشيخ: لم أعتد على الاعتراف في أقبية التحقيق.. فاستنكر معاذ: أنا ولدك ولستُ ضابطًا في مخابرات الاحتلال.

- أعرف أعرف، لكن الذي قاسيت من أجل حفظه سبعين يومًا تحت التعذيب لن أعطيك إياه هكذا لكن.. فتحفز معاذ لسماع ما بعد لكن: ولكن ماذا يا أبي؟ فأكمل الشيخ: ربما لن أعيش كثيرًا حتى تأتي اللحظة المناسبة للحديث عن ذلك والعمر كما ترى يركض باتجاه القبر.

فقال معاذ: أطال الله في عمرك يا شيخ حتى تقدم لشعبك وأمتك من مخزون عطائك الذي لا ينضب فما زالت الحركة التي شاركت في بنائها بحاجة إليك.

فسعد الشيخ للإطراء: ألن تكف عن ذلك؟ فأنا يا ولدي في العقد الثامن من العمر، وجاء الدور عليكم حتى... وهنا تصنّع الحديث -بصوت منخفض- تحققوا الأهداف التي أقيمت من أجلها «أسرة الجهاد».

فسارع معاذ لالتقاط اللحظة: هل كان الأمر مجرد مجموعة عسكرية من أبناء جماعة الإخوان المسلمين داخل أرضنا المحتلة عام ثمانية وأربعين أم أكبر من ذلك؟

- كان قرار الحركة في فلسطين أواخر السبعينات من القرن العشرين أن نبدأ بالعمل العسكري تدريجيًا وكان الاختيار الأمثل في حينها داخل الخط الأخضر لكن الأمر لم يجر كما أردنا فضرب التنظيم العسكري بعد سلسلة من العمليات ضد الاحتلال هناك، اعتقلنا على إثرها في الضفة الغربية وقطاع غزة.

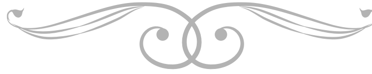
وهنا اندفع معاذ للحديث: عندما اعتقلوا أمي التي اصطحبتني معها وكنت في الثامنة من العمر، لم يشغلني سوى شيء واحد.

- ألا يفوتك المسلسل الكرتوني «السيدة ملعقة»؟ فضحك معاذ: يا أبي وهل كنا نملك تلفازًا يومها؟ المهم عندما طلب المحقق بخبثه وأنا بجوار أمي أن أقنعك بالاعتراف وتسليم السلاح، ظللت أحلم بذاك السلاح.. أتخيله بين يدي أقتل به المحقق الذي عذَّبك.

- والآن؟ سأل الشيخ بعنفوان الشباب: هل امتلكت السلاح المناسب كما امتلكه شقيقك الأصغر عثمان؟ فأجاب: بل وأكثر، وسنكسر به غدًا رأس الأرعن «بنيامين نتنياهو» لكنني لا أهتدي لمقدمة تليق ببيان الإعلان عن العملية، لقد استعصت الكلمات فطلب الشيخ أن يبدأ الكتابة مجددًا بعد أن أخبره معاذ بالنقاط المركزية التي ينبغي أن يتضمنها البيان: أولًا يجب أن يترفع البيان عن ذكر رئيس وزراء العدو فالفعل على الأرض سيكون خير رد عليه أما البداية فلا تقلق بشأنها فالعمل سيقويها..

ثانيًا ابدأ بالنقطة الأقوى فالأقل قوة، أما ثالثًا لا تلجأ في الإعلان العسكري للخطابة وكأنك على منبر، ثم بدءا بكتابة البيان حتى إذا ما أنهياه بالتوقيع «وحدة الشهداء لتحرير الأسرى.. كتائب القسام الذراع العسكري لحركة المقاومة الإسلامية حماس».

قال معاذ: أتعلم يا أبي أنك الآن...، فأسكته الشيخ بحزم: أتعرف كيف تغلق فمك؟ لم أغادر هذا الشرف حتى أكون فيه مجددًا، فأنا فداء لديني وشعبي وأمتي ودعوتي، ولن تغفو لي عين حتى أرى دموع قادة العدو غدًا.



الخوف والرهبة وتوتة الدار

قبل إحدى عشرة ساعة

-جلسا على الأرض يتكئان على الحائط بعد أن تغبرت جبهاتهما اللتان سجدتا شكرًا لله، مختلطة بعرق الأجداد الذي تصبب منهما، ينظران إلى الموت الساكن في الحقيبتين وقد حلما بذلك منذ بعيد، هما فلسطين المزروعة في حاكورة أم حمدان تحت الليمونة على يمين الرمانة قبالة توتة «أبو عرب» في قرية الشجرة، يتنفسان الشوق، يستنشقانه عبر الحقيبتين، لا غير الموت يقربهما إليها!! معادلة الموت، القانون الذي يحترمه العالم، ضاعت فلسطين بسلاح الموت –يقول نسيم- وستعود بالموت أيضًا، فيضيف جاسر: أعطني وطني وسمِّ الأمر ما شئت، معادلة الورد، قانون القبلات، سلام الملائكة، أعد لي حاكورة جدتي أم حمدان وسأنحني لعدلك احترامًا.

- أعجبت الحكاية نسيم فقال: ولن يكون لمعادلة الموت بالموت مكانًا في قانوننا وسنسقط حق الدم الذي سفكوه من جسد شعبنا طوعًا وبأيدينا، فيبتسم جاسر: وهل سيرضى أجدادنا بذلك؟! فيرد نسيم: ربما إن أعدنا دفنهم مجددًا تحت توتة الدار.

-لقد عملا خمس ساعات متواصلة دون توقف أو تعب حتى وضعا اللمسات الأخيرة في الثالثة ما قبل الفجر وجلسا يتغزلان بمحبوبتيهما، لا

يريـدان الابتعـاد عنهـما، يفصلهما عـن موعد التسـليم بضع سـاعات قليلة ومـا زال هناك شـك بسـيط يقلقهما: لماذا أشـعر بالخوف مـن خلل مفترض لم ننتبـه لـه؟!... يقـول جـاسر وهـو يتنـاول مـع نسـيم طعـام السـحور: الخـوف في حالتنـا –يـرد نسـيم- مطلوب حتى نتـدارك الخلل الـذي لا أراه بعـد عـشرات التجـارب التـي أجريناهـا طيلـة الأيـام التـي سـبقت، فتوكل عـلى اللـه فـكل بدايـة ولهـا رهبتهـا، وسـينتهي كل ذلـك عند رؤية أجسـاد المحتلـين تتطاير في السـماء.



"فيروز، رام الله وعيون الطريق"

صباح الثلاثين من تموز 1997، قبل خمس ساعات

لم أستطع التملص باكرًا من العمل ولم تنجح حيلة المغادرة قبل حضور مسؤول الطاقم الذي سيستلم مني المسؤوليات الداخلية في السجن، وأولها السجناء بعد إجراء العدد الصباحي والتوقيع على ذلك في مفكرة السجن الرسمية ثم عهدة السلاح، كلاشنكوف وثلاثة مسدسات حلواني مصرية الصنع، ظلّ زملاء المهنة يشككون في قدرته حتى قتل أحدنا زميله خطأ وهو يلعب به، غادرت السجن مسرعًا لكسب الوقت المتبقي لي ما قبل استلام الحقيبتين، والمضحك فشلي في الحصول على مغادرة مبكرة بنصف ساعة، في الوقت الذي تم توقيت يوم العملية وفق نظام الدوام لدي.. كتائب القسام توقت عملياتها حسب ساعات العمل لدى أفرادها -قالها خليل مبتسمًا- أظن بأن قادة العدو سيضربون على رؤوسهم عندما يكتشفون ذلك.

- مررت سريعًا على البيت لاستبدال الملابس وترك حجة الغياب، وبذات السرعة توجهت إلى السوق لابتياع حاجيات ضرورية طلبها خليل: يا أخي، لسنا في سعة من الوقت – فأجابني بهدوئه المعتاد: هذه الأمور قبل الخطوات الكبيرة.

– وكالعادة لم أستطع إقناعه بالعدول عن شيء يراه ضرورة وأراه غير

ذلـك، لكـن طلباتـه فتحـت أمامـي بعـض النوافـذ فدخلـت محـل صياغـة للذهـب وابتعـت خاتمًـا ثـم ضربت عـلى جبهتـي: آه، لو خطـرت على بالي سـابقًا لسـافرت إلى مدينـة الخليـل وركبـت حافلة داخلية هنـاك وحصلت عـلى تذكرة!!

وفي التاسـعة - الموعـد الدقيـق لوضـع السـيارة في المـكان المتفـق عليـه – توجهـت إلى المـكان وخشـيتي تسـبقني مـن انكشـافي مسـتقبلًا لكـثرة اسـتخدام السـيارة في النقـاط الميتـة وهـذا مـا تداركنـاه لاحقًـا ولكـن بعـد فـوات الأوان لأن جـاسر قـد شـاهد مهنـد وهـو يقودهـا فلـم يأخـذ وقتًـا للتيقـن بـأن صديقـه وأحد المشـتركين معه قبـل عامين في مجموعـة واحدة تحقـق مـع الخائنـين الـذي يعملون مع المحتـل، يعمل معه مجـددًا ولكن! هـذه المـرة في الجهـاز العسـكري، ولدى مغـادرتي المكان كان معاذ ونسـيم يضعـان الحقيبتـين في السـيارة ويغـادران المـكان حيـث ينتهـي دور دائـرة الهندسـة عنـد هـذه النقطـة مـا دون مهمـة البيـان!

-صعـدت إلى الشـقة أحمـل بـين يـدي الكرتونـة التـي كادت أن تقسـم ظهـري إلى نصفـين مـن شـدة ثقلهـا فاسـتقبلني خليـل ومن خلفـه معاوية وتوفيـق، يمازحنـي مبتسـمًا: أهـلًا بالحامـل والمحمـول، فقلـت والتعـب يتصبـب مـن جبهتـي عرقًـا: خـذوا عنـي والاّ أصبحـت المقتـول، صافحنـي الجميـلان المتألقـان كالنجـوم، لم تصافحنـي يداهـما فحسـب، بـل لهفتهـما التـي تسربـت إلى صـدري وعقـلي، لم يتكلـما كثـيرًا وخليل يطلـب منا نحن الثلاثـة الذهـاب إلى الحـمام بعيـدًا عـن الغرفـة القصيَّـة التـي أدخـل فيهـا الحقيبتـين لفحصهـما، حفاظًـا عـلى سـلامتنا حـال حـدوث مكـروه، وبعـد دقيقتـين اسـتدعانا إليـه: انظـر جيـدًا إليهـا، الدائـرة الكهربائيـة، الشـظايا

-كان يقصد إطلاعي- ربما سيأتي يوم تضطر فيه لصناعة ذلك بيدك.
-كان في غاية السعادة وهو يشرح لي، وبيده ورقة صغيرة كتبها نسيم وجاسر يشرحان فيها الخطوتين اللتين سيقوم بهما الاستشهادي لحظة الصفر وما قبلها، جلسنا بعدها أربعتنا جلسة سريعة أطلعت فيها معاوية وتوفيق على تفاصيل العملية ثم نهضت للمغادرة، وقبل أن أخرج عانقتهما، ضممتهما إلى صدري، زرعتهما في روحي إلى الأبد، لن يفك دفئهما عني كل عوالق الدنيا، ما زالا يسكنان في الفؤاد، لم يحتل مكانهما الأولاد ولن يحتلوا!! أصحيح ما أقول؟! عانق استشهاديًا وستعلم صدق ما أقول.

-وفي انتباهة بسيطة تذكرت الخاتم: فليقسه أحدكما! فضحكا ومعاوية يضعه في إصبع يده اليمنى فقلت: ليس بهذه اليد، ضعه في اليسرى!. فسألني خليل: لماذا اليسرى تحديدًا؟! فأجبته ومعاوية يعطيه لتوفيق لعدم ملاءمة إصبعه له: لأنني نقشت بداخله اسم فيروز وأشك أن أحدًا في يومنا يطلق على ابنته هذا الاسم!

فاستغرب خليل: ألا تشرح لنا أحجيتك؟!

-الخاتم في اليسار للمتزوجين، ومخابرات العدو ستمكث سنوات وهي تبحث عن رجل كبير اسم زوجته فيروز.

-استقليت سيارة عمومية كأي مسافر عادي، تنقل الركاب إلى مدينة رام الله بعد لقائي السريع بمهند الطاهر حيث ضبطنا الساعة مع الفوارق الزمنية والطوارئ، لتنفيذ الخطة وفق المرسوم، وقد وصلت في الوقت المفترض دون ملاحظة أي حركة مشبوهة لقوات العدو على الطريق،.

لم أمكث في رام الله سوى دقائق معدودة لأنني سافرت مباشرة باتجاه القدس مرورًا بالطرق التي سنسلكها لاحقًا، وفي ذات اللحظة التي كنت أنطلق فيها من رام الله، كان مهند يسافر من نابلس إلى رام الله لمراقبة الطريق مجددًا حتى لا يغير العدو روتينه أو يفعل شيئًا غير محسوب، وبمجرد وصوله إلى رام الله عاد مجددًا إلى نابس مستقلًا سيارة أخرى متخذًا التمويه المطلوب، وبدوري كنت أرجع من القدس إلى رام الله بعد تمشيط الطريق مرتين، وفي توقيت زمني محدد اتصلت بمهند في بيته مستخدمًا الشيفرة الكلامية المكونة من العبارات التي اعتدنا تداولها فيما بيننا في العلاقة الاجتماعية ومفادها: أرسل الاستشهادي الأول.



"الطريق الى شارع يافا"

قبل ثلاث ساعات!

- كان السهر مع الاستشهاديين عظيمًا، لم يتكلم فيها خليل كثيرًا، كفته أنفاس معاوية وتوفيق اللذين تحاورا عن الشهادة والجنة، لم يشأ أن يعبث بحكايتهما الرائعة، روايتهما المكتوبة بالدم الزكي، فضحك على ضحكهما، هزته كل همسة تخرج من فمهما، كان رجاؤه منهما واحدًا لا غير: اشفعا لي عند الله -عز وجل- فالشهيد يشفع لسبعين من أهله.

يقول معاوية وهو يرسم خطّاً وهميّاً بيده: غداً ونحن على أبواب الجنة والشهداء يقاطرون إليها كلّ يأخذ مكانه الذي وُعِد به يأتي دورنا فيخرج علينا القائد الأعظم والنبي الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم واضعاً راحتيه على كتفينا مستأذناً ملائكة الرحمن...

انفعل توفيق مكملاً الحديث: هذان صاحبيّ يدخلان الفردوس الأعلى برفقتي, لقد صدقا الله فذادا عني بدمهما وحانت لحظة الوفاء والاصطفاء.

- وفي الصباح، ما بعد مغادرتي بقليل حضر مهند إلى الشقة لإتمام ما فشلنا في الحصول عليه ليلًا: حذاءان بلونين مختلفين يناسبان ثياب المجاهدين.

-فطلب خليل أن يتريث قليلًا: ساعدني بتنظيف الملابس والأحذية!

- فتفاجأ مهند: جميعها جديدة ومن النوع الفاخر؟

- أقصد العلامات التجارية «الماركات» وأي شيء يدل على مصدرها.

لم يشأ خليل إشغال معاوية وتوفيق بأي شيء ما دون الاستعداد للعملية رغم تعاملهما الطبيعي وتصرفهما اللافت للانتباه: دعنا نساعدك، لا تشعرنا بأننا سنموت بعد قليل؟!.

- فنظر خليل ومهند إلى وجهيهما معًا وظنَّا بأنهما يتحدثان بجدية، فضحك معاوية وتوفيق: لم نكذبكما فنحن لن نموت -يقول توفيق- بل سنلقى الله شهداء والشهداء لا يموتون، ألم تسمعا قول الله -عز وجل- «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات، بل أحياء ولكن لا تشعرون». يخبرني مهند لاحقًا: لقد قرأت ورددت الآية آلاف المرات، فلما سمعتها من توفيق، شعرت أنني اسمعها لأول مرة.

- قام خليل بأمور وقائية عديدة، تمزيق القشرة الجلدية الخارجية لأصابعهما تمويهًا للبصمات ثم طلي الأصابع بمادة لاصقة شفافة «سوبرجلو»، على الرغم من أنهما لم يعتقلا قبل ذلك لدى الاحتلال فلا بصمات مسجلة لديه، وخليل يخبرني لاحقًا باحتياطاته التمويهية تلك، أخبرته بفكرة التذكرة: الحصول على تذكرة راكب في إحدى حافلات الخليل الداخلية ووضعها في جيبة الاستشهادي.

- لكننا للأسف لم نستخدمها غير أن خليل استخدم تمويهًا آخر عندما وضع نقودًا أردنية إلى جانب عملة العدو -الشيقل- المستخدمة في الأراضي المحتلة قسرًا.

- ولما تلقى مهند الإشارة مني لإرسال الاستشهادي، تحرك فورًا إلى غرفة العمليات في حي المخفية وأقلَّ معاوية متجهًا به قرب فندق القصر المحاذي لجامعة النجاح الوطنية، ومن تلفون عمومي في الشارع اتصل بمكتب سفريات نابلس -رام الله-: أريد سيارة فارغة حالًا تقلني إلى مدينة رام الله، سأنتظر أمام فندق القصر.

- لم يمض على الاتصال سوى دقائق معدودة حتى وصلت السيارة، حيث كان مهند يراقب ذلك من إحدى زوايا الفندق الخارجية، المكان الذي ركن فيه، فأعطى الإشارة لمعاوية بالتحرك بعد أن صافحه للمرة الثانية بحرارة: وفقك الله، لا تنسَني من الشفاعة.

- فابتسم معاوية وهو يخرج من أحد أبواب الفندق الأمامية ويركب في الكرسي الخلفي كأي شخصية مهمة مرتديًا بدلة رسمية سوداء بربطة عنق مناسبة، وعلى عينيه نظارة شمسية فخمة وبيده حقيبة دبلوماسية سوداء من الحجم الكبير! من فضلك، أوصلني إلى رام الله بسرعة لا وقت لدي لتضييعه ولا تأخذ أحدًا، سأدفع لك أجرة السبعة ركاب.

- كانت المرة الأولى التي تغير فيها كتائب القسام تكتيكات العمل، حيث اعتاد المجاهدون نقل الاستشهاديين بسيارات خاصة الأمر الذي كان مكشوفًا للعدو، لذلك كان الرأي بيني وبين خليل أن نستخدم المواصلات العامة: ما الفرق بين الاستشهادي وأي مسافر آخر مادام الاستشهادي متخفيًا؟!

- فأجابني خليل وهو ينقر بالقلم على الخريطة: لكننا سنعرض حياة المسافرين للخطر؟! فقلت: سيكون لوحده مع السائق. فسأل وعيناه جاحظتان للأعلى: والسائق؟!

فأجبتـه: يـا أبـا محمـد لكل عمـل مخاطـرة واختيارنـا للسـيارات العمومية لـه أسـبابه الوجيهـة وأولهـا امتلاك السـائقين لأداة تواصل فيـما بينهم حال وجـود حواجـز لجيـش الاحتـلال وشرطتـه، الأمـر الـذي سيسـاعد المجاهـد للتـصرف بسرعـة، أما إن تعـرض لشيء مفاجئ...! قاطعنـي خليل: لا تكمل، أنـا موافـق عـلى الاقتراح ونسـأل الله السـلامة.

-كان معاويـة يـودع المدينـة بعينيـه يلقـي عـلى جبالهـا الشـامخة سـلامه الأخـير، سيبتسـم وأطـراف جبـل عيبال الشرقيـة تختفي خلفه بـكل ما فيها مـن حكايـا، لكـن حكايـة القرعة كانـت أبلغهـا فدفعته إلى الضحـك، فنظر السـائق نحـوه في المـرآة قائـلًا في نفسـه: ماذا يمنعك أن تضحـك وأنت تملك شركـة وربمـا شركات؟! أراهـن بقـوت عيـالي أن حقيبتك مليئـة بالنقود «إلي طعـماك يطعمنا»!!

- أمـا معاويـة فعـاد إلى يـوم القرعة ومحمـود يحث أربعتهم عـلى التوافق ولا أحـد يتنـازل عـن تنفيـذ العمليـة الأولى حتـى فجّـر محمـود قنبلتـه: العمليـة مزدوجة.

-فـدبّ الضحـك بـين الخمسـة وأربعتهـم يعاتبون محمـود: ولمـاذا أخفيت عنـا؟! فأجـاب: ظننـت بأننـي ربمـا أسـتطيع حـل الخـلاف بطريقـة مـا، لكننـي فشـلت.

-فسـأله يوسـف وبشـار يجلـس إلى جانبـه: والآن؟! فقـال: سـنجري القرعة عـلى مرحلتـين حتـى نشـكل... فقـال يوسـف مقاطعًـا: لا ضرورة لذلـك، فأنـا وبشـار سـننفذ العمليـة ولا داعـي للمراحـل! فهـاج معاويـة وتوفيـق وماجـا، وكأنهـما بحر هـادر: لن ينفذها غيرنـا، أنتما تعلمان جيدًا اسـتحالة تقدمكـما علينا.

فتدخل بشار: لماذا أشعر بأنك تحلم ولم تستيقظ من النوم بعد؟!

فـرد توفيـق الذي حسـم أمـره إلى جانب معاوية: دعونا ننفذ أولًا وسـتريان ما سـيحدث فلربما تغـيران رأيكما؟!

- فاستشـاطا غضبًـا وكادوا يتعاركـون بالأيـدي مـا بـين المـزاح والجـد، ومحمـود هـادئ يسـتمع إليهـم، ولمـا كاد الأمـر أن يخـرج عـن السـيطرة، قـال: سـتقبلون بنتائـج القرعة؟ صمت الأربعـة ولم يجيبوا، فعاود السـؤال: سـتقبلون بالنتائـج أم لا؟!

فقـال يوسـف وبشـار عـلى مضـض: سـنقبل شريطـة أن يقبـل معاويـة وتوفيـق.

ولمـا حصلـت الموافقـة الجماعيـة، أخـرج محمود مـن جيبه عملـة معدنية وطلـب مـن الطرفـين اختيـار الوجـه الـذي يريدانـه، فكانـت الشـجرة مـن نصيب يوسـف وبشـار والرقـم للطرف الآخر: أقول وأحـذّر للمرة الأخيرة...! فقاطعـه معاويـة: باللـه عليـك أن ترميهـا بالهواء وتنهـي عذابنا.

- ففعـل محمـود وقذفهـا للأعلى فـدارت بالهواء والأعين والقلـوب والأرواح ترقبهـا والألسـن تلهـج بالدعاء والرجـاء والإطناب، ولما سـقطت على الأرض ابيضـت وجوه واسـودت أخـرى: الله أكبر وللـه الحمد.

-كـبّر يوسـف وبشـار فقـد ضحكت لهـما الشـجرة وعانقا بعضهـما والدمع ينفـر مـن عيونهـما، فصـاح معاويـة مسـتنكرًا بشـدّة: هـذه قرعـة غـير صحيحـة!

فسـأله محمـود وكان يعلـم في قـرارة نفسـه أن معاويـة وتوفيـق لـن يمـررا القرعـة بسـهولة: لقـد رأيـت الشـجرة بعينيـك وعليـك القبـول. - فأجـاب

بسرعـة: العملـة كانـت مائلـة لأن الـتراب غـير مسـتو، عليك إعـادة القرعة مـرة أخـرى في مـكان ترابه مسـهمد.

-فاسـتنكر يوسـف وبشـار ذلك وعاد النقـاش إلى نقطة الصفـر حتى اقتنعا بإعـادة القرعـة، ومـرة ثانية ظهرت الشـجرة فقال محمـود: انتهى الأمر...

فوقـف معاويـة وتوفيـق عـلى أقدامهـما: إذا أردتما أن تخـسرا أخوتنا وحبنا لكـما في اللـه وتذهبـا ونحـن لسـنا راضيـين وربما سـبقناكما بعمليـة إطلاق نـار نستشـهد فيهـا وينتهي الأمـر، فنفـذا العملية.

-فبـكى يوسـف وبشـار تبعهما محمود الـذي تأثر من المشـهد، لكن معاوية وتوفيـق اللذيـن تصنعـا البـكاء، كانـا يضحـكان مـن داخلهما فقـد نجحت خطتهـما بتنـازل يوسـف وبشـار وفوزهما بالـشيء الذي لا إيثـار فيه.

-جلسـت أنتظـر في غرفـة صغـيرة تطـل على الشـارع العـام وسـط رام الله، كانـت بالأمـس القريـب مكتـب سـفريات رام اللـه –نابلس قبـل أن ينتقل إلى مقـره الجديد وما زال مقصدًا لسـكان شـمال الضفـة الغربية رغم خلوه الدائـم مـن النـاس باسـتثناء موظـف غير ثابـت فهم أننـي بانتظـار وصول أحـد أفـراد عائلتـي، وبعـد خمسـة وأربعـين دقيقـة وصلت سـيارة معاوية الـذي سـبق وأن طلـب مـن السـائق انزالـه قـرب المكتب حيث كنت أسـير في الشـارع متعمـدًا عـدم المكـوث داخـل المكتب: السـلام عليكم.

- صافحتـه بحـرارة صادقًـا رغـم حركتـي التمويهيـة فبادلنـي ذات الأمـر: وعليكـم السـلام.

- كان أنيقًـا جـدًا ومرتبًـا إلى درجـة أذهلتنـي فأنـت تخطـط وتشـتري وتتخيـل بعيـدًا عـن النـاس ولكـن عندمـا تـرى الجهـد يتحـرك في الميـدان

فإما أن تحبط لسوء الإخراج وإما أن تطير فرحًا في السماء، وعلى الفور، توجهت للهاتف العمومي وأعطيت إشارة الاستقبال بنجاح طالبًا إرسال توفيق، حيث قام مهند بذات الخطوات التي فعلها مع معاوية وبدوري جلست ومعاوية داخل المكتب والحقيبة الدبلوماسية التي كانوا يطلقون عليها «حقيبة جيمس بوند» إلى جانبه، فالناظر إليها لا يمكن أن يتبادر إلى ذهنه شيء مريب، إتقان من الدرجة الأولى: كيف كانت الطريق؟! سألته لكسر صمت الكلام رغم الابتسامات المتبادلة التي لم تتوقف، فأجابني بهدوء: سهلة والحمد لله.

- لا أهتدي لوصف يستطيع تفسير شعوري في تلك اللحظة وأنا أجلس إلى جانب شهيد ما زال يتحرك أمامي، أحتك به، ألامسه دون قصد: يا الله! هذه أصعب الامتحانات الشعورية، ماذا أفعل؟ أبكي على رجل بأمّة يقدم روحه لفكرته وقضيته فلا أستبدله بكل العالم، أم أفرح لفدائي سيعيد للمظلومين ابتسامتهم؟! وفجأة ونحن ننظر إلى المارة في الطريق وكان معاوية يرى هذا الكم الهائل من الناس للمرة الأولى منذ عامين زمن اختفائه وإخوانه عن الأنظار، لفت انتباهي: انظر انظر، كان يشير إلى اثنين من عساكر السلطة من جهاز الاستخبارات العسكرية يمرون على بعد أمتار منا: هذان من قريتي عصيرة الشمالية! يخبرني بانفعال: كانا في صفي المدرسي!

- تفاعلت معه، أشعرته باهتمامي الكامل رغم حالة التوتر الداخلي التي تعصف بي وتزداد كلما تقدم موعد العملية وازدادت معه المسؤولية في عنقي: هل تظن بأنهما سيعودان من هنا؟! -سألني حذرًا: لست متأكدًا ومع ذلك يجب أن ننتبه كي لا يرياك.

– فضحك: بالقدر الذي أخشى فيه كشفي في هذه اللحظة الحساسة إلا أنني سعيد جدا برؤية شباب من بلدتي حتى لو كانا من السلطة التي اعتقلتني.

- كان الوقت ثقيلًا يمضي ببطء شديد وقد زاد حر تموز من حرارة الموقف الصعب الذي كنت أحياه وأنا أرى الدقائق المتبقية لوصول توفيق، سنوات من العذاب النفسي حتى جاء الفرج بوصوله سالمًا، فتوجهت من فوري إلى الهاتف العمومي وأعطيت الإشارة الأخيرة مع رسول غرفة العمليات، مهند، وبات عليّ منذ تلك اللحظة التي قطعت فيها الاتصال بنابلس أن أتحرك لوحدي بالاستشهاديين نحو الهدف.



سوق "محني يهودا" وجراح "دير ياسين"

قبل نصف ساعة

كانت الأرض ترتج من تحت قدميّ، تهزني كلما تقدمتُ خطوة إلى الأمام، تريحني ابتسامة توفيق الذي كان يسير منتصباً مُداعباً توتري الذي لا يراه: شككت للحظةٍ أنني لن أراك!

- قالها ونحن نسير مسافة قصيرة باتجاه محطة سيارات القدس والرصيف مليء بالمارة كالعادة: لقد أخبرك خليل بأنني آخِر..! وسكتّ فرد بسرعة ونحن نعبر الشارع إلى رصيف القدس وكأنه يريد طمأنتي: أعرف، أعرف لكنني خشيت ذلك، فقال معاوية الذي يوشك أن ينطق الضحك من وجهه: وهل يصح بأن نرحل دون وداع مدير أعمالنا؟!

لم أستطع الكلام، انخرس لساني الذي يجب أن يبقى صامتاً في حضرة الشهداء، كنت أهرب من النظر في عيونهما، شجاعتهما، وعيهما وابتسامتهما التي تلخص التضحية، ولما وصلنا السائقين قلت: أُريد سيارةً لباب العمود دون ركاب.- فحدثت جلبةٌ بين ثلاثة منهم، يتشاجرون على الدور فلن يضطر الظافر بنا للانتظار حتى تمتلئ سيارته بأربعة ركاب إضافيين فكانت المفاجأة: ما هذا؟! نحن مستعجلون وأنتم تتشاجرون؟ - قالها توفيق بجدية- فليقلنا أحدكم وينتهي الأمر؟!

لم نملك أنا ومعاوية، ونحن نستدير للركوب مع أحد الثلاثة سوى

الابتسـام فقـد تـصرف بتلقائية مقنعة أنهـت الخلاف فـوراً ولم تنه ما يدور في رأسي، أصحيـحٌ ما أرى وأسـمع؟! هل سـيصدقني العـالم عندما أروي لهم فصـول الحكايـة؟! لا يهـم، فالأهـم أننـي أشـهد عـلى عظمـة المقاتـل الذي يـذود بدمـه ونفسـه مـن أجـل...! قطـع سرحـاني ونحن نخـرج مـن مدينة رام اللـه باتجـاه بلـدة الـرام، صـوت السـائق الضفـاوي: سنسـلك الطريـق الثانيـة فهـي أكـثر أمنـاً ؛ وقـد علـم ضمنيـاً بأننـا لا نملـك تصاريـح دخـول للقـدس بمجـرد ركوبنا في سـيارته وليس في السـيارات التـي تحمل اللوحات الصفـراء المقدسـية: لا بـأس مـا دامـت الشرطة لـن تعيدنا فموعـد اجتماع الشركـة يوشـك عـلى البدء!!

– وبعـد مرورنـا مـن جانـب مخيـم قلنديـا لأهلنـا اللاجئـين، انعطـف بنـا السـائق يسـاراً مـن خلـف بلـدة الـرام متجـاوزاً بذلـك الطريـق الأماميـة الواصلـة إلى حاجـز الضاحيـة، سـالكاً الطريـق المؤديـة إلى بلـدة عناتـا متجـاوزاً أكبر مسـتوطنة صهيونيـة مغتصبة لأراضي مدينة القدس وتسـمى «معـالي أدوميـم»، وبعـد أقـل مـن ربـع سـاعة مـن السـفر، دخلنـا قريـة عناتـا ثـم وصلنـا مخيـم شـعفاط، شـمال القدس، وهـو ثاني مخيـم للاجئين الفلسـطينيين المهجريـن مـن مدنهـم وقراهم، في مدينة القـدس بعد مخيم قلنديـا، وعنـد نقطـة محـددة بدايـة المخيـم مـن الجهـة الأُخـرى، قطـع السـائق الشـارع الرئيـس المـؤدي إلى مسـتوطنة «معـالي أدوميـم» صاعـداً فـوق الجـسر الـذي يطـل عـلى التلـة الفرنسـية، لحظتهـا، واللسـان يدعـو اللـه عـز وجـل أن يسـهل أمرنـا، نظـرت إلى الخلـف وقـد كنـت جالسـاً إلى جانـب السـائق، حتـى أراهـما فكانا عـلى حالتهما الأولى، هادئين مبتسـمين يسـتمتعان بمشـاهدة قدسـهم التـي يرونهـا للمـرة الأخـيرة، لم أنتظـر شـيئاً آخـر، لم يسـاورني شـك في عزمهما الوقـاد وإقدامهما المدهش، فقد شـهدت

لهما السماء والأرض أنهما من نوع خاصٍ جداً يرى الموت شهادة وبشهادته يقترب إلى تراب حيفا ويافا أكثر، لكنني وددت لو شاركني كل العالم بتلك اللحظات....!

مررنا بعدها على حي الشيخ جراح ولم نلبث سوى بضع دقائق حتى حطت السيارة وسط باب العامود وبعض جنود جيش الاحتلال غير بعيدين عنا يتجولون كالمعتاد في المكان، فأسرعت بإيقاف سيارة تحمل اللوحة الصفراء المطلوبة للهدف: من فضلك، هل توصلنا إلى شارع يافا؟!ـ فرد السائق العربي: وهل تعرف أين ستنزلون بالضبط، فشارع يافا كبير؟!ـ فأجبته بكل ثقة: قرب سوق محني يهودا!!.

صعد معاوية وتوفيق في الخلف وأنا إلى جانب السائق فقلت في نفسي والسيارة تتحرك صعوداً باتجاه باب الجديد قبالة شارع يافا: بضع مئاتٍ من الأمتار وسنكون في ساحة العدو حيث لا خوف من شيء حال إيقافنا وكانت تلك مشكلتنا أثناء التحرك من نابلس حتى باب العامود، أن يضطر المجاهدان لاستخدام الحقائب فيتسبب بذلك بخسائر في صفوف شعبنا لأن كلا الاستشهاديين لن يستسلما، لذلك زودهما خليل بولاعة صغيرة حال فشل الدائرة الكهربائية بالعمل.

وفي اللحظة التي أصبحنا فيها داخل شارع يافا والصهاينة ينتشرون في كل مكان على مرأى العين، قلت لمعاوية وتوفيق وأنا ألتفت نحوهما: جهزا الأوراق حتى لا يحصل معكما أي مشكلة!!.ـ حينها فقط، شعرت بالخوف على حقيقته فنطقت الشهادتين في صدري وأنا أرى المقاتلين يفتحان حقيبتهما فتفوح رائحة «أم العبد» القوية رغم تغليفها بالبلاستيك، وينزعان سلك الأمان الذي لم يكن بالإمكان نزعه في غير

هـذا المـكان لأنـه الضامـن الأول لعـدم انفجـار الحقيبة حال اصطـدام اليد بالكبسـة الرئيسـة عـلى جسـد العبـوة، وأعلـم أن نسـيم وجـاسر لم يجعـلا إمكانيـة مـا أقول سـهل الحـدوث لكنهما بالقطـع لم يكونا قبلهـا في موقف شـبيه بموقفـي يجعلنـي أشـعر بأننـي والشـباب سـنصبح أشـلاء في المـكان، لا بـأس، حينهـا لـن نكـون خسـارة لأننا سـنأخذ مـن حولنا بعـض الصهاينة المحتلـين، سرقـت نظـرة خاطفـة أُخـرى للخلـف فوجـدت معاويـة يسـاعد توفيـق بإغـلاق حقيبتـه، حينهـا فقـط أعطـاني معاويـة إشـارة الجهوزيـة وإنجـاز المهمـة الأولى وبعـد مسـافة من السـفر مررنا فيها عـن طريق «بن يهـودا» والمفـترق الرئيـس، وصلنـا قبالة سـوق محنـي يهودا، معقـل اليمين الصهيـوني المتطرف.

وكان عـلى يسـارنا، فـأشرت لهـما بيدي إلى مدخل السـوق قائلاً: هنا سـيأتي حاييـم لأخذكـما إلى الشركـة!. - وطلبـت مـن السـائق التوقـف لإنزالهـما، فنظـر إليّ معاويـة مسـتغرباً يسـألني بعينيـه: لم تكـن الخطـة هكذا؟!

- حيـث كان مـن المفـترض أن أزعـم أمـام السـائق أن حاييـم لم يـأتِ بعـد فيذهـب بنـا في جولـةٍ بسـيطة قبـل أن يعـود مجـدداً إلى السـوق فيكـون معاويـة وتوفيـق قـد شـاهدا الموقـع جيـداً، لكننـي غـيرت الخطـة ميدانيـاً لاكتشـافي عـدم وجـود ضرورة كفعـل ذلـك فأومـأت لهـما بـرأسي وعينـيَّ مبتسـماً: انـزلا الآن وانتظـراه أمـام السـوق.

- فالتقـت أعيننـا الثلاثـة في آخـرة نظرةٍ أشـبعت فيها قلبـي وروحي منهما وصافحتهـما وهـما ينـزلان بهـدوء ويقطعـا الشـارع باتجاه السـوق، عندها طلبـت مـن السـائق إعـادتي إلى بـاب العامود فاسـتغرب: ألن تنـزل معهم، لقـد أخبرتني...!

فقاطعتـه: لا تقلـق، سـأعطيك أجـر إعـادتي فرجوعـي ضروري لاسـتقبال طـلاب آخريـن.

- عـاودت النظـر للخلـف مـرةً أخـيرة والسـيارة تبتعـد عن المـكان فرأيتهما يُسرعـان بثقـة نحو السـوق، ويتقدمـان كجيش يقتحم حصـن العدو المنيع فخفـق قلبـي واشـتدت الحماسـة في دمـي فالملحمـة توشـك أن تحـدث وعـلى جـراح ديـر ياسـين أن تندمل.

أشـار معاويـة بـكلا إصبعيـه لتوفيـق: الخطـة الثانيـة!. فدخلا معاً السـوق الممتـد عميقـاً بعـد أن فشـلت الخطـة الأولى والقاضيـة بتفجـير معاويـة لحقيبتـه عـلى المدخـل حيـث يتجمـع الصهاينـة المحتلـون عـادة بانتظـار الحافلـة الكبـيرة بعـد خروجهـم مـن السـوق أما توفيـق فينفـذ في الداخل حاصـداً أرواح الغاصبـين من المتسـوقين والهاربين من جحيـم معاوية، لكن المحطـة كانـت خالية من الـركاب فدخلا معاً حيث سـيكتبان بالدم حروف الوطـن السـليب، وتوزعـا داخل الممر الضيـق والممتلئ بالجنـود والموظفين وجيـش الاحتيـاط فـكل سـاكن ببلـدي دون إرادتي غاصـب محتـل كتـب شـهادة موتـه بنفسـه، فـلا يكتفـي نسـاؤهم ورجالهـم بالخدمـة الإجبارية في الجيـش الـذي يقتلنـا كل يـوم بـل يبقى الذكـور في جيـش الاحتياط بعد تسريحهـم فيخدمـون شـهورًا معـدودة كل عـام، فـكل مـن في السـوق قـد شرب مـن دمنـا وارتـوى وحانت سـاعة الحسـاب!

- كان معاويـة يتصنـع التسـوق وعينـه ترقـب توفيـق الـذي تموضـع بعيداً في عمـق السـوق، تحيطـه كراهيـة الكـون الناطقـة بالعبرية التـي لا يتقنها لكنـه يعـرف جيداً جرائـم ناطقيها، تلتصـق أحرفها في وعيه مُنـذ كان طفلاً والجنـود يهينـون الكبـار والصغـار عـلى الحواجـز، لكـن يغيـظ توفيق على

الجهة الأُخرى من السوق وهو يرى صورة شيطانهم «بنيامين نتنياهو» معلقة على كثير من المحال وقد أقسم أن يحيل ابتسامته الوقحة إلى بكاءٍ من دم، فنظر باتجاه معاوية: هيا يا أخي، هيا لنقرع أبواب بيسان بجماجمهم.- كان يعلم بأن التنفيذ لم يحن بعد وأن الإشارة لابد آتية بعد لحظات وبينما تنتهي الدقائق الممنوحة لي حتى أخرج من القدس العربية بسلام، وفي لحظة كانت فيها الجنة عروساً تنتظر على أبواب السماء وملائكة ربي يسرجون أحصنة الفردوس الأعلى لزفة العريسين ابتسم معاوية وهو يرفع حقيبتهُ للأعلى مردداً: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى- بسم الله».

فتمزق الصمت واحترقت أجساد الصهاينة وتناثرت أجسادهم في كل مكان، جحيم من نارٍ وشظايا مجبولٌ بغضب لا يوقفه أحد، أما توفيق، عاشق الحكايا الجميلة ومطاردها من أفواه الجدات وصانعها في القدس حتى ترويها الأجيال، لم تمنحه ثائرة غضبهِ الفلسطينية واستجابته للشهادة كثيراً ريثما يتجمع الصهاينة وفق الخطة، فرفع حقيبة العودة إلى يافا مردداً ودموع الفرحة في عينيه «وما رميت إذ رميت ولكنَّ الله رمى- بسم الله» فزغرد سهلُ مرج بن عامر وصهلت خيول حطين وعين جالوت، قد فعلها بصورةٍ مثالية حطمت الساحة الآمنة للعدو، فاجأته للمرة الأولى في أشهر أسواقه، فلم يعد الموت محتوماً على الفلسطيني لوحده في شوارعه وبيوته ومدارسه وحواريه وحتى أسرة نومه، مزقت شظايا قنبلته البشرية كل الغزاة المتواجدين والهاربين من ويلات معاوية، كتلة من الجحيم والنار أحالت السوق إلى موت وعويلٍ وصراخ، وفي هذ اللحظات من الملحمة كان السائق يوشك أن يخرج بي إلى القدس الشرقية عبر حي المصرارة، عندما بدأت سيارات الإطفاء

وقـوات الاحتـلال بالدخول إلى الشـطر الغـربي للمدينة، فتصنعـت الذهول سـائلاً سـائقي: مـاذا يحدث؟! فأجابني بخبرته دون تـردد: يبدو أنها عملية. فقلـت وقلبـي يـكاد أن يقفـز مـن صـدري فرحـاً: يـا إلهـي مـاذا سـيحدث للمندوبـيْن؟! لم أدرِ حينهـا مـاذا أطلقـت عليهـما، طالبيْن، مندوبـيْن، لم يكن مهماً بقدر أهمية الانفجار الذي لم أسـتطع سـماعه بسـبب إغلاق السـائق للنوافـذ وتشـغيل التبريـد لإخـماد حـر الصيف، ورغـم ذلـك، تمكنت خلال الدقيقـة الأولى بعـد التفجـير من رصـد تحرك العدو السريـع والمذهل، فقد تحـول أشـخاص يمـرون بجانبنـا إلى عنـاصر مُسـلحة بالمسدسـات يتلقـون الأوامـر باللاسـلكي غير أنهـم لم يكونوا بقـدر سرعتنا واختراقنـا لقلعة أمنهم الحصينـة، فقـد حطمنـا أُسـطورة أمنهم في عمليـة نوعية تحـدث لأول مرة بهـذا الشـكل المـزدوج وفي مـكان غـير متوقع سيؤسـس إلى مرحلـة جديدة سـيضطر فيهـا العـدو إلى تخيلنـا نفجـر لـه حتـى أسرة أحلامه.

خرجـت السـيارة بي إلى بـاب العامـود ومـا زالت قوات العـدو وأجهزة أمنه المختلفـة تتدفـق باتجـاه شـارع يافـا، يشـغلني أمـرٌ واحـد لم أتحقـق منه: هـل نجـح معاويـة وتوفيـق بالتفجـير المـزدوج، أم أن أحدهـما نجـح ولم يفعلهـا الآخر؟!

لا بـأس- قلـت وأنـا أتحـرك بـين النـاس بحثًـا عـن سـيارة تقلنـي إلى رام اللـه، سأسـتعد للخيـار الأسـوأ وأنـزل في بلدة الـرام وفوق الخطة المرسـومة لانتظـار الاستشـهادي الـذي فشـلت عمليتـه، ولكـن اللـه -عـز وجـل- لـن يخذلنـا، يـا اللـه أعنَّـا أغثنـا، نـصرك الـذي وعـدت عبـادك المظلومـين.

- لقـد تحولـت الفرحـة إلى خـوف لحظـي رغـم أخذنـا لجميـع الأسـباب التـي تمنـع حـدوث ذلـك، ولم أدرِ حينهـا أن الفارسـين قـد امتطيـا صهـوة

جواديهـما إلى العليـاء ويخاطبـاني مبتسـمين، مـاذا؟ بـل ضاحكـين: «هـون عليـك وأنصـت جيـدًا إلى طقطقـة أبوابهـا صفـد».

- أشـد مـا أزعجنـي وأنا أجلس في السـيارة الممتلئة بالـركاب بانتظار مجيء السـائق الـذي شـغله أمـر بـلادة أحـد الـركاب: مـن فضلـك، أدر مفتـاح الراديـو عـلى الأخبـار! فالتفـت نحـوي بوجـه عبـوس مـليء بالبـؤس: وهل أعمـل عندك؟

فابتلعـت غيظـي ولم أجبـه حتـى دخـل السـائق مسرعـاً: يجـب أن نـسرع قبـل أن يغلقـوا الحاجـز ونقـع بالمشـاكل.

- فسـأله الراكـب النكـد العبـوس الذي وددت أن أصفعه عـلى رقبته: ولماذا يغلقـون الحاجـز؟! فأجابه السـائق وهو يتحرك بنا: ألم تسـمع بالعملية؟!

- فتحول إلى شخص آخر: عملية؟!

- عندهـا غـيرت رأيـي تجاهـه لمـا شـاهدت ملامحـه تتحـول بسرعـة ويده تذهـب مبـاشرة إلى مفتـاح الراديـو: عملية تفجـير إرهابية في سـوق محني يهـودا، والمعلومـات الأوليـة تفيـد بأنها صعبـة وسـنفيدكم بالتفاصيل حال ورودها.

- كانـت الهزيمـة تختلـط بكلـمات المذيـع في صوت العـدو باللغـة العربية، تشـاهد المـوت من خـلال صوته، لكن ذلك لم يسـاهم في تهدئتـي، أفرحني جـداً نعـم، لكننـي بحاجـة إلى كلمـة مزدوجـة، ثنائيـة، انفجاريـن، زلزالين، لا يهـم فالأهـم أن ينطقـوا بهـا، ولمّـا كنـا نخرج مـن الحاجز الـذي لم يغلق بعـد والأزمـة تطحـن في المـكان والراديـو يبـث أخبـاراً تحـوم حـول الخـبر الأول، قـال المذيـع: «أعلـن الناطـق باسـم شرطـة «العاصمـة» أن تفجيرين

انتحاريـن وقعـا بعـد الظهـيرة في سـوق محنـي يهـودا، أوقعـا ثمانيـة عـشر قتيـلًا وعـشرات الإصابات في صفوف المتسـوقين...» حينهـا، لم أتمالك نفسي، حطمـت القواعـد الأمنيـة، ألقيتهـا مـن النافـذة وهتـاف: الله أكـبر- يخرج مـن صـدري فينطقـه فمـي، وبائـع للخضـار في مفـترق الـرام يـصرخ كـما فعلـت: اللـه أكـبر- فزلـزل أوصـالي لـولا نظـراتُ الـركاب التـي توجهـت بتلقائيـة نحـوي فأيقظتنـي لقفـزت مـن النافـذة فرحـاً وانتصـاراً، فقلـت متـداركاً بطريقـة مختلفـة: اللـه أكـبر: ستفشـل عمليـة السـلام الآن.

- لكـن عبـارتي الأخـيرة والوقائيـة أظنهـا زادت مـن قـرف النـاس الحانقـين عـلى هـذا الواقـع والـذي تزيـده عمليـة السـلام المزعـوم سـوءًا.

كانـت مدينـة رام اللـه التـي وصلتها بسرعـة، تُضجُّ بأخبـار العملية، ترقص عـلى موسـيقى الشـهادة، تنتقـم فرحًـا مـن غطرسـة عـدوٍ لا يرحـم، التجار والسـائقون والمـارة وكلُّ النـاس يتحدثـون، يحللـون، يباركون، كفـاني حينها ذلـك.. هـذا مـا أراده معاويـة وتوفيق أن ترتسـم البسـمة على وجـوه أبناء شـعبنا مجدداً.

فطـارت قدمـاي إلى الهاتف العمومي تسـبقني بشـائر النصر في كل وسـائل الإعـلام المحليـة والدوليـة، همـي مـا قبـل الأخير طمأنـة خليـل ومهند على انسـحابي بسـلام: سـأكون بطرفكم بعد سـاعة.



"استراحة المهندس وسرقة الدماء!"

مرت الساعة الأولى على الملحمة فأصبحت العملية حديث العالم بأسره، تلغي وزيرة خارجية الولايات المتحدة الأمريكية «مادلين أولبرايت» زيارتها المزمعة لدولة الاحتلال ويبدأ النفاق «الرسمي» العالمي بشجب العملية وبلعق حذاء أمريكا الناظم لإيقاع الظلم في العالم والحامية لمشروع الاحتلال على أرضنا، ثم تطعنك يدك في صدرك، تدميك تؤلمك تبكيك: نستنكر ونشجب هذه العملية الإرهابية!!

- يصرّح الناطق الرسمي باسم السلطة الفلسطينية، لقد حسم المال السياسي موقفه فانحاز إلى طرف جلاده، وإن لم يفعل، نعتوه برعاية الإرهاب وقطعوا عنه حنفية النقود، لكنه رغم ذلك سيتلقى الشتائم من طرف أصبح رأيه، مشاعره، مصلحته في أدنى سلم أولوياته: «صحيح إنه ما في عندك دم ولا ذوق». - تخاطبه أم الشهيد وهي تتابع أخبار العملية على شاشة التلفاز «مش قادر تحمي الناس ولا تاخذ بثارهم، ليش ما تقعد ساكت وتخلي الأبطال تفش غلنا؟!». الشعب، غرس الوطن، أوتاده، ملحه تاريخه، تراثه، أحلامه، ذكرياته، أصبح في عالم السياسة الدائر في فلك المؤمنين بالحل السلمي القسري والمفروض على شعبنا في المرتبة الثانية بعد إرضاء العدو ومشاعره.

- يقف معاذ أمام التلفاز وإلى جانبه الوالدة وأحفادها الصغار وزوجتا

شـقيقيه تطربهـم جميعـاً أخبـار العمليـة، وشاشـات العدو باللغـة العبرية تنقـل الصـور، فـيردد معـاذ كلمـة «اللـه أكـبر» للمـرة العشرين بعـد المئة، يـود لـو يرقص مـع والدته التي ترقـب انفعاله الكبير، أو يدخل في الشاشـة باحثـاً عـن البطلـين حتـى يقبّـل ما بقي مـن جسـديهما الطاهريـن، وبينما كان يعيـش فرحـة المظلومـين، طلـب من الجميـع الإنصات: لحظـة، لحظة هنـاك خـبر جديـد، فقالـت والدتـه «أم بكـر» وهل هنـاك أخبـار بعد هذا الخـبر العظيم؟!.

- يوجـد يـا أمـي! اصبري قليـلاً وسـترين!. ثـم ظهـر عـلى الشاشـة لقـاء تلفزيـوني عـلى إحـدى المحطـات العربيـة يجريـه مذيـع مع أحـد المتصلين مـن سـوريا: وهـل تؤكـدون المسـؤولية الكاملـة عـن العمليـة؟! فيجيـب المتحـدث باسـم الفصيـل الفلسـطيني المعـارض لخـط أوسـلو: نعـم، نعـم! فاسـتنكر معـاذ بتلقائيـة تامـة: مـاذا؟!. فنظـر إليـه جميـع مـن في الغرفـة باسـتغراب نسـبي، لأن الأذن الفلسـطينية قـد اعتـادت في تلـك السـنوات عـلى اسـم كتائـب القسـام بعـد العمليـة الاستشـهادية: يـا ولـدي، لمـاذا لا يكـون الأمـر صحيحـاً ويجـب أن تفرح لذلك بـأن أصبح ما تنـادي به، نهجاً يسـلكه المخلصـون؟!.

- فتمتـم معـاذ بكلـمات وهو يسـتأذن بالخـروج: صحيح ولكـن ليس هذه المرة.

وعـلى مدخـل البيـت قابـل والـده «الشـيخ سـعيد بـلال» عائداً مـن عمله في مديريـة الأوقـاف الإسـلامية حيـث يعمل مديـراً عاماً لهـا، فتكلمت عينا الشـيخ الضاحكتـين قبل لسـانه: لمـاذا العجلة يا شـيخ معـاذ؟!. فاقترب إليه يـسرُّ بالعبـارة لطالمـا حلـم بهـا منذ زمـن بعيد: هـل أعجبناك يـا والدي؟!

فأجاب الشيخ: وماذا سيكون الشيخ سعيد أمام الأمة التي تحتفل الساعة بهذا النصر؟! ولكن!! ما هذا الهراء الذي يقولونه في الإعلام، أين البيان؟!

- لم يكن بيد معاذ كثير لعمله سوى الانتظار لمعرفة سبب التأخير، وهذا ما بدأ يزعج خليل الذي أوكل المهمة لدائرته، ويقلق محمود القلق ذاته منذ وداعه لمعاوية وتوفيق، فإن كانت العملية ذاتها قد هزت العالم فمن المتوقع أن يثير بيان الإعلان هزة إضافية، غير أن التأخير يقلّل من قوة التأثير المرجو وخاصة بعد السرقة المفضوحة من جانب ذاك الفصيل، وتلك عادة سيئة درجت عليها بعض الفصائل إن تأخر الفاعل الحقيقي بالإعلان عن المسؤولية وهذا لا ينفي أن مخابرات العدو الصهيوني قد استخدمت ذلك لاستفزاز الجهة المنفذة للكشف عن نفسها حتى يسهل الوصول إليها وتحديداً في العمليات ما دون الاستشهادية.

- لقد دخل مسجد «سيد قطب» لتأدية صلاة الظهر بعد أن فاتته الجماعة أثناء سفره من نابلس إلى رام الله فجلس بعدها بانتظار اللحظة المناسبة للخروج وتأدية المهمة الخاصة الموكلة به، يتحسس البيان المخفي تحت ملابسه، يطمئن على سلامته بعد أن استلمه صباحاً من معاذ: أخي جاسر! لا تنقصك الفطنة بأهمية الموجود داخل البيان وضرورة!

فرد عليه وهو يغادر: توكل على الله، لقد أنجزنا المهمة الأعظم من البيان وسأنجز هذه إذا لم تعقني أكثر من ذلك.- لقد كانت الليلة طويلة ومليئة بالشد العصبي قضاها مع نسيم حتى الفجر في تجهيز

الحقيبتـين فلـم ينـم دقيقة واحدة ولم يكن ليسـتطيع إن حـاول فعل ذلك، فصناعـة المـوت للمحتلـين عـلى هـذا النحـو لا تحـدث كل يـوم، ولأنه كان صائمـاً كبقيـة المجاهديـن العاملين في المـشروع صيام النافلة، تقربـاً إلى الله وطمعـاً في توفيقـه في نهـار تمـوز الحـارق ومُتعبًـا في إحـدى زوايـا المسـجد مسـتمتعاً بـبرودة المـراوح الهوائيـة، ذهـب في سِنةٍ مـن النـوم تحولـت بسرعـة إلى غفـوة طويلـة فنوم عميق أمتد إلى سـاعتين كانتا أطول سـاعتين في عمرنـا ونحـن ننتظـر إذاعـة البيـان، وبينـما كان ينهـي سـاعته الثانيـة تسـلل إلى أذنيـه حديـث اثنـين مـن رواد المسـجد: هـذه عمليـة في العظم.

– فـيرد الآخـر: بـل قـل في القلـب والـرأس، وفي أبـو أبـو الـذي جابهـم. ـ فانتفـض جـاسر كالممسـوس ينظـر مـن حولـه محـاولاً اسـتيعاب الأمـر، فتذكـر أنـه يحمـل سـاعة على سـاعده: يا إلهـي؟! فامتدت يـده بسرعة إلى البيـان يتحسسـه بأسـف شـديد يعاتـب نفسـه: مـاذا فعلـت أيهـا النائم؟! غفـر اللـه لـك أيهـا الجسـد، خنتنـي في الزمـن الخاطـئ، وطـار إلى الخـارج دون أن يغسـل وجهـه، حزيـن لتخييـب ظن إخوانـه به، ولم يـدرك بعد أنَّ مـا صنعـت يـداه في الحقيبتين يُبكي رئيـس وزراء العدو «بنيامـين نتنياهو» عـلى شاشـات التلفـزة ويدفـع رئيـس دولتـه اللعينـة «حاييـم فايتسـمان» للقـول وهـو يـزور مـكان العمليـة بعـد وقوعهـا: هذا أسـوأ يـوم في حياتي.

ـ كان باعـة الخضـار بالقـرب مـن المسـجد يتنـدرون عـلى المحتـل، الجميع يتحـدث عـن غضبـة الفلسـطيني الـذي يصنـع مـن جسـده قنبلـة ليثـأر لدمـاء شـعبه ويـرد عنه ظلم الاحتـلال، فوقف جاسر أمام معـرضٍ للأدوات الكهربائيـة أدار أخبـار العمليـة عـلى سـت أجهـزةٍ للتلفـزة: الله أكـبر، الله أكبر.

- هزتـه مشـاهد النجـاح للعمليـة فنـسي للحظة مهمتـه الراهنـة والمتأخرة عـن الموعـد سـاعتين، أيقظه من ذلك، خبر الإعلان عـن العملية: الكاذبون!! - ثـم أسرع وهـو يُخـرج من جيبـه الخفية أرقام الهواتـف متجهاً إلى هاتف عمومـي: مراسـل وكالـة الأنباء الدوليـة رويترز؟!. - فرد المراسـل على الجهة الأُخـرى: تفضـل هو بذاته.

فقـال جـاسر: هنـاك شـجرة كبـيرة بجانـب موقـف سـيارات بيرزيـت-! فقاطعـه المراسـل الـذي شـعر بحسـه الصحفـي بوجـود أمـرٍ مهـم: أعرفها، أعرفهـا.

ـ اذهـب إلى هنـاك فـوراً، سـتجدْ تحتهـا علبة سـجائر مـن نـوع «فرجينيا» ملقـاة عـلى الأرض بصـورة مُهملـة وبداخلهـا بيـان. - فوقـف المراسـل على قدميـه: بيـان ماذا؟!

- يريـد أن يتأكـد مـن الـذي بـات مؤكداً لديـه، فأجابه جاسر: بيـان الإعلان عـن العمليـة والمطالـب التي نريدها، فسـأله وهـو يحمل مفاتيح سـيارته: ومـن أنتـم؟!. فأجـاب: كتائب الشـهيد عز الدين القسـام.

- ولمـا هـمَّ جاسر بإغلاق الهاتف صاح المراسـل منفعلاً: أرجـوك أن تتواصل معي في العمليات القادمة وسـأكون شـاكراً لكم

- وبسرعـة الـبرق نفـذ جـاسر المطلوب وسـافر عائداً إلى نابلـس وفي غضون عشريـن دقيقـة كان البيـان في كل وسـائل الإعـلام العالميـة: حركـة حـماس تعـود لعمليـات التفجـير بقوة والعنـوان «تحريـر الأسرى».



"ثأراً للنبي وحرية من فوهة البندقية"

عـدت إلى نابلـس في الموعد، سـأرى في حينها عيبال وجرزيـم بعين غير التي كانـت تنغـرس في وجهـي صباحـاً، وقـد أمسـيا يعانقـان الشـمس يداعبـان خيوطهـا اللطيفـة مـا قبـل الغـروب، سـأصبح مـن حينهـا أديبـاً يبعـث من حكايـا العشـق الأندلسـية فـيرى الغـرام في كل شيء فيكتبـه عـلى كل شيء، محـبرتي مـن شـارع يافـا، ويَراعـي من عـرق معاوية وابتسـامة توفيـق. ولما عـنَّ الأدب عـلى خاطـري وأردت الكتابـة لم أجـد في محـبرتي غـير نزيـف البندقية.

- أسرعـت باتجـاه منـزل مهنـد، علّني ألتقيه هنـاك فأعانقـه، أحتضنه، أرى النـصر في عينيـه ثـم أطـير إلى خليـل فأصيـح قبـل أن أصلـه: لقـد فعلناهـا وربّ الكعبـة، فيضحـك بأعـلى صوتـه، لـن يهمـه أحـد ويـصرخ ووجهه إلى السـماء باكيـاً: اللـه أكبر وللـه الحمد.

- رأيـت مهنـد يقـف عـلى شرفة الطابق الثـاني غير المأهـول ينتظرني في بيته محـاولاً إخفـاء فرحتـه، كنـت أعلـم أنـه لـن يفـوت فرصـة اسـتقبالي بعـد أن تحقـق جـزء مهـم مـما حلمنـا بـه منـذ زمـن بعيد فـكان أجمـل عناق بيننـا وأروع مـا يمكـن أن يحتفـل بـه المظلومـون، لم نتفـوه بكلمـة واحـدة فهـل هنـاك حديـثٌ بعـد فدائيـة معاوية وتوفيـق؟! ثم أمسـكني من يدي كطفـل يقـوده أحدهم لرؤيـة أمر عظيم ودخل إلى غرفـة المقاومة! فكانت

اللحظة التي لم أنسها أبداً: خليل الشريف، يُسرع نحوي ويحتضنني، يعانقني ويُقبل رأسي رغماً عني فيخجلني ثم نسجد ثلاثتنا سجدة شكر لله... لم نمكث كثيراً في الغرفة فتحركتُ به إلى بيتي مودعاً مهند الذي انتهت مهمته لذلك اليوم وقد تفاجأت بأنهما تركا الشقة المفروشة بعد التأكد من وصول توفيق إلى طرفي كإجراءٍ وقائي والتوجه إلى منزل مهند.

أدخلت التلفاز إلى غرفة الضيوف بعد أن اختلقت عذراً لغيابي طيلة النهار عن المنزل لكنه رفض أن يعمل: لا حول ولا قوة إلا بالله، عندما احتجتك خرست؟ فابتسم خليل الذي لم يرد الإثقال عليّ فطلب مني عدم الانزعاج: لعله خير، لن تزيدنا الصورة شيئًا كثيرًا فالذي نريده قد تم بحمد الله وفضله.

-عندي فكرة، الراديو.

كان يهمنا لحظتها التأكد من الإعلان عن العملية بعد التأخر الذي حدث فأحضرت راديو أبي القديم: حتى تعلم بأن التلفاز لا يغني عن الراديو، فقال خليل: رفيقي منذ المطاردة ومساكن الطلبة في الجامعة ولكن -قالها ضاحكًا هذه المرة- أسأل الله أن يعمل.. وبينما كنا نستمع إلى صوت العدو باللغة العربية ولم يكن مراسل رويترز قد نشر البيان بعد، توالت الطرقات على باب غرفتنا، سريعة غير مؤدبة متبوعة بكلمة السر المتقطعة: بابا، بابا وبينهما ببا. ففتحت الباب بسرعة وخليل يحثني: هذا الشخص الوحيد المسموح له بحضور اجتماعاتنا.

كانت تعاتبني بعينيها البريئتين وابتسامتها الساحرة فسألتها: ماذا تريدين؟ فرفعت ذراعيها الصغيرتين إلى أعلى ترجوني حملها فحملتها وأغلقت الباب: والآن؟ كانت تتفحص الضيف الغريب بعينيها الواسعتين

فأخذهـا خليـل بـين ذراعيـه وطبـع قبلـة عـلى وجنتهـا الناعمـة كالحريـر: تسـتحقها بجـدارة، بعـد يـوم أبيهـا الطويـل!

- ولم يكـد ينهـي عبارتـه حتـى بدأ المذيع يتحـدث عن البيـان: أعلن الذراع العسـكري لحركـة حـماس مسـؤوليته عن العمليـة المزدوجـة دون أن يذكر اسـم المنفذيـن خلافاً لما جرت عليه العادة، مُهديـاً العملية إلى النبي محمد الـذي نـال منـه المسـتوطنون في مدينة الخليل عبر نشر الصور المسـيئة، كما جـاء البيـان بمطالـب تتعلـق بـالأسرى الفلسـطينيين وأولهـا تحرير مؤسـس حركة حماس الشـيخ أحمد ياسـين ومقاتلي كتائب القسـام وأعداد يحددها البيـان مـن أسرى حـماس وفتـح والجبهـة الشـعبية والديمقراطيـة والأسرى العـرب وفي مقدمتهـم الشـيخ عبـد الكريـم عبيـد ومصطفـى الديـراني مـن حـزب اللـه اللبنـاني وقـد طـرح البيان وسـطاء موثوقـين من جانـب كتائب القسـام حـال قبـول الاحتـلال بالشروط وعـلى رأسـهم الدكتور عبـد العزيز الرنتيـسي، وقـد هـدد الـذراع العسـكري بمواصلـة الهجـمات بصـورة أشـد وأقـسى حـال عـدم القبـول بالـشروط وقـد ذُيّـل البيـان «بوحـدة الشـهداء لتحريـر الأسرى». - فعقّـب خليـل منتشـياً: الآن نسـتطيع أن نأخـذ قسـطاً مـن الراحـة وأيضـاً قُبلـةً أخـرى من هـذه الجميلة.

- بقـي أكـثر مـن سـاعتين لأذان المغـرب ودخـول الليـل، الوقـت الأنسـب لتحـرك خليـل والعـودة بـه إلى شـقة رفيديـا فقررنـا النوم: أنـت تبقى على السريـر وسـأنام عـلى الأريكة.

- فرفـض ذلـك بشـدة: إذا أردت راحتي فدعني أنام هنـا.- ولم أفلح بإقناعه كالعـادة فنـام بعد أن تـرك دولة الاحتلال تقف عـلى قدميها ولا تنام.

"مرحلة السكون والنزول تحت الأرض"

العدو يتخبط!! شهداء بلا أسماء وعناوين، نمط جديد من المقاومة السرية لم تعتد عليه أجهزة أمن العدو، وسيظهر ذلك في تعاطي وسائل إعلامه المختلفة مع آثار الضربة القاسية التي تلقاها في خاصرته الرخوة وتخبطها الذي رافق التحقيقات: لماذا اختارت حماس إخفاء هوية المنفذيْن، هل نحن مقبلون على تغيير تكتيكي في سلوك جهازها العسكري أم تحول استراتيجي؟!.

- يسأل مراسل عسكري للقناة العبرية الثانية ويعترض ضيف أخبار الثامنةِ، ضابط سابق في جهاز الشاباك: لا أنصحكم بالمبالغة في تفسير إخفاء هوية المخربيْن فأنتم بذلك تعطونهم حجماً أكبر من حجمهم بكثير لكنني أقول! فقاطعهُ المراسل بحِدَّة: ما هو برأيك الفعل الذي سيوجعنا أكثر من تحويل سوق إلى ساحة حرب حتى نضع الأمور في أحجامها؟!

فأجاب الضابط: أنا لا أقلل من فاجعة ما حصل لكننا اعتدنا في الشاباك على اصطيادهم بسرعة نتيجة سقطاتهم وهذا ما سيحصل، فقالت مقدمة الأخبار: لكن المعلومات الأولية التي رشحت من التحقيقات وأدلت ببعضها شرطة العاصمة تفيد بعدة احتمالات تؤكد على خطورة التكتيك الجديد.

- ثـم نظـرت إلى المراسـل العسـكري حتـى يتحـدث: لقـد عـثروا في جيـوب المنتحريْـن عـلى نقـود أردنية الأمر الـذي يقوي فرضيـة قدومهما من خارج البـلاد، فربمـا كانـا مـن الأردن ذاتهـا وربمـا كانـت الأردن معـبراً اسـتخدماه للوصـول إلينا.

- فتدخـل الضابـط السـابق مسـتبعداً ذلـك: لـو كان مـا تقولـه صحيحًـا لعلمـت أجهـزة الأمـن بذلـك.

فقاطعـه المراسـل: لسـت الـذي يقـول بذلـك، وأحـب أن أطمئنـك حتـى تتحـرر قليـلاً مـن تحفظـك الأمنـي بـأن الرقابـة العسـكرية «التسـنزوره» سـمحت بنـشر هـذه المعلومـات وزادت عـلى ذلـك باحتماليـة أن يكونـوا مـن مسـلمي بريطانيـا أو عنـاصر مـن حـزب اللـه اللبنـاني ثـم ألم تسـمع بعمليـة المسـكوبية أواخـر عـام 1994م والتـي نفذهـا مقاتـلان مـن جهـاز حـماس العسـكري «كتائـب القسـام» واسـتهدفت مقهـى يرتـاده محققـوا الشـاباك وقتـل وجـرح فيهـا العـشرات؟!. فـردّ الضابط بأسـف: نعـم أعلم ذلك جيـداً..

فاسـتطرد المراسـل: كان أحدهما مصري الجنسـية، والخشية في أجهزة الأمن أن تكـون حـماس قـد غـيرت اسـتراتيجية عملهـا عـبر فتـح بـاب المشـاركة لمؤيديهـا في العـالم عـلى جبهـة الداخـل أولاً ثـم الانتقـال لـضرب مصالحنـا خـارج «إسرائيل».

سيسـتمر العـدو في تخطبـه وتصديـر بعـض الأخبـار الاسـتفزازية حتـى نخطـئ فيصـل إلى طـرف خيـط يقـود إلينـا، الأمـر الـذي منعنـا حدوثـه بالقـرار الـذي اتخـذه القائـد خليـل: الهـدوء التـام وعـدم تنفيذ أي نشـاط مهـما كان صغـيراً.

– ولما سألته عن الزيارات العائلية خارج مناطق ألف أجاب: هذا أوجب الواجب فإن لم تقم أجهزة أمن السلطة باعتقالات كما فعلت على إثر عمليات الثأر لاستشهاد المهندس يحيى عياش، سيفعل المحتل ذلك، وسيكون الناشطون أول المعتقلين فقد اعتاد العدو على شن حملات اعتقال عشوائية للإمساك بطرف خيط ولن يكون أحدكم طرف الخيط.

- لكنَّ محمود أبو هنود الذي يعيش ذات الشعور المتناقض، الفرح لنجاح العملية والإثخان بقتلة الأطفال والنساء، ومن جهة أخرى، الحزن على فراق معاوية وتوفيق أصَّر على الذهاب إلى عصيرة الشمالية وذهب!!



"العالِم الثائر والجائزة السخية"

فكرة مجنونة لكنها عظيمة ستهز العالم وتقلب الموازين ستصبح أنموذجاً يحتذي به الصغير والكبير.. يحدّث معاذ نفسه وهو يجلس لسماع الدرس ما قبل خطبة الجمعة في مسجد النصر، فيناقش مهند الذي كان يجلس بجواري الفكرة في تخاطر عجيب: لا لا، حينها ستصل احتفالات الحركة بنجاح الفكرة عنان السماء فرحاً لكنها ستعقد لنا محكمة سرية سنصبح بعدها..! ثم التفت نحوي مبتسماً فرددت عليه: أترى الشيخ يوافق..!

- يا شيخ -رفع أحد المصلين يده للسؤال- لماذا يحمل الاستشهادي كمية صغيرة من المتفجرات؟!

- فيضحك الشيخ «حامد البيتاوي» رئيس رابطة علماء فلسطين وتضحك معه جميع الوجوه التي ما زالت تعيش فرحة النصر الصغير على المحتل: الأمر بسيط، هؤلاء الشباب يحملون أحزمة وحقائب حسب أحجامهم -ثم نظر إلى نفسه ضاحكاً وكان ممتلئاً بعض الشيء- أما أنا بحاجة إلى (طرِّله) شاحنة متفجرات تناسب حجمي. - ولم نكن حينها ندري أن دائرة المتفجرات تستمع إلى حديث العالِم المجاهد وتتخاطر معنا في تداول ما يذكره.

- وبعد انتهاء خطبة الجمعة وانفضاض آلاف المصلين، التقيت المهندس

أيمـن حـلاوة فرأيـت الحـزن في عينيـه، فهمـس يسـألني: مـا هـي أخبـار خليل؟!

- فلـم أسـتطع التهـرب: بخـير والحمـد لله، ما هـي أخبار دراسـتك؟! ففهم أننـي لا أريـد الحديـث عن صاحبنا فهزّ رأسـه أسـفاً: أبلغه السـلام.

- كنـت كلـما رأيتـه ألـوم نفسي وأعاتبها أنني لم أسـتطع إقنـاع خليل بضمّه للعمـل معنـا. وأحياناً كنت أشـك بأن الاثنـين يقومان بالتمويـه الأمني عليّ وأن أيمـن هو مهنـدس الحقائب.

- وفي اليـوم التـالي بعـد عـشرة أيـام مـن العمليـة وبينـما كنـت أتصفـح الجرائـد والمجـلات السياسـية لفـت انتباهـي أمـرٌ هـزّني مـن الأعـماق: صـورة معاويـة وتوفيـق على غـلاف مجلة العـربي الكويتية تظهـر وجهيهما المحروقـين فقـط. وكانـت المـرة الأولى التـي أرى فيهـا الصـورة التـي نشرها العـدو الصهيـوني حتـى يتعـرف عليها النـاس مانحـاً جائزة ماليـة كبيرة لمن يقـوم بتشـخيصهما. أعـترف بأننـي حزنت جـداً وأنا أرفع المجلـة عن طاولة المعروضـات الورقيـة أمـام مكتبـة دار العلـوم والثقافـة وأحـدّق فيهـا ولم أعـد أشـعر بحركـة السـير والمارّة مـن حولي وقـد خفّف عني بقايا ابتسـامة مـا زالـت رغـم الحـروق الشـديدة تسـكن هناك، تهـزأ من سـخافة المحتل، تسـخر مـن عجـزه وتقـرأ عليه آيـة «قـل موتـوا بغيظكم».

- هـل تريـد ابتيـاع المجلـة؟! أيقظنـي البائـع مـن غضبـي وقـد تعـوّد عليّ منـذ الصغـر قارئـاً لغـلاف المجـلات والصفحـة الأولى مـن الجرائـد اليوميـة دون لمسـها، فاشـتريتها وطرت بها إلى خليل ومحمود الذي التحق للسـكن الدائـم في شـقة رفيديـا، وسـأظلّ أزودهـما بالصحـف اليوميـة والمجـلات الأسـبوعية وكلّ معلومـة صغـرت أم كـبرت تتنـاول العمليـة: يجـب إحضار

يوسف وبشار إلى طرفنا -يقول محمود مخاطباً خليل- قبل اكتشاف هويتنا.

- فيرد عليه: أرسل سيارتين لإحضارهما بالطريقة المتفق عليها!

- لا -قالها مبتسماً- سأذهب لإحضارهما بطريقتي الخاصة.

- فيحتج خليل: ألا ترى معي بأن الوقت لا يحتمل التسرّع وارتكاب الأخطاء ونحن ما زلنا في بداية المشروع؟!

- أنا بحاجة حقيقية إلى دخول القرية وترتيب بعض الأمور تحسباً لما سيحدث لاحقاً ولا تقلق عليّ فستراني بجوارك غداً إن شاء الله، في ذات الساعة التي أغادرك بها.

- فقال خليل: ألا تخشى من إمكانية إخفاء كشفهم لنا ونصب كمين لك؟!

- لا أعتقد ذلك لسبب بسيط أن عيوننا لم ترصد أي تحرك مشبوه يدل على ما تقول فاطمئن.

- يا أبا عبادة، قل إنك اشتقت لعصيرة الشمالية؟!

- فضحك محمود المولع بقريته: هذه وتلك وإذا أمرتني بعدم الذهاب فلن أفعل.



"الاستدراج وكلبة الكهف!!"

يومان كاملان ونحن لا ندري بالعملية ومعاوية وتوفيق يضحكان علينا من أعلى ولولا المساعد، جزاه الله خيراً والذي تفقدنا بعد ثمانية وأربعين ساعة لظللنا نعتقد بأن العملية لم تحدث؟! يتحدث يوسف بحرارة إلى محمود والذي وصل إليهم عبر الجبال فلم يخب ظنه بهما وهو يرى ويسمع ما كان يعجبه من قصص الصحابة وفدائيتهم: كان ذلك أكبر خطأ قمنا به!!. – قالها بشار أسفاً والحسرة تملأ عينيه، فاستغرب محمود: لا أفهم ماذا تقصد؟! - فاستطرد مجيباً عليه: لقد خدعانا بتهديدهما فخسرنا شرف ما صنعاه وربحا المعركة ولا ندري ماذا يخبئ لنا القدر؟!

- فقال يوسف محتداً: قدر خير إن شاء الله، دعك من التشاؤم فلا أظن أحداً في هذا العالم.. وكان يعني محمود يمكنه الحيلولة دون لحاقنا بأخوينا بالطريقة التي يحبها الله ورسوله.

- فضحك محمود: لماذا تظن بأنني يمكنني أن أفعل ذلك!

- فأجاب يوسف: في هذا العالم يمكن حدوث أي شيء وبعد رحيل معاوية وتوفيق لم نعد نطيق مجرد التفكير بالتأخر عن اللحاق بهما لذلك؟!..

- فقاطعه محمود: لا تكمل، ستنزلان معي إلى المدينة وستريان بأعينكما كيف تسير الأمور.

- فقال بشـار: إذا لم يقُد نزولنا معك إلى تنفيذ عملية استشـهادية فالأفضل أن نبقـى هنـا بانتظار العدو ونيل الشـهادة على تراب قريتنا..

- فحوقـل محمـود: لا حـول ولا قـوة إلا باللـه، ومـن قـال إنكـما لـن تنفـذا عمليـة؟! لكـنّ الأمـر ليـس بيـدي ولا بيـد خليـل بـل..! وصمـت محمـود قليـلاً ثـم تابـع: مـا رأيكـما أن تصمتا وحسـب فأنـا بالكاد أسـتوعب غياب معاويـة وتوفيـق فـماذا سـأفعل بعـد رحيلكما؟!

- فضحك الاثنان: هذا هو الكلام الجميل، الآن سنذهب معك إلى المريخ.

- فقـال محمـود: ليـس قبـل أن أدخل القريـة وأرتب بعض الأمور وسـأعود بعد سـاعتين.

كان تفكـير محمـود منصبًـا على الأسـوأ الذي لم يحدث حتـى تلك اللحظة!، حـال كشـف هويـة معاويـة وتوفيـق والحملـة العسـكرية التـي سـتواكب ذلـك مـن هـدم البيـوت والاعتقـالات ومـا سـينتج عـن ذلـك مـن تشريـد مؤقـت للعائـلات، ورغـم علمـه التـام وتجربتـه السـابقة مـع أحـداث مشـابهة اضطـر فيهـا -إلى جانـب عنـاصر مـن الحركـة- لجمـع التبرعـات لأهـالي الاستشـهاديين والتـصرف التلقـائي مـن جانـب جمـوع النـاس التـي تسـارع للمسـاعدة، إلا أنـه أصر عـلى التأكـد مـن الجهوزيـة لما بـات مـن المؤكـد حدوثـه.

وفي طريقـه إلى بيـت أحـد المسـاعدين السرّيـين الـذي سـيقوم بذلـك، مـاراً مـن وادي الحـمام تفاجـأ بأحـد المشـتبه بهـم بالتعامـل مـع العـدو، وجهـاً إلى وجـه، ولم يكـن وجـوده في تلـك المنطقـة طبيعيـاً فأيقن محمـود أنه في خطـر يسـتوجب التـصرف بسرعـة فاتجـه بخفة نحو الشـمال: حسـبنا الله ونعـم الوكيـل، مـن أين خرجـت أيهـا اللعين.

- كانـت مـن المـرات القليلـة التي يشـعر فيهـا بالقلـق الشـديد حرصاً على يوسـف وبشـار والمـشروع الـذي ينتظـر منـه عدم الوقـوع في المشـاكل كما سـبق وحـذره خليـل من ذلك فاسـتمر بالسـير مبتعداً وسـط الظـلام مقرراً التغلـب عـلى المتابعـة المفترضـة مـن جانـب المشـبوه واصطحـاب يوسـف وبشـار ومغـادرة القريـة فـوراً ولكن!! تحولت خشـيته إلى إحسـاس يقترب إلى الحقيقـة بوجـود أعـين لصيقـة تتابعـه مـن عـدة جهـات، تدفعـه إلى الهـرب عـبر إحـداث قرقعة مقصـودة فلم يهتـم في البداية إلى ذلـك ما دام مسـتمراً بالانسـحاب دون إعاقـة، حتـى وصولـه إلى أحـد الأوديـة الخطيرة والـذي كشـف لـه الأمـر الـذي ينتظـره!! فتوقف مكانـه متخذاً مـن صخرة كبيرة سـاتراً يحتمي به ليتأكد مما سـمعت أذناه: إذن! وقعت في المصيدة.

- كان يحـدّث نفسـه وهـو يتخـذ وضعيـة القتال بعـد أن أيقـن بوقوعه في كمـين تـم دفعـه إليـه وقد سـمع أصوات اللاسـلكي الخـاص بالجنـود فعمّر بندقيتـه الرشاشـة وتجهـز للمعركـة: يـا رب، إن كنـت سـتلقاني فاقبضنـي إليـك عـلى الوجـه الـذي تحـب ولا تجعـل لحمـي سـهلاً عليهم بـل جحيماً تحرقهـم به.

- لقـد اشـتم محمـود رائحـة الجنـود ولم يشـغله في تلـك اللحظـة الفاصلـة سـوى أمـر واحد: متى سـيتقدم نحـوي الصهاينة حتى أمزقهـم برصاصي؟!.. وكان يـدرك أن تحركـه مـن مكانـه خطـر جـداً فموقعه إلى جانـب الصخرة يعطيـه الأفضليـة في الاشـتباك مـا لم يسـتخدم العـدو أسـلحة نوعيـة: لا لا –يقـول محمـود– لـن يفعلـوا ذلـك لوجودهـم في المـكان فـلا الطائـرة ولا القذائـف يمكـن أن تفيدهـم سـأنتظر حتـى يتقدمـوا نحوي.

- وبينـما كان يتكـئ عـلى الصخـرة مسـنداً ظهـره إليهـا جالسـاً عـلى التراب

ولسانه لم يتوقف عن الذكر والاستغفار حصل الذي يخشاه المقاتل وسط المعركة: غفا، نام ولم يعد يشعر بشيء من حوله.

ذهبت أصوات اللاسلكي وبعد فترة استيقظ على حاله التي غفا عليها ممتشقاً سلاحه ملتصقاً بالصخرة مستعداً للقتال وما زال الليل يضرب في المكان لكنّ أمراً غريباً أفزعه للحظة قبل أن يدركه: كلبةٌ صغيرة كانت تجلس أمامه مباشرة وتحدق به فصوّب نحوها البندقية ظناً منه بأنها تتبع لقوات الاحتلال كما أنّ محمود أشد ما يكره في الحيوانات الكلاب، فأخذت تنبح بصوت خافت وحنون كأنها تتوسله معلنة عن نفسها بأنها ليست عدو، فرّق قلبه الذي كان هادئاً جداً على غير ما تركه قبل الغفوة، غير أن الأهم من ذلك، غياب أصوات الجيش والهدوء التام في الواد فنظر إلى ساعة يده ليكتشف بأنه غفى ساعةً كاملة، فغادر المكان منسحباً بحذر شديد بعد تأكده من خلو الجبال من قوات العدو، الشيء الذي لم يجد له تفسيراً في لحظتها فتوجه إلى المكان الذي ينتظره فيه يوسف وبشار بعد أن عمل تمويهاً كبيراً في طريقه إليهما، لكنه لم يجدهما هناك: لابد أنهما شعرا بحركة قوات العدو فذهبا إلى الموقع الآخر.

- فسار إليهما وهمّه الأوحد المغادرة السريعة، فوجدهما في حالة صعبة يرثى لها: أين كنت يا رجل؟!. يصرخ يوسف والخوف يسكن عينيه، لقد ظننا بأنهم أسروك أو..!

- فردّ عليه بشّار الذي لا تقلّ حاله سوءاً عنه: الحمد لله الذي أتانا به سالماً بعد هذه المدة..

- فضحك محمود: على رسلكما، صحيح بأنها أصعب ثلاث ساعات

عشـتها، مـررت فيهـا بأمـر لطيف وغريـب لكنني الآن بينكـما وهذا الأهم، فنظـر الاثنـان في وجـوه بعضهـما دون أن يضحـكا كالعـادة فلاحظ محمود ذلـك فقـال: لا تحتـارا، فـكل الأمر أنني غفوتُ سـاعة كاملـة دون أن أدري كيـف جـرى ذلـك وقوات الاحتـلال تملأ الـوادي فلما صحوت وجـدتُ كلبةً صغـيرةً تجلـس أمامـي فتوسـلتني أن لا أسيء إليهـا، ثـم أتيتكـم مـن فوري متأخـراً بسـاعة واحدة!!

- فنـدت دمعـةٌ مـن عـين يوسـف وهـو يحـدّق في وجـه بشـار الـذي كان يغـرق بـذات الانفعـال مـما دفـع محمـود إلى الدخـول في الحالـة معهـما: كانـت المـرة الأبـرز التي أشـعر فيها بمعيـة اللـه الكاملة وقد سـلمت أمري إليه.

- ثـم وضـع كفّيـه عـلى كتفيهما مبتسـماً – ولعـلّ الله -عز وجل- اسـتجاب لدعائكـما بـأن يحفظني فحدث الـذي تعرفون.

- فقـال بشـار والـكلام يتحـشرج من خلجات صـدره، يخـرج مصحوباً ببحة يغلّفهـا الوقـار: يـا أبـا عبـادة!. – ثـم توقـف عـن الحديـث، لا يسـتطيع الاسـتمرار، فاسـتغرب محمـود لكـنّ يوسـف سـارع لإكـمال ما بدأه بشـار: يـا أبـا عبـادة! هـل تعـرف أي الأيـام نحـن؟! فردّ بسرعـة حتى ينهـي الأمر: أهـذا امتحـان؟! يـا سـيدي نحـن في يـوم الخميـس ومـاذا بعـد؟! - فأكمـل يوسـف: اليـوم هـو يـوم الجمعـة وليـس الخميس.

لقـد غادرتنـا البارحـة!!! فنظـر محمـود فـوراً إلى التاريـخ في سـاعته بعـد أن أضاءهـا وبـذات السرعـة رفـع عينيـه إلى وجهيهـما دون أن ينطـق حرفـاً واحـداً فقـال بشـار: لقـد نمت خمسـة وعشرين سـاعة وليس سـاعة واحـدة!!!

"سيف الأمير وضربة حيفا !!"

سـلامٌ عليـك سـيدي الأمير! أنـا الطفل الذي كانَـكَ صغيراً، يرتـل على عتبتك القصيـد.. فتتفتـح في سـاعده الثـورة، وتبعثـه في كل صبـاح سـيفاً كالـذي كنتـه مـن بعيد..

أتيتـك السـاعة راكبـاً عـلى صهـوة مدفع وسـيفي قنبلة سـللتها مـن جرابك العنيد..

تذكرني؟! أنا ذاك الصبي الذي أمسى عليك مجاهداً وأصبح ثائراً..

وغـدا مريـداً يخطـب قرقعـة سـيفك وتكبـيرة غـدك وصهيـل خيلـك فكان مـا تريد...

نم سيدي.. قَر عيناً فتتار أمسك لم يعبروا من جديد..

- لم أغـادر المـكان سريعـاً فرأيـت خليـل يبطـئ مشـيه عـلى غـير عادتـه ويقـف للحظـات عـلى نافـذة مقـام الأمـير مجيـدُ الدين ثـم يصعـد الدرج إلى بيـت الشـيخ يوسـف السركجـي والـذي كان يرقبـه مـن خلـف السـتار: السـلام عليكـم!! رتلهـا خليـل على مسـمع الشـيخ الـذي ينتظر اللقـاء منذ أسـبوعين، فـكان ردّه عناقـاً حـاراً: وعليـك وعـلى الشـهداء والمقاتلين أعظم السلام.

- لم تكـن فرحـة الشـيخ برؤيـة خليـل بعـد العمليـة أقـل مـن رؤيـة الأخير

لـه فإسـهام الشـيخ بالعمل لا يقل عـن أي مقاتل في المجموعة، لكن سـبب حضـور خليـل لم يكـن لمجرد اللقاء برجـل عظيم إنما للاجتـماع الذي حدّده مسـبقاً مـع معـاذ بلال لتقييم الوضع ودراسـة الخطـوة التالية بعد أن فعل ذات الأمـر مـع محمـود أبـو هنّـود الـذي انضم مع أخويه يوسـف وبشـار للسـكن في شـقة رفيديـا، وقبـل أن يبـدأ بالحديـث الأهم بين الثلاثة، سـأله الشـيخ: هل اشـتقت إليه؟!

- فابتسم خليل: أنا دائم الشوق لأخي معاذ.

- فانتعـش الأخـير لكـن الشـيخ يوسـف أسرع بالقـول: أعـرف أنك تشـتاق لنـا لكنـك تعلـم مـن أقصد؟!

- فأجـاب خليـل: وددت لـو أقـف أكثر كما كنـت أفعل وأنا صغير فشـوقي لـه عظيم.

- فتدخـل معـاذ: يـا جماعـة ألا تفصحـون بعـد أن خـسرت شـوق أحدهـم لي؟!

- فضحـك الشـيخ: هـي صحبـة قديمـة بـين خليـل والأمـير مجـير الديـن إبراهيـم بـن أبي الذكـري «صاحـب المقـام» وأظـن بـأن الوقفة هـذه المرة، لهـا طعـم خـاص لـدى خليـل بعـد معركـة محنـي يهـودا.

- فقـال خليـل: كلـما عـبرت مـن المـكان خجلـت من الأمـير، شـعرت بأنني صغـيرٌ أمامـه فأحببـت هـذه المـرة أن يعلـم..! ثـم سـكت منفعـلاً فأكمـل الشـيخ يوسـف: أتعلـم يـا معاذ أن الأمـير المملوكي مجـير الدين ظـلّ يقاتل التتـار ببسـالة في هـذا المـكان الذي نجلس فيه وإلى جانبـه الأمير «علي بن الشـجاع» ورفـض الاستسـلام حتـى استشـهد هو وجميع جيشـه؟!

- ليس هـذا فحسـب – أكمـل خليـل بل قتل بسـيفه أكثر من سـبعة عشر تتارياً.

- فقـال معـاذ: إذن بقـى لديـك صهيوني واحـد حتى تصل إلى رقم أسـتاذك الأمـير -رحمـه اللـه- وكان معـاذ يقصد الرقم الذي اسـتقر عليـه عدد قتلى محنـي يهـودا، فصمـت خليـل وتحدث الشـيخ بفخر: لقد تجـاوز ذلك منذ عامين.

– ولم يكـن معـاذ يعلـم بالعمليـات التـي نفذهـا خليـل وإن كان يشـك بذلـك.

- أخـرج معـاذ نسـخة مـن صحيفـة السـبيل الأردنيـة ودفـع بهـا إلى خليل: اقـرأ أبـرز ردود الأفعـال الشـعبية خـارج الأرض المحتلـة ومـاذا فعلـت العمليـة الاستشـهادية في الـروح المعنويـة للأمتـين العربيـة والاسـلامية؟!.

- كانـت الصفحـة الأولى تزخـر بالثـورة والجهـاد: لقـد زلزلهـم المـزدوج فكيـف سـيكون الثـلاثي والرباعـي؟!. – يكتـب أحـد علـماء الأمـة «هـمام سـعيد». فاهتـز جسـد خليـل. لكـن الشـيخ يوسـف كان لـه رأي آخـر: أنـا أقـول دعوكـم من هـذا اللعب! فحدّق معـاذ وخليل في عيني الشـيخ ولولا أنهـما يعلـمان حقيقتـه لظنا به السـوء والتراجـع، فقال معـاذ الأكثر معرفة بـه: مـا الـذي تقولـه يـا أبـا طـارق هل مـا نسـمعه حقيقـة أم هـو خيال؟!

- فاسـتطرد الشـيخ دون أن يلتفـت لذلـك: ترسـلون الاستشـهادي بكميـة متفجـرات لا تـزن أكـثر مـن عشرة كيلو غـرام وأنتم تملكون –اقترب الشـيخ إليهـما برأسـه مخفضـاً صوتـه– طناً وطنـين وأكثر!!

- فسأل خليل مبتسماً: وماذا تريدنا أن نفعل؟!

- فـرد الشـيخ بحـزم وقـوة يعرفهما معاذ جيـداً: مزقوا أكبادهم بخمسـمئة كيلـو، نعـم خمـس مئة كيلو في حيفـا أو تل أبيب، نشـطوا الخوف والرعب في ذاكرتهـم حتـى يصبـح واقعهم جحيـماً لا يطاق فينصرفـوا عن أرضنا.

- ولكـن يـا شـيخ!. – قـال معـاذ، فـرد عليه: مـن دون لكن، لا تفكـروا كثيراً بالعواقـب فشـعبنا في كلا الحالتين تحت السـياط.

ومـن تلـك اللحظـة ولـدت فكرة الضربـة التي أسـماها خليل ومعـاذ وعلم بهـا محمـود بالإسـتراتيجية، وظلـت ورقـة بأيدينـا تنتظـر الوقـت المناسـب للتنفيذ .



أنت ومهند والثالث لاحقاً!!

مرّ عشرون يوماً وما زال العدو يتخبط فانخفضت على ضوء ذلك حدّة الهجوم الإعلامي من جانب وسائل الإعلام التي ترعاها السلطة الفلسطينية والأذرع الموالية لنهجها وجميع الدول المناصرة لخط التسوية، ولم تلجأ أجهزة أمن السلطة للاعتقالات السياسية مكتفية ببعض الاستدعاءات لعدد من قادة حماس للاستيضاح والتهديد، وآخر ما فعله العدو الصهيوني إغلاق مدينة بيت لحم من جهة القدس ظناً منه بأن أحد قادة القسام الميدانيين في منطقة الخليل المجاهد «إياد البطاط» يقف من خلف العملية.

لم تكن الجلسة التي عقدتها مع خليل على انفراد بالاعتيادية كسابقاتها وقد عرض عليّ فكرتين إحداهما أخطر من الأخرى: ها ماذا تقول؟!

فأجبته: أما العودة لضرب محني يهودا مجدداً ففكرةٌ خطيرة لكنها غير مستحيلة، فقد فعلها المجاهدون في عمليات الثأر للمهندس يحيى عياش عندما نفذوا عمليتين.فقال لي: فكر في الأمر ومدى قدرتنا على تنفيذه. فأجبت على حماسته: رغم أنني لا أميل لذلك إلا أنني سأفحص الأمر حال خروجي للاستطلاع في القدس.

فسألني عن المهمة التي كلفني بها: وماذا عن المدن المحتلة عام ثمانية وأربعين؟!.

لقد حاولت الدخول كما يفعل العمال في مدينة قلقيلية ولم أنجح، بل حاولت شيئاً آخر فكان عملي في الشرطة سبباً لفشل المحاولة.

فاستفسر خليل عن ذلك فأجبت: توجهت لأحد الأصدقاء القدامى من أبناء الحركة حتى أفحص مدى استعداده لمساعدتي فأفهمني أنني غير مرحب به.

- حزن خليل قليلاً متضامناً مع الضيق الذي أصابني جراء ذلك: يكفي أن الله -عز وجل- وثم إخوانك يعلمون حقيقة الأمر والدور الذي تقوم به فلا تحزن فها أنا أمامك، أرتدي زيّ من يلاحقني رغماً عني للتمويه، لم تخبرني رأيك في الموضوع الآخر: كان المزدوج فكرة فأصبحت اليوم أجمل الحقائق عندما توفرت الإرادة ثم الإمكانات ويجري الأمر على أي أمر جديد وأقترح أن نؤجل قرار الثلاثي حتى أقوم بالاستطلاع ولكن!!

- فاجأني خليل وهو يبتسم: ولكن ماذا يا أبا أيمن؟!. – وقد زادت ثقته بي كثيراً بعد نجاح المزدوج: هل لدينا ثلاثة استشهاديين كالأسدين اللذين نفذا محني يهودا؟!

- أنت ومهند وسنأتي بثالث!. قالها منتظراً ردة فعلي، في الوقت الذي انضم إلينا فيه محمود خارجاً من الغرفة الجانبية: هل يفوتني شيء؟! سأل محمود الذي تسبقه ابتسامته المميزة.

- فأجابه خليل: لقد أبلغته بمقترح الثلاثي ووقوع الاختيار عليه وعلى مقاتل صنديد يعمل إلى جانبه.

- لم أتكلم حينها فخليل الذي كان يرفض بشدة تنفيذي ومهند لعملية استشهادية وفي الوقت الراهن والذي امتد عاماً ونصف منذ تعرفنا

عليـه، يغـيّر رأيـه بعـد محني يهـودا ونظراتـه المطمئنة تؤكد أنـه على يقين مـن طبيعـة جوابي.

- ومـا الضـير؟! أبـو أيمن آخـر من يرى الاستشـهاديين فهو أقربنـا إلى الجنة. تحـدث محمـود وهـو يجلـس إلى جانبـي عـلى الأرض، فضحـك خليل الذي كان يجـاورني مـن الناحيـة الثانيـة: وهـذا؟!. رافعـاً يـدي إلى أعـلى لـيُري محمـود خاتـم الـزواج فقـال الأخـير: وهـل الـزواج يعيـق الشـهادة؟! فقال خليـل الـذي شـعر أن مزاحـه معـي قـد انقلـب إلى الجـد: ولديـه طفلـة جميلـة تنتظره في البيت وشـقيقه الأكبر شـهيد وأقـترح أن ننهي الخوض في مزاحـي الـذي أتراجـع عنه وبالمناسـبة!! إخوانـك –وكان يوجـه حديثه لي– قيـادة القسـام خـارج الأرض المحتلـة يوجهـون التحيـة لمجموعـة الموظف.

- سـأعرف حينهـا بـأن إخوانك تعنـي التواضع من جانب خليـل والذي كان يعنـي لي وللشـيخ يوسـف ومحمـود ومعـاذ، خليـل نفسـه القائـد الفعـلي للعمـل العسـكري في مدينـة نابلـس وأنني «الموظف» اللقـب الذي لازمني بعدهـا، سـأعرف لاحقـاً في وقـت متأخـر بـأن الخـط الخارجـي الـذي كان يتواصـل مـع خليـل ويشـكل الداعـم الرئيـس بالمـال كان أيضـاً يعتقـد بمـا نعتقـد. - يضحـك خليـل وهو يخبرنا: ليـس مخابرات العدو والسـلطة ومن لـفّ لفيفهـم يريد معرفـة هويتنا فحسـب!.

- فسـأله محمـود مازحـاً وهـو يقـدم لي طعامـاً سريعـاً كما اعتـاد أن يفعل في الأيـام الفائتـة: لا تقـل لي مخابـرات كوكـب زُحل فلم يبق أحـدٌ في العالم لم يشـجب العمليـة باسـتثناء المناصرين لمقاومتنا؟! - فقـال خليل: إخوانكم المطـاردون جنـوب الضفـة الغربيـة، لقـد فاجأتهـم العملية وأظن بـأن أمراً يشـغلهم دفعهم إلى السـؤال.

- فقال محمود: ربما يريدون فتح خطوط تنسيق معنا فأنا على معرفة بأحدهم من القيادات المهمة في الحركة الشيخ عادل عوض الله.

- فهز خليل رأسه في إشارة لرفض الفكرة، سيكون من الخطأ فعل ذلك، على كل حال، سأتلقى اليوم اتصالاً خارجياً لم يكن ليحدث إلا للضرورة القصوى.

وفي المساء اصطحبته بعد صلاة المغرب ليلاً إلى شارع مرتفع أعلى قمة جبل جرزيم فوق جامعة النجاح الوطنية حتى نضمن تلقي الاتصال بسهولة نظراً لضعفه في المدينة فلا زال الخليوي جديداً في الأسواق ولا يوجد محطات تقوية والجهاز الذي يملكه خليل يستقبل المكالمة ولا يرسل، جلسنا في السيارة والجزء الغربي من المدينة تحتنا، انتظرنا ساعة كاملة لم نتلق فيها اشارة ومع ذلك لم ينزعج خليل الذي كان يستمتع بالمشهد الجميل وقد وقف خارج السيارة حيث أمكنه رؤية محطة توليد الكهرباء في مدينة الخضيرة على شاطئ الأبيض المتوسط غرب فلسطين وحتى لا نقع في مشكلة غير محسوبة غادرنا المكان عائدين، وأثناء نزولنا بالسيارة بالقرب من الجامعة رن جرس الخليوي فتوقفنا بسرعة إلى جانب الطريق وبدأت المكالمة بين التاجرين ومشكلة التسويق وضرورة ايقاف المضاربة على التاجر الفلاني فاحتد النقاش حتى سألني خليل بعد أن وضع يده على الخليوي: يطلبون منا تأجيل العمل القادم.

- فسألته هل هذا قرار سياسي؟! فأجاب خليل بالنفي.

- فقلت: إياك أن توافق.

- فعاد خليل إلى نقاشه بلغة الشيفرة: لا نستطيع التوقف , التجربة تقول إنّ عمر المجموعات قصير واستمر الأخذ والرد حتى غمزني خليل بعينه في إشارة إلى انتصارنا وبعد انتهاء المكالمة ورجوعنا إلى شقة رفيديا قال: توكل على الله غداً وسافر لاستطلاع الأمر في القدس قبل أن يغيّر رأيه فيبدو أن هناك مجموعات قد انفتحت شهيتها بعد محني يهودا وربما كانت تخطط قبلنا لتنفيذ عملية.

سنكتشف لاحقاً أن إحدى المجموعات القسامية من أبناء القدس المحتلة تتبع للقائد القسامي عادل عوض الله كانت في المرحلة النهائية لتنفيذ عملية تفجير ضخمة في قلب القدس الغربية وقد حوكمت أيضاً لدى اعتقالها على التخطيط لقتل رئيس البلدية «يهودا أولمرت» والذي أصبح لاحقاً رئيس وزراء العدو.



الرصاصة القاتلة والاستطلاع

بعد عشرين يوماً من المزدوج

نزلت في باب العامود، لم أجد صعوبة في الوصول إلى القدس بعد أن رفعت قوات الاحتلال الطوق الأمني عن الضفة الغربية مُبقية إياه على مدينة بيت لحم، فما زال السائقون مصممين على دخول مدينتهم تحدياً للجنود وشرطة العدو التي تترصدهم في الطرقات: لم أستطع إخفاء الضحك عن وجهي وأظن أن كثيرين ممن رأوني رغم هندامي المرتّب قالوا إني ممسوس، هكذا كنت أراني طائراً من الفرحة شعور لا يمكن وصفه أو كتابته بالكلمات أريد أن أصرخ على الجنود أو أصفع رقابهم أو حتى أنتف شارب أحدهم كما كانوا يفعلون بنا في مراكز التحقيق، لا لا سأتخلى عن هذه الأخيرة، وأرتل عليهم توشيحة النصر: أنا الذي كنت بالأمس خائفاً أمر على عتبات حبيبتي كالسارق ألثم جدرانها، أحضن زقاقها، أرتشف ماءها وأصلي، أركع، أسجد في محرابها وأبكي ثم أبكي وأبكي حتى جئت اليوم بعضاً من أنفاس عمر وشموخ أبي عبيدة مكتوبٌ على وجهي: هذه الأرض عليكم حرام، أحجارها مساجدها كنائسها حدائقها وهواؤها ترابها ليمونها وحتى مزابلها جميعها عليكم حرام، انظر إلى وجهي جيداً، اقرأ موتك جيداً ولا تسل كيف سيأتي حتفك غداً...

تحقـق الهـدف الأول لعمليـة الاسـتطلاع وتمكنـت مـن دخـول القـدس، القـدس الشرقيـة. ثـم تحقـق الهـدف الثـاني جزئياً بمعرفـة حجم الاسـتنفار الظاهـر لقـوات الاحتـلال في القـدس الغربيـة عـبر جمـع المعلومـات دون إثـارة الشـكوك، وبقـي تحقيق الأهم بدخول شـارع يافا، واسـتطلاع الميدان عـن قـرب، الأمـر الـذي أجلـتُ تنفيذه.

ولمـا وضعـت خليـل في صـورة الوضـع تـاركاً لي حريـة التقديـر رجعـت إلى القـدس بعـد يومين واسـتطعت الدخـول إلى القدس الغربيـة ورؤية محني يهـودا الـذي يعسـكر عـلى مدخلـه الجنـود لبـث الطمأنينـة المفقـودة في قلـوب المحتلـين واسـتطلعت شـارع يافـا بأكملـه ثـم طلبـت مـن السـائق إعـادتي إلى بـاب العامـود: فالطلبـة أخلفـوا الميعـاد ولم يأتوا حسـب المتفق عليه .

- ذات التغطيـة الأمنيـة التـي أمكننـي تطويرهـا مـع السـائقين دون إثـارة الشـبهة، عـدت بعدهـا إلى المدينة ووضعـت خليل، الـذي كان يبيت ليلتها عنـد مهنـد، في صـورة التطـورات واتفقنـا على مناقشـة التفاصيل غـداً لدى عودتـه إلى شـقة رفيديـا، لأني كنـت مضطـراً للمغـادرة والالتحـاق بورديتي الليليـة في السـجن، وفي صبـاح اليـوم التـالي خـرج إليّ أحـد أفـراد الطاقـم العامـل معـي: أمك عـلى الهاتـف تطلبك للـضرورة!!

- عرفـت أن أمـراً خطـيراً حـدث وإلّا لما أتصـل الأهـل أثنـاء العمـل فهـم يعلمـون كراهتـي لذلـك: تعـال إلى البيـت ابنتـك مريضـة!!

- كانـت أمـي التـي لم تلـدني، تربيت عـلى صوتها منذ الصغـر وهي تدعوني ومهنـد إلى وجبـة الإفطـار تحـت داليـة العنـب قـرب الأرجوحـة المصنوعة مـن مقعد شـاحنة مثبتـة بالحديد والسلاسـل: سـآتي حالاً!

- كان صوت والدة مهند يشي بحدوث أمرٍ غير اعتيادي فتركت العمل فوراً حتى قبل أن أجري العدد الصباحي ولم تكن السيارة حينها بحوزتي لوجودها في كراج طلاء السيارات: على هونك خليل بخير والحمد لله، ولكن أخشى أن لا يبقى الأمر كذلك إن لم تسرع باحضار سيارة لأن «البيجو» غير متوفرة.

- رغم الهدوء في كلام مهند إلا أن وجهه كان يتحدث بلغة أخرى فسألته: قل لي ماذا حدث؟!.. فسحبني بيدي نحو المدخل الخلفي للعمارة حتى أسرع: انفلتت رصاصةٌ من بندقية العوزي ولولا لطف الله لأصابت أحدنا. - لم يقلقني ذات الحدث بعد التأكد من سلامتهما إنما الصوت: هل كان الصوت عالياً، هل سمع أحدهم ذلك، هل...

- دفعني مهند مقهوراً – يا أخي تصرف بسرعة لقد قمت بتكسير الأخشاب للتغطية والتمويه.

- طرت إلى أقرب شخص لا يمكنه رفض إقراضي سيارته: ابنتي بحاجة إلى المستشفى وسيارتي ليست معي..! فأخرج الأستاذ المفاتيح رغم استعداده المسبق للذهاب إلى مدرسته وكان من روّاد المساجد: أتمنى السلامة لصغيرتك. وأثناء مغادرتي قلت له: لا تقلق سأعيدها بسرعة حتى تتمكن زوجتك من قيادتها للعمل.

- قمنا ببعض الاحتياطات الأمنية قبل أن أخرج بخليل إلى السيارة: هل تأكدتما من عدم مراقبة أحد للشارع الخلفي؟! سأل خليل المستعد دائماً للطوارئ: لم نر أي تحرك مشبوه وأبو أيمن عمل جولة صغيرة في المنطقة.

- كانـت المـرة الأخـيرة التـي يـأتي بهـا خليـل إلى منـزل مهنـد!! رغـم حبـه للمـكان الـذي كان أول مسـتضيف لـه وأعـد لهـذا الهـدف، وأثنـاء مرورنـا مـن الشـارع المقابـل لبيـت أخينـا صاحـب السـيارة كانـت زوجـة الأسـتاذ تقـف أمـام البيـت بانتظـار عـودتي والضيق بـادٍ عـلى وقفتهـا، فطلبت من خليـل عـدم النظـر إلى اليمـين لأن صاحبـة الأمـر تقـف هنـاك: سـتذبحك!

- قـال خليـل مبتسـماً، وفي اللحظـة التـي أصبحنـا فيهـا قبالتهـا نظـرت إلى سـيارتها مصدومـة وهـي تـراني وإلى جانبـي شرطـي فلسـطيني يبتسـم، مشـهد كوميـدي لخصـه وجههـا الـذي كان يتحـرك مـع حركـة السـيارة وعيناهـا اللتـان كانتـا مذهولتـين: مـاذا سـتفعل الليلـة بزوجهـا؟!

- سألني خليل ضاحكاً فأجبت وأنا أراها في المرآة: سينام في الصالة.

- أنت بذلك تؤكد ما يشاع عن نساء نابلس!

- فأجبته بسؤال ونحن نعبر من أمام المدرّج الروماني: أنهن جميلات؟!

- فتلّـون وجـه خليـل مـن الضحك والخجل: هـذا لا جدال فيـه إنما قصدت قويات.

- صحيح! فجمال النابلسيات قوة لا تقاوم!

- فازداد خليل ضحكاً وتذكر أمر: لذلك تزوجت من الريف الفلسطيني؟!

- فقلـت بعـد تنهيـدة عميقـة وكانـت المـرة الأولى التـي نجري فيهـا حواراً مـن هـذا النـوع: اصطـادني السـحر الريفـي قبـل النابلـسي لذلـك -قلـت ضاحـكاً وأنـا أنظـر إليـه- لم أنـم مـرة واحـدة في الصالـة.

"التأجيل وأسر الجندي"

قبل عشرة أيام من الثلاثي!!

- سنتفق على الخطة المبنية على الرصد القديم والاستطلاع الحديث، وسيقوم خليل بعرضها على معاذ دون التفاصيل الخاصة بعمل مجموعة التنفيذ مبقياً ذلك سراً بيننا: أتدرك عواقب عملية بهذا الحجم؟!

- يسأل معاذ ما بين المزاح والجد وهو يقدم كأساً من الشاي إلى خليل الذي يجتمع به في مخازن الهندسة بعيداً عن العيون والناس.

- هذه المرة سيتأسف «نتنياهو» على كل الجرائم التي يرتكبها العدو ضد شعبنا وسيرجونا أن نتوقف عن ذبحه «انتخابياً» حتى لا يسقط كما سقط سلفه في حزب العمل «شمعون بيرس» بعد عمليات الثأر على اغتيال المهندس – شرب معاذ رشفة طويلة من كأسه وهو ينظر بعيني خليل: يجب أن نكون جاهزين إلى زلزال..!

- فقاطعه: لقد أخبرتك سابقاً وأكرر: شعبنا يعيش الزلزال منذ عشرات السنين وآن الأوان أن تصل اهتزازات هذا الزلزال إلى كل بيت صهيوني، لقد اجتمع العالم في شرم الشيخ لإدانة العمليات الاستشهادية وتجريم مقاومتنا ووصفنا بالإرهاب، جيد، ماذا حدث بعدها؟! لا شيء، عدنا بعد عام ونصف وضربنا العدو في محني يهودا.. فتحمس معاذ الذي نسي للحظة هدف كلامه: بل قل جعلنا صانع القرار في دولة الاحتلال يعيد

بعـض حسـاباته..! قاطعـه خليـل مـرة ثانيـة: وأضمن لـك، إن اسـتمرينا في ضربـه وإيلامـه في الأماكـن الحساسـة، سـيتخذ قـرارات مـع الوقـت بتأثـير داخـلي تصـب في صالـح قضيتنـا وشـعبنا، ولـن يكـون بمقـدور هـذا العـالم الظـالم أن يبقـى صامتـاً ودماء أطفالنا ونسـائنا تسـفك كل يوم، سـنلزم من يناصبنـا العـداء ويؤيـد عدونـا بـأن يرجونـا ولن نسـتجيب له.

- فقال معاذ: عملية محني يهودا أطلقت السياسي الذي في داخلك..

- فـرد خليـل: لمـاذا لا تقـل كلامـك الـذي يناقـض تأييـدك السـابق للعملية الإسـتراتيجية التـي طرحهـا الشـيخ يوسـف؟!.. فتذكـر معـاذ، واضعـاً كأس الشـاي عـلى الأرض وقـد سـمع إشـارة مقـدم نسـيم إلى المخـازن: يـا شـيخ خليـل يـا أخـي الحبيـب، ألا نؤجـل العمليـة الثانيـة ونـسرع بتنفيـذ مـا اتفقنـا عليـه؟!

- فرفع خليل حاجبيه إلى أعلى وهو يبتسم: عن أي اتفاق تتحدث؟!

- عن أسر الجنود، دعنا نفعلها الآن قبل أن يصبح الأمر متأخراً.

- هـا، لقـد قلـت إن الشـيخ معـاذ..!. وهنـا جـاء دور معـاذ بالمقاطعة: لقد أدى بيـان العمليـة دوره وتمـت إثـارة قضية تحرير الأسرى مجـدداً في وعي النـاس ولـدى العـدو وبقي أن نأسر جندياً حتى نحرر الشـيخ أحمد ياسـين والأسرى وصدقنـي بأن..!

- يـا شـيخ معـاذ، حرية الشـيخ المجاهـد أمانـة في أعناقنا ما حيينـا، لكننا لا نسـتطيع التوقـف الآن. - وهنـا انضم نسـيم إلى الجلسـة تبعـه جاسر الذي كان يتيـح لهـما عقـد اجتماع منفـرد: تفضلا، سـاعداني بإقناعـه، علنا نتقدم خطوة بهـذا الملف!

- فسأل جاسر الذي جلس إلى جانب خليل: عن أي ملف تتحدث؟!

- فرد معاذ: وهل غير حرية صاحبيك عبد الناصر وعثمان اللذين يرجوان منك الوفاء لهما؟!

- فدمعت عينا جاسر الذي لم يبكِه التعذيب في أقبية التحقيق فأوجعته حقيقة وجوده حراً ورفيقيه اللذين شاركهما العمل الاستشهادي يقضيان حكماً بالمؤبد بعد أن حميا ظهره في التحقيق فلم يعترف، وها هو يقف أمام خياري الواجب والأوجب.

لا يقوى على الكلام، تماماً كما فعل نسيم الذي تذكر عثمان ورفقة الصبا والمساجد، فهز معاذ رأسه مدركاً ما يحدث: لقد حذرني عبد الناصر عيسى وأنا أودعه: دع العمليات الاستشهادية للمجموعات الأخرى وتفرغ لأسر الجنود وتحرير الأسرى تعلّم مبدأ التخصص ولا تدخل نفسك في عدة مجالات مرة واحدة.

- فقال خليل: وأنت الآن ناجح في تخصصك فدع أسر الجنود لمجموعة أخرى. - فنظر الثلاثة إلى وجه خليل باستغراب فقال: أنا أعلم ما أقول ومع ذلك، دعونا نكمل ما بدأنا به وسيكون لنا حديث آخر وتأكد أخي معاذ أن غيرك لا يتحدث معي بالكلام مثلك بل يهددني بالرصاص إن فكرت بالتأخر عن العملية الثانية وليس مبدأ تأجيلها.

- فسأله معاذ متحمساً وقد نسي ما كان به قبل لحظات: هل ما تقوله مجازاً أم حقيقة؟!.

- هؤلاء الاستشهاديين مع وقف التنفيذ لا يمكنك إقناعهم بغير الشهادة وعلى طريقة نسيم وجاسر.

- فخفضا رأسيهما – لذلك، جئت الليلة حتى تجهزا ثلاث حقائب: الله أكبر – خرجت من صدر نسيم كالزلزال ثم أتبعها بكلمة: أنا!! – فعقب خليل بسرعة: أكيد أنك من ستصنع الحقائب إلى جانب «الجنجي».

- فهز رأسه يمنة ويسرة: بل سأكون أحد الاستشهاديين الثلاثة. – قالها وهو ينظر إلى عيني معاذ الذي كان يعلم بتلك النية، فتنهّد خليل وهو يخاطبه: هل تريد من قيادة القسام أن تنصب لي مشنقة؟! أنت وهذا الجنجي كنزٌ للشعب الفلسطيني والمقاومة، أما الشهادة؟! فلا تقلق ستأتيك عندما يشاء الله.

وقبل أن ينفضّ الاجتماع تذكّر معاذ أمراً اتفق عليه مع خليل في اجتماعهما الأخير عند الشيخ يوسف: هل فتح الله عليك شيئاً في الإستخارة؟!. وكانا تعاهدا على ذلك بعد اتخاذ قرار ثلاثي زيادة في الطمأنينة، فابتسم خليل، ممّا أثار الفضول لدى معاذ: يبدو أنّك رأيت شيئاً في منامك؟! فازدادت ابتسامته توسّعاً يخاطب عيني معاذ، الأمر الذي دفع الأخير بنفسه على الإفصاح فأجاب: رأيت صفّاً طويلاً من النساء اللائي يرتدين ملابس الزفاف ينتظرنني وسط المدينة على دوار الشهداء!!

- فصمت معاذ قليلاً قبل أن يوجّه سؤاله المفاجيء لخليل: يبدو أنّك تنوي على شيء؟! - فسارعه بالنفي، ولازالت الإبتسامة تزداد اتساعاً: ماذا تقول يا رجل؟ ادعُ لنا بالتوفيق، ولن يحدث إلّا ما يرضي الله ورسوله.



"حي المصيون والتكتيك الجديد"

قبل ثمانية أيام

- لا أدري مـن أيـن أبـدأ، لـو كنـت في مدينتـي لأمكنني حل الأمر بسـهولة، فـرام اللـه والبـيرة مدينتـان غريبتـان عـليّ في هـذا الجانـب والعثـور عـلى منـزل للاسـتئجار مهمـة صعبـة: لكنهـا لـن تكـون أصعـب مـن مهمتـك الأولى!!.

– قـال خليـل بعـد أن تباحثنا بالأمر بوجود محمود: أنا لا أقول باسـتحالتها لكننـي بحاجـة إلى المعلومـة الأمنيـة التـي تضمن لنـا المؤجر والجـيران من أجل سـلامة المجاهدين.

- فعلّـق محمـود الـذي كان يراقـب بالمنظـار طريق عصـيرة – نابلس لرصد حركـة الحافـلات: لسـنا بحاجة إلى ذلك فالشـبان سيعيشـون حيـاة الطلاب القادمـين مـن شـمال الضفـة واحتماليـة كشـفهم ضعيفـة، وعـلى كل حال، مـدة مكوثهـم سـتكون قصـيرة إلى حين موعـد التنفيذ.

- لم يكـن أمامـي سـوى الارتجـال فبـدأت بسـؤال بعـض المحـال الجانبيـة وحتـى المـارة فلـم أوفـق بالعثـور على مـرادي فأخـذت بدخـول العمارات السـكنية والطـرق عـلى أبـواب الشـقق حتـى رزقنـي اللـه بامـرأة طيبـة زودتنـي بعنـوان أحدهـم من عامة الناس علّه يسـتطيع مسـاعدتي وبدوره أرشـدني إلى تاجـر للألبسـة وجـدت عنده مـرادي: أنـا طالب دراسـات عليا

في بيرزيت وأريد لم يدعني الرجل أكمل فنادى على ولده: اذهب مع الأستاذ وأره البيت القديم.

- كان البيت في حي المصيون الراقي بقرب المقبرة، يلزم أن تستقل سيارة من وسط المدينة للوصول إليه، له مدخل جيد من الناحية الأمنية:- ثلاثمائة دولار في الشهر. لم أساوم كثيراً على الإيجار فالأسعار اتضحت لي أثناء البحث، لكن الأهم من ذلك كله عدم اضطراري لإظهار أي وثيقة ثبوتية مكتفياً باسمٍ مستعار فالمؤجرون لا يكتبون عقوداً رسمية مع الطلبة. وهكذا أتممت الجزء الأول من المهمة..

وجاء دور مهند: نريد عمل «بروفة» عملية لنقل الشباب من نابلس إلى رام الله مرة واحدة. فأجابني بفرح كالعادة فقد كان ينتظر ذلك: إذن، تغيير التكتيك؟!

- نريد أن نسبق مخابرات العدو بخطوات، فقال مهند: هذا يلزم إشراك مجاهد ثالث يقود سيارة المراقبة الأمامية، فأنت لا تستطيع القيادة خارج المدينة لعدم امتلاكك رخصة للسياقة..

حينها أدركت الخطيئة التي ارتكبتها بعدم الإسراع في التقدم لامتحان القيادة، على الرغم من إتقاني لها وامتلاكي سيارة.

فقلت: على ألا يعرف شيئاً سواءً بالتلميح أو التصريح.

- قام المجاهد الثالث «الثقة لدينا» باستئجار سيارة بحالة جيدة ثم انطلق أمامنا باتجاه رام الله وقد زودناه بجهاز خليوي استأجرناه إلى جانب جهاز آخر بحوزتنا من مكتب للاتصالات بدأ يوفر هذه الخدمة غالية الثمن والمستوجبة للضمانة المالية والأوراق الثبوتية..

لم يضطر المجاهد لاستخدام الخليوي لإنذارنا عن طريق الشيفرة بوجود حاجز «طيار» للعدو لأن الطريق كانت نظيفة من ذلك.

- وضعت خليل ومحمود في صورة التطورات وأحسست بوجود التردد: الشيخ محمود يود نقاش الأمر مجدداً – قال خليل – حتى لا نقع في أخطاء غير محسوبة.

- فرد عليه بصوت منخفض حتى لا يصل حديثنا إلى يوسف وبشار: الحقيقة بأن الأمر يتجاوز ذلك، فعندما طرحنا الانطلاق للتنفيذ في رام الله لم نكن نعلم بالموعد التقريبي للعملية وهذا يعني مكوث المجاهدين فترة من الزمن هناك، أما الآن ولا يفصلنا سوى ثمانية أيام، فأرى ألا نرهق أعصاب الاستشهاديين بالسفر والسكن الجديد.

- فضحك خليل وهو يشير بإصبعه إلى غرفتهما: أمتأكد أنك تتحدث عنهما؟!

- فهز محمود رأسه مبتسماً: هما والثالث الذي تكفلت بإحضاره.

- فتوجه خليل للحديث معي: نحن نجلس في بيت يسكنه اثنان من أهل الجنة يتصرفان وكأنهما هناك –وكان يشير إلى السماء- ستأتي اللحظة التي تلتقي بهما وستعرف عن أي نوع من الرجال أتحدث.

- فقلت: لقد عرفتهما من خلال أخويهما في محني يهودا، ومع ذلك، أنا أميل لما يتفضل به الشيخ محمود، دعنا نبقى على خطة عملنا الأساسية ما دام الأمر لم يخرج عن مجموعة التنفيذ.

- كان خليل يدرك تماماً ما أقصد فالسرية القصوى القاعدة الأولى لنجاح العمل.

- فضحك محمود: أصبحنا اثنين مقابل واحد. فقال خليل: هذا الرجل -وكان يشير إليّ- رأيه مقدمٌ عندي، والآن!!

- فسألته: سنسلم بيت رام الله إلى صاحبه؟!.

- فرد بسرعة: لا لا، بل سنبقي عليه للطوارئ ما دمنا قد دفعنا أجرة شهرين مسبقاً ولكن ما أردت قوله سيخبرك به محمود.

- وما زال محمود مبتسماً كعادته وقد أخرج رسالة من جيبه: ضع هذه الرسالة في مغلّف وأوصلها إلى السكرتيرة التي تعمل في عيادة الدكتور «كمال» في شارع فلسطين، وإن لم تجدها هناك اتركها لدى الطبيب، ولا تذهب بلباسك العسكري.

- وقبل أن أغادر سألت خليل: هل الاستشهادي الثالث جاهز؟

- فتبرع محمود للإجابة: أخشى أن يكون مثل استشهادي التلة الفرنسية!!.

- فقال خليل وهو يكرمني بكأس من الشاي: بالله عليك، هل هناك كلام بعد ملحمة «محني يهودا»؟! لا تقلقا سيأتي في الوقت المناسب ولن يقلّ حرصاً وإخلاصاً وشجاعة عن أخويه.



"أمانة السكرتيرة والعناق السري"

قبل خمسة أيام

- كانت قدمٌ تتقدم للأمام وأخرى تتأخر للوراء: خليل ومحمود ليسا ساذجين حتى يعرضاني لخطر الانكشاف وهما يعلمان وضعي الدقيق وأهمية بقائي في الدائرة الأكثر سرية، ألم...: دعك من هذا التردد الذي تلبسينه أسباباً عقلانية، أعرفكِ منذ بعيد، تظهرين في الأوقات الحساسة حتى تضربين الثبات الداخلي.

- أنت جسدٌ عاق، لا تعرف قيمتي أبداً تتذكرني عندما...!

- وأنتِ نفسٌ أمارة بالسوء قد عقدت الحلف مع الشيطان وإلاّ لماذا توسوسين في عقلي وضميري؟!.

- قهقهت قبحها الله قائلة: أنا التي صاحبتك في كل شيء، لم أمنعك عن دورك حتى فعلت ما لم يقم به غيرك الذي يجلس في بيته يهنأ مع أولاده وزوجته، فهل أخطأت عندما أنبهك..؟!

- اخرسي، لو كنتِ شيئاً يمكن قطعه أو قتله أو حتى ركله بقدمي لفعلت ذلك ولخلصت منكِ، عرفكِ المتخاذلون من قبلي –قاطعتني وأنا أصعد الدرج باتجاه عيادة الطبيب– توقف قليلاً حتى نتفاهم فربما يكشف الطبيب هويتك، ألا تسمع نصيحتي قبل فوات الأوان؟!

- ستخرس وسوسة النفس وضعفها البشري كالعادة بمجرد دخولي العيادة التي كانت خالية واستقبال الطبيب البشوش لي: أهلاً وسهلاً تفضل في غرفة الفحص.

- كان كبيراً في السن لم يسبق أن التقيته سابقاً وهذا ما أراحني: شكراً لك لست مريضاً –قلتها وأنا أبحث بعيني عن السكرتيرة– هل الآنسة حنان موجودة؟!

فأقطب الطبيب وجهه وتحوّل إلى محقق: ماذا تريد منها، ومن أنت حتى تسأل عنها؟!

- أرجو من حضرتك أن تسلمها هذه الرسالة.

- فازداد الطبيب غضباً وأنا أضعها في يده: أنت فعلاً غريب، لماذا لا تجب عن السؤال؟!

- الإجابة في الرسالة عندما تقرؤها الآنسة حنان.

- ثم رحلت بسرعة، ضحك محمود وهو يستمع إلى تصرّف الطبيب وكان قد أخبرني بإمكانية الوثوق به حال عدم وجود حنان: لقد فتشت الأجهزة الأمنية الفلسطينية سابقاً في بيته وعيادته بحثاً عن شقيق السكرتيرة الذي يجلس في الداخل – وقد رفع صوته حتى يسمع يوسف فضحك الأخير على مسمعنا وما زال وبشار غير مسموح لهما برؤيتي- فرجعت للوراء قليلاً: هل العيادة مراقبة؟!

- فرد خليل وهو يطمئنني بيده: لا لا، التفتيش كان قبل عام ونصف عندما حرّر المجاهدون أنفسهم من سجن المخابرات الفلسطينية فهذا الطبيب تربطه علاقة اجتماعية بعائلة أخينا.

- رجعتُ إلى العيادة في اليوم التالي حتى أستلم الأمانة! فوجدت الطبيب

ينتظرني وفق إرشاد الرسالة: مرحباً بك، أهلاً وسهلاً، حيّاك الله.

- ترحيبه الرائع أخجلني: ألم تستطع إخباري البارحة حتى تريحني وأقوم بواجبك؟؟! - لم أستطع الإجابة فالطبيب المشهور في المدينة المعرّض للأذى بسببنا، لم يكن يخاطب شخصي بل المقاومة التي يحب ويستعد للمخاطرة من أجلها، ولم يكد الطبيب ينهي كلماته حتى خرجت حنان بشغف لرؤيتي وقد انتظرت منذ البارحة لاشتمام رائحة يوسف الذي لم تستطع رؤيته منذ فترة طويلة: كيف حاله يا أخي. ما أخباره، هل يأكل جيداً هل وهل وهل.. قصيدة شعرية من الأسئلة الجميلة الرائعة والمؤثرة: ولماذا غاب عنا كلّ هذه المدة؟!.. لقد قتلتني بشوقها إليه ووحدي الذي يعلم أن شوقها سيطول كثيراً بعد أيام!! - ثم تذكرت فرجعت إلى درج مكتبها وأخرجت الأمانة: هذا فيلم الكاميرا الذي طلبه، بالله عليك يا أخي أن تسلم عليه وتخبره بأن الأهل جميعاً مشتاقون له ولإخوانه. - ولما هممت بالمغادرة أوقفتني: أرجو أن تعطي النقود هذه ليوسف... حينها عرفت اسمه فقلت لها: صدقيني أنه بخير وليس بحاجة للمال.. فأصرت على إعطائي المبلغ فرفضت بشدة حتى تطمئن أكثر وقلبي يخبرها: هذا آخر ما يفكر به شخص يطلب الجنة.

- نقلت تأثري إلى محمود وخليل اللذين عرضا عليّ: ما رأيك أن تأخذه إليها؟!.

- لم أفكر لحظة واحدة: هذه من أجمل المهمات، أخرجاه حالاً.

- كان جميلاً جداً تظن للوهلة الأولى أنه يضع الكحل في عينيه.

- وأخيراً التقيت صاحب الصوت الذي تسمعه ولا تراه.. قال محمود ويوسف يصافحني، الأمر الذي سيقوم به كلما أتيت إلى الشقة قائلاً:

أريـد أن أسـلم عـلى صاحبـي. - فيغـار بشـار الذي يسـتنكر لمحمـود ذلك: ليـت لي أختـاً سـكرتيرة في المدينـة حتـى أزورهـا فيصبـح الصـوت الـذي في الخـارج صديقـي، لـو كنـت أعلم الغيـب لجعلت.. فـكان محمود يسـكته: لا تقلـق سـتراه قريباً.

- ولم يكونا يعلمان أني من سيقودهما إلى العملية.

- كان يوسـف منفعـلاً، يعلـم أنـه اللقـاء الأخـير لشـقيقته في الدنيـا: لـن أضعـف ولـن تشـعر أني راحـل عنهـا لكننـي سـأحضنها، سـأقبلها، سأشـتم رائحـة يديهـا وشـعرها الـذي سرحتـه أمـي صباحـاً، سـأدعها تبـكي عـلى صـدري، لا بـأس، سـأظفر بعبراتهـا عطـراً يصحبنـي إلى الجنـة، هـي لـوزة الـدار الخـضراء، رغيـف الطابون السـاخن بالزيـت والملح، «كانـون الجمر» وإبريـق الشـاي والكسـتناء، زنّـار أمـي المخبـوء في طياته المصروف، جلسـة الجـدّات في قـاع الـدار.

- ابتسـم يوسـف وهـو يجلـس إلى جانبـي، يثـيره كل شيء، يتفاعـل مع كل شيء حتـى أصغـر الأمـور التـي لا نلقـي لهـا بـالاً، ولمـا وصلنـا بالقـرب مـن شـارع فلسـطين، ركنت السـيارة جانباً وقدته مشـياً على الأقدام إلى العيادة التـي تقـع في الطابـق الثـاني لبنايـة قديمة أسـفلها مكتبـة لعائلة كمال:

- سـأنتظرك في الأسـفل لتأمـين المـكان، لكـن يجـب أن أفحـص العيـادة مجـدداً قبـل أن تصعـد.

- امتـد اللقـاء عشريـن دقيقـة وأظن بأن يوسـف لم يسـتطع مقاومة حنينه للبيـت والأهـل والبلدة التي يراها في وجه شـقيقته ففضـل اختصار الزيارة والرحيـل بسرعـة حتى لا تضعـف عزيمته! هكذا –لجهـلي- كنت أظن!!

"الاستشهادية وتزيينها"

قبل ثلاثة أيام

- يـا إلهـي! سـاعدني، ما هـذه الورطة التي أوقعـت نفسي بهـا؟! فأنا بالكاد أرافـق زوجتـي في تجوالها عـلى باعـة الملابـس حتى أدفـع النقـود وأعطي رأيـي الـذي يتكـرر في كل مـرة: جميـل، رائـع.. فتضغـط عـلى يـدي بدلـع أفهمـه: تـرى كل الملابـس جميلـة، ألا يعجبـك شيء بعينـه يغريـك أن تراني أرتديه؟!

- أنتِ التي تعطين جمالاً لكل شيء.

– فتتصنـع البـكاء: ألا تكـف عـن خداعـي بسـحر كلماتك؟!. هـذا في ابتياع الأثـواب التـي تـأتي في أوقات متباعـدة، أما..؟!! فأدعها لأمـي وزوجتي، هي مـرة أو اثنتـان كانتـا بمثابة عمليـة فدائية تجرأت فيها واشـتريت هدية من النـوع الخـاص جداً، أمـا الآن فلا؟!

- التقـاني مهنـد في ميـدان الشـهداء وأنـا عـلى تلـك الحالـة: هـل اشـتريت المطلـوب؟! – سـألني مبتسـماً فـرددت عليـه ونحـن نتوجـه إلى السـيارة المركونـة قـرب السـوق الأخـضر: تقولهـا ببسـاطة، أقسـم إنهـا أصعـب من العمـل ذاتـه –ثـم نظـرت إليـه راجيـاً– مـا رأيـك أن تقـوم بهـذه المهمـة مـكاني؟!.

– فأجابنـي بسـؤال: هـل عرضـت عـلى خليـل اسـتعدادي لأن أكـون الاستشـهادي الثالـث؟!. فحوقلـت عـلى مسـمعه ونحـن نصعـد السـيارة، فانفجـر ضاحـكاً وهـو يهاجمنـي باحتجاجـه: تريـد مني فعل أمر تسـتحي أن تقـوم بـه وأنـت المتـزوج الوحيـد بيننـا؟!. أفضّـل أن أستشـهد الآن ولا أقـوم بذلـك.

- «استشـهادية»!. –لم أدر كيـف جـاءت الفكرة التي ولـدت أثناء التخطيط للعمليـة، فحملهـا محمـود وخليـل إلى بشـار ويوسـف، وقفـا أمامهـما يبتسـمان فسـأل يوسـف:هل يريـد صديقي شـيئاً؟!. وكان يقصـدني بعد أن صافحنـي وعـاد إلى الغرفـة. -فرد عليـه خليل: نعم، يريد قياسـات أحدكما.

– فنهـض الاثنـان عـن الأرض، وقـد تحولـت أنظارهـما إلى الجديـة: هـل عدلتـم عـن الثـلاثي؟! قـال يوسـف، فحـاول محمـود الحديث فلم يسـتطع لتدخـل بشـار: سـتقعون في مشـكلة جديـدة!. فاسـتغرب محمـود: ولمـاذا سـنقع في المشـاكل؟! - فرد بشـار الـذي تحول لون وجهه: لأنـه لا إيثار بعد اليـوم في الشـهادة، يكفـي أن معاويـة وتوفيق قد ظفرا بحقنـا ولا ندري ما سـيحدث لنـا بعـد دقيقة، وهذا لـن يتكرر مـرة ثانية، فأنصحكـم بالعدول عـن اختيـار أحدنا والعـودة للثـلاثي وإلا!! فأنا الاستشـهادي.

- فقال يوسف: وأنا لا أقدمك على نفسي، أنا هو الاستشهادي.

- فرفـع محمـود وخليـل أيديهـما وهـما يضحـكان: اهـدءا، اهـدءا، أنتـما الاثنـان معـاً.

- فاسـتغربا بعـد أن عـادا إلى ابتسـامتهما الريفية الجميلة: لقـد أفزعتمونا، مـا هي القصـة بالضبط؟!

- فطلب خليل من محمود أن يشرح، فقال: نريد قياسات سيدة من بينكما، فلم يفهما رغم تفاعلهما مع ضحك الاثنين فقال خليل شارحاً: أحد الاستشهاديين الثلاثة سيرتدي زي فتاة جامعية!!

– فتوسعت حدقاتهما وهما يحملقان بهما – وأبو أيمن ينتظر القياسات.
– فتحولت أنظار الثلاثة بمشهد سينمائي ناحية بشار.

– فصرخ ضاحكاً: هل أبدو لكم فتاة؟! – فوضع يوسف الطويل القامة يده على كتف بشار: لا تحزني يا أختي ستصنع المساحيق منك فتاة لها ملامح جميلة.

- ثم عادا إليّ في المطبخ وهما يضحكان: هو من طولك.

- فقلت: أتعلمان أنني لم أقس يوماً طولي.

- فقال محمود: عندي فكرة، ثم طلب من بشار النوم ثم قاسه بعدد بلاط الأرض، وكنت وخليل نسمع الضحك من الصالون.

- دخلت ومهند صالون حلاقة نسائي صغير بالقرب من جامعة النجاح: هل نجد عندك باروكة شعر نسائية؟!.

- ابتسمت المرأة وهي تشاهد شابين في مطلع العشرين من عمرهما يطلبان باروكة فسألت: وماذا تريدان بها؟!.

– فقال مهند: نحن في فرقة مسرح الجامعة ولدينا دور يتطلب باروكة.

- فاعتذرت منا لكنها أرشدتنا إلى صالون آخر وجدنا عنده ضالتنا ولكن! اضطررنا للجلوس داخل الصالون الضخم الذي يديره ما يطلقون عليه بالكوافير «حلاق النساء» وقد تحولت أوتاره الصوتية مع مرور الوقت

إلى أوتـار نسـائية ناعمـة، وألزمتنـا الحاجـة أن نسـتمع إليـه نصـف سـاعة حتـى تحـضر مجموعـة «البواريـك» مـن شرق المدينـة، ولم يخـل الأمـر مـن اسـتراق النظـرات مـن جانـب المتدربـات نحـو مهنـد، جميـل الطلـة والابتسـامة الفطريـة واللحيـة الخفيفـة التـي تزيـن وجهه: تسـعون دولارًا أمريكيًـا!! – فنظـرت إلى وجـه مهنـد الذي تفاجأ مثلي فقلـت للرجل: هذا كثـير جـداً، نحـن طلبـة ولا نقـدر عـلى هـذا المبلغ.

- لكنـه غلبنـا في النهايـة واضطررنا لدفع النقود والمغـادرة بالباروكة الرائعة والمتقنـة والتـي لا يمكـن تمييزهـا عـن الشـعر الحقيقي، ذهـب مهند لإتمام بعـض المهـمات الضروريـة وبـدوري عـدت إلى معـارض الأزيـاء النسـائية وابتعـت فسـتاناً راقيـاً يليـق بفتـاة جامعيـة، لم ألـق صعوبـة مـع البائـع الـذي يفعل المسـتحيل لإقناعـك بالشراء، ثم توجهت إلى محـل يبيع أدوات التجميـل: مـاذا؟! – صرخـت زوجتـي في وجهي وأنا أسـألها: ماذا تسـتخدم المـرأة مـن أدوات تجميـل حتـى تبـدو جميلة؟!

– لا تفهمينـي خطـأ، مهنـد الطاهر وإخوانه في الجامعة يسـتعدون لتمثيل مسرحية يجسـدون في إحـدى فقراتها دور امرأة.

- فقالت: وهل ستأخذني لحضورها؟!

- بالتأكيـد، المهـم الآن، مـاذا تضعـون عـلى وجوهكـم بالترتيـب غـير أحمر الشـفاه فهـذا أعرفه.

- هكذا عرفت ما أريد وابتعته من المحل، إضافة إلى مستلزمات أخرى.

- تجولـت أمـام المحـال والمعـارض خـوفي يخاطـب خجـلي فـلا أقـوى عـلى دخـول إحداهـا، الفكرة ذاتهـا تدفعني إلى الضحك كالمجنـون، لكنني يجب

أن أنجـز المهمـة ولم يتبـق عـلى موعـد الانطـلاق سـوى ثلاثـة أيـام: يـا رب أعنـي؟! وبينـما كنـت أبحـث عـن مـكان مناسـب، رأيتهـا: امـرأة كبـيرة في عمـر والـدتي تعمـل في المعـرض الخالي مـن الزبائن، فقلت يـا الله ودخلت، فاسـتقبلتني جيـداً وقـد رأت الارتبـاك عـلى وجهـي: مرحبـاً بـك.. انعقـد لسـاني فلـم تكـن كبـيرة السـن كـما ظننـت ولم أدر كيـف أصيـغ الكلـمات: أريـد هديـة لزوجتي و..! فابتسـمت المرأة وأخذت تسـاعدني: ما مقاسـات زوجتك؟!.

- يـا إلهـي، كان هذا أصعب سـؤال، فقلت وجسـدي أصبح مفـرزة للعرق: بصراحـة، لا أعـرف بالضبـط لكنهـا مثـلي - وأشرت إلى نفـسي والمـرأة تزداد ابتسـاماً: إذن، سـأعطيك هذا الحجم و..!

وبـدأت تريني النماذج وتنتقي المقاسـات المناسـبة حتـى إذا ما وصلت إلى الـشيء الـذي لا يمكـن قياسـه عـلى الرجـل «الصدريـة» تمنيـت أن تبتلعني الأرض: هـل هـي ممتلئـة، نحيفة متوسـطة؟!.

لا أدري كيـف سـوينا الأمـر بسرعـة فدفعـت النقـود وخرجت مـن أصعب المواقـف التـي مـررت بهـا، ولم أكـد أخطـو بضع خطـوات في الشـارع حتى تفجـرت خـواصري مـن الضحـك، لقـد تحـول الخجـل إلى ضحـك لا يمكـن مقاومتـه، ولا أدري كيـف سـيكون الوضـع لـدى محمـود وصحبـه!!

- بحثـت عـن حـذاء نسـائي قيـاس 42 عـلى حجـم قـدم بشـار فلـم أجـد، فرجعـت بيومـي الممتلـئ إثـارة إلى شـقة رفيديـا في الوقـت الـذي كان فيه مهنـد يسـتأجر شـقة مفروشـة كالمرة السـابقة في حـي المخفية لمـدة أربعة أيام.

"القائد يتفقد وحياءٌ تستحي منه الملائكة"

قبل خمسة وستين ساعة

- لم أدرِ حينها بأن زائراً دائماً للعمارة قد تسلل خلسة إلى الشقة بعد انتهاء اجتماعه بالأستاذ جمال منصور، أبرز قادة حركة حماس في الضفة الغربية وسآتي بعد مغادرته بقليل فالشيخ يوسف السركجي دائم الحركة في المدينة وتواجده بالعمارة التي يقطنها قياديان أحدهما الذي يؤجرني الشقة دون أن يدري ما أفعل بها، أمرٌ طبيعي: زيارة أسرع من البرق. – قالها الشيخ وهو: يعانق محمود وخليل اللذين تفاجآ برؤيته قبل مجيئي: يبدو أن قيادة الحركة تجتمع اليوم في العمارة؟!.. سأل محمود وهو يستقبل الشيخ الفرح بلقائهما: رؤية الشيخ أبو طارق بركة لنا وللعمل.

– علق خليل وهو يسحب الشيخ إلى الغرفة الداخلية بعيداً عن باب الشقة: لا أستطيع المكوث كثيراً، أردت الاطمئنان عليكما والتأكد من عدم وجود مشاكل.

– فقال خليل الذي لا يريد إفلات ذراع الشيخ: المشكلة الوحيدة أننا نشتاق إليك كثيراً وضغط التجهيزات –ثم اقترب قليلاً إلى وجهه– للثلاثي يجعلنا نقلص الحركة. – فهمس الشيخ مكبراً: الله أكبر ولله الحمد، أخبراني عن أي شيء تريدانه وسيكون عندكما فوراً.

– فقـال محمـود: الاستشـهادي الثالث!.فنظـر إليـه خليـل باسـتغراب: ألم نتفـق عـلى ذلـك؟! فـرد محمـود والشـيخ يسـتمع: تقـول ذلـك منـذ اتخاذ قـرار الثلاثي وهـا نحـن عـلى بعـد ثلاثـة أيـام فقـط مـن التنفيـذ ولم يأتِ أو تخبرنـا عنـه؟!. يـا أخـي الحبيـب –أجـاب خليـل– هـذا الأمـر في رقبتـي وسـيحضر المجاهـد يـوم التنفيـذ.

– فقـال الشـيخ يوسـف والابتسـامة تعلـو وجهـه: منذ متـى وخليل يخلف وعـده؟! ومـع ذلـك أنـا رهـن إشـارتكما وسـيعيننا اللـه عـلى كلام إخوانكم –وأشـار بيـده إلى أسـفل حيث منزل الأسـتاذ جمال منصـور– فقد أزعجهم عـدم التنسـيق في العمليـة الأولى. فاسـتغرب الاثنان لكن الشـيخ اسـتدرك: ليـس التنسـيق بحرفيتـه فهذا أمر خطير جـداً ولا يجوز حدوثـه للضرورات الأمنيـة لكـن بعـض إخوانكـم في الـذراع السـياسي داخـل الضفـة والذيـن يؤيـدون عملكـم بقـوة يبحثـون عـن آليـة مـا يسـتطيعون مـن خلالهـا التوجيـه الفعّـال للعمـل كأن تصعـدّوا في أحيـان وتهدئـوا في أحيـان أخرى.

– فقـال خليـل: أنـا أحـترم هـذا المنطق، لذلك نعطي اشـارة عامـة لقيادتنا خارج فلسـطين وبدورهـم يتصرفون ويكفينا وجودكـم إلى جانبنا، واحتضن الشـيخ بكلتا ذراعيه.

فسـأل محمـود وهـو يعلـم بـأن الشـيخ يوسـف يقـف عـلى رأس التنظيـم في المدينـة: لم تقـل لنـا رأيـك في الأمـر؟! فابتسـم الشـيخ وهـو يتجـه نحـو البـاب ثـم التفـت إليهـما: أنتـم قـادة الحركـة ومقاومتكم هي التـي تصنع السياسـة وليـس العكس.

– فهمـس خليـل منادياً عـلى الشـيخ: يـا أبـا طـارق؟! ادعُ لنـا بالتوفيـق وصـلاح النيـة وأن يجمعنـا اللـه بـك في الفـردوس الأعـلى في الجنـة.

- غادر الشيخ المجاهد حابساً دمعة في عينيه لا يدري سبب ذلك!!

- دخل خليل ومحمود عند الاستشهاديين يوسف وبشار فوجداهما يتهامسان: أخطر أمر في عالمنا نحن الأحياء أن تُلقي القبض على سرٍ يتهامسه؟!

- قالها محمود مخاطباً خليل على مسمعهما فأكمل الأخير وهو يتصنع التفكير: استشهاديان.

- وسرعان ما جلس محمود بينهما: اعترفا الآن وفوراً.

- ثم وضع ساعديه على رقبتيهما وسحبهما نحو صدره: هل تخططان لأمر في الجنة؟!

- فأجابه بشار: طاهر جرارعة!!

- فأبعدهما قليلاً: ماذا جرى له، هل أصابه مكروه؟!

- فضحك يوسف: على هونك يا أبا عبادة وكيف لنا أن نعرف ذلك ونحن عندك؟! إنما فكرنا بأمر، لماذا لا يكون ثالثنا؟!

- فضرب خليل بكلتا يديه على رأسه: يا جماعة، يا عالم، يا ناس، أقسم إن هناك مجاهداً ثالثاً سيشترك بالعملية.

- فقال بشار الذي اعتاد على خليل في الأيام التي مضت: مجرد اقتراح لا غير، نوفّر هذا المجاهد للعمليات القادمة ويشاركنا ابن مجموعتنا الخامس..

- فتدخل محمود: دعونا نترك طاهر جانباً فلديه ظروفه الخاصة وأنا على تواصل دائم معه.

- ثـم عـاد خليـل للإمسـاك بالحديـث: أتعلمـون كـم مجاهـداً تطـوع لمشـاركتكما العمليـة؟! لـن تصدقـا ومـع ذلـك، أنـا سـعيد جـداً للفدائيـة الرائعـة التـي يبديهـا رجـال القسـام.

- فرفـع محمـود إصبعـه طالبـاً من خليل السـماح له بالحديـث: لقد طلب الجميـع وبقيـت أنا، فهل تـأذن لي بأن أكـون الثالث؟!

- ففاجـأه خليـل رغـم نوبـة الضحـك التـي امتـلأت بـه الغرفـة المحكمـة الإغـلاق: بـكل تأكيـد.

- فانصـدم الثلاثـة: أصحيـحٌ مـا تقـول؟! - سـأله محمـود الـذي بـدأ يقتنـع بجديـة خليـل فأجابـه: نعـم نعـم، سـتكون الثالـث في مناوبـة الحراسـة الليليـة!

- لحظتهـا كنـت أعطـي إشـارة الدخول للشـقة فاسـتقبلني الاثنـان: مرحباً بالحامـل والمحمول.

- فقلـت وأنـا أضـع الأكيـاس مـن يـدي: أمـا الحامـل فقـد أعيتـه أصعـب المهـمات، لكـن المحمـول في الداخـل، وقـد أشرت بعينـي إلى الأكيـاس – فخـذاه وتفقـداه بنفسـيكما. ودفعـتُ بالكيـس الخـاص إلى خليـل الـذي فتحـه وسرعـان مـا أغلقـه بسرعـة وهو يبتسـم ملقيـاً بـه بين يـدي محمود الـذي بـاشر بفتـح الكيـس على طريقـة مقاطع التصويـر البطيئة ثـم أغلقه مـع إغماض عينيـه بسرعـة: إلى الداخل.

- فلحـق بـه خليـل إلى حيـث بشـار ويوسـف وهنـاك كانـت تتجـلى روائع الحيـاء والأخـلاق والأدب وأربعتهـم يرفضـون إخراج الملابـس الداخلية من الكيـس: هـذه ملابسـك أيتهـا الجميلة، لمـاذا تخجلين؟!

- قـال محمـود ودمـع الضحـك ينفر من عينيه فلم يقوَ بشـار على الحديث فتدخـل خليـل الـذي لم يكـن أقـل بـكاءً منهـم: دعك منه يـا أبا عبـادة لن يخـرج ما بالكيس غـيرك فأنت أخونـا الكبير.

فأشـاح محمـود بوجهـه جانبـاً وهـو يُدخـل يـده ويخـرج بإصبعيـه حمّالة الصدر فيهرب يوسـف وبشـار من أمامـه: مجاهدون أرعبـوا دولة الاحتلال ويخجلـون من قطعـة قماش؟!

– وسرعـان مـا خـرج إليّ في الصالـون وهـو يحملهـا بـذات الطريقـة ويلوّح بهـا ومـا زال الضحـك دائـراً يملأ الشـقة.



"معشوقة المظلومين..
شارع الحسبة والعربة المفخخة"

قبل ستين ساعة

كنـت أرى مـا نفعلـه بالحجر والمقـلاع والصدر العـاري في مواجهة الرصاص زمـن انتفاضـة الحجـارة أواخـر الثمانينـات مـن القـرن العشريـن، صناعـةً للتاريـخ وكتابـة للمجد في صفحـات لا يهتدي إليها غيرُ دمنـا ولحمنا ولعلي كنـت محقـاً وقتهـا، ولمـا عملـت وخدمـت ولمسـت وخاطبـت وودعـت هـؤلاء الرجـال! الذيـن يعيدون تعريـف التضحيـة والفدائية والبسـالة من جديـد، أيقنـت المعنـى الحقيقـي لتلـك الصناعة.

- هـي المـرة الأولى التـي أرى فيهـا بشـار والـذي صافحنـي بحـرارة وهـو يجلـس إلى جانـب محمـود ويوسـف في الكـرسي الخلفـي، لم أتمالـك نفـسي فابتسـمت عـلى ابتسـامته العريضـة وكأنـه يقـول لي: نعـم أنـا هـي، أقصد أنـا الـذي سـيكون هي!

- اقترحـت عـلى خليـل أن أنقـل المجموعـة عـلى دفعتـين فأجـاب: نذهـب خمسـتنا معاً.

- لم تكـن المسـافة طويلـة مـا بـين حـي رفيديـا والمخفيـة، لذلـك سرنـا في الشـارع الرئيـس ليـلاً والـذي يمتلـئ بالناس في مثل هـذا الوقت مـن العام، الأمـر الـذي انعكـس على وجـوه الأربعة المبتسـمة والفرحة رغـم محاولتها

التخفـي عـبر ارتـداء النظـارات وعدم التحديـق بأحد، وعندمـا صعدت من شـارع عبـد الرحيـم محمود المؤدي إلى الشـقة أعلى الجبـل فاجأنا محمود: هنـا عـلى يمينـي منزل شـقيقتي مـا رأيكم بـشرب القهـوة عندها؟!

فنظرنـا أربعتنـا نحـو المنـزل وكأننـا نكتشـف لأول مـرة بـأن أحـد أبطالنـا يتمتـع بمـا يحظـى به بقيـة الناس، أخـتٌ يزورهـا!! فضحكنـا وكان الضحك خـير وصفـةٍ للهـروب مـن الأسـئلة الإنسـانية والتـي أجـاب عليهـا محمـود وخليـل وصحبهـما منـذ أن أصبحـت فلسـطين، الأم والأخـت والبنـت والزوجـة.

- كانـت الشـقة هذه المـرة في الطابق الأرضي، مريحة جداً ومغرية للسـكن الدائـم. مـما دفـع الأربعـة إلى الاحتفـال وهـم يتفقـدون الغـرف، ينـادي خليـل عـلى محمـود: هـذا الاخـتراع يسـموّنه «السـتلايت» يضـع تحـت إمرتـك مئـات المحطـات الفضائيـة.

- فنظـر محمـود إلى وجهـه ويوسـف وبشـار يحدقـان في الشاشـة: صحيـحٌ أني فـلاح أيهـا المـدني –قالهـا مبتسـماً– لكننـي شـاهدت الصحـن اللاقط في أحـد المنـازل التـي زرتها.

- فرد خليل: إذن، سنعرف هذا المنزل إذا قمنا بجهد بسيط.

فأغلب الناس لا يملكونه لغلاء ثمنه وسمعته السيئة؟

- فتدخل يوسف بالقول: وهل هناك فضائيات تمثل المقاومة؟

- فأجـاب محمـود: لا أظـن ذلـك فالأمـر مـا زال جديـداً غـير أن مضيفـي، حفظـه اللـه- وكان يتعمـد رفـع صوتـه والنظـر إلى خليـل – أراني فضائيـة باسـم الجزيـرة..!

- قاطعه خليل الذي كان يبحث في المحرك عن المحطات: هذه هي الجزيرة وهذا الشيخ العلامة يوسف القرضاوي في برنامج الشريعة والحياة، ويا شيخ محمود. «لقد سبقك بها عكاشة» رأيت هذه الفضائية عند صاحبنا المشترك! – إذن -قال يوسف- أنا سميٌّ هذا العالم الذي دافع عن عملياتنا الاستشهادية وأفتى بجوازها.

- تركت هذا النوع الفريد من البشر يقرأ كل شيء بصورة مختلفة فيصدمك، يصعقك، يجعلك قزماً أمام فهمه وسأظل كذلك ما حييت، فمن يستطيع أن يمسك بعقل راحل يرى الوطن على باب الجنة؟. آه الجنة، معشوقة المظلومين، قرأت ذات مرة أن الزعيم الصيني «ماوتسي تونغ» سأل بعض الزعماء العرب الذين التقاهم عن أبرز شيء يحفزون به جنودهم في معركتهم لاستعادة الأراضي المحتلة من أيدي العدو الصهيون

فأجابوا: الحقوق التاريخية، القومية العربية.. الخ، فقال: لقد قرأت في تاريخكم أن جنودكم انتصروا بمحفز واحد لم تذكروه؟!!! فاستغربوا: من الجميل أن نسمعه من حضرتكم. فقال: الجنة.

- ذهبت للقاء مهند بعد اتفاقي مع خليل على تركهم لأربعة وعشرين ساعة حتى لا نثير الشكوك: ألم نتفق على عدم اللقاء في هذا الظرف الحساس؟!. قلت لمهند الذي كان ينتظرني في شارع الملك فيصل، فأجاب بثقة: أعلم ذلك لكنني أحببت أن توصل لخليل استعدادي الكامل لأن أكون في العملية التي ستنفذ. – فنظرت إليه مطولاً ثم إلى البناية التي تتوسط الشارع أمام مدرسة شريف صبوح الإعدادية وكنا لحظتها داخل موقف السيارات الخاص بالقرى الشرقية للمدينة والمكان خالٍ بفعل

الليـل، ولم أتكلـم فقـال بعـد أن وقف أمامـي: أعرف أنك لم تنـس أبداً ذلك الـرأي الـذي اتهمتنـي بـه ولكـن! بالله عليـك ألا تردها لي.

– فقلـت: كان يكفيـك حينهـا ألا تعـترض أمـام المهنـدس وتكشـف عـن شـقيقي الشـهيد!. فضحـك مهنـد مغتاظـاً: لسـت أنـا، كم مرة سأقسـم لك إنـه الشـهيد بشـار العامـودي الـذي يعرفـك جيـداً أو تربطه علاقـة بأخيك الشـهيد، ثـم باللـه عليـك، هـل تظـن بـأن يحيـى عيـاش أو أي قائـد كان سيسـمح لـك بتنفيـذ عملية استشـهادية وشـقيقك لم يمض على استشـهاده شهران؟!

- أنـت بحاجـة إلى تنشـيط الذاكـرة، فالشـهيد «صالـح نـزال» بطـل عملية الدزنكـوف بتـل أبيب كان شـقيقاً لشـهيد!! فـرد عليّ بـذات الحرقة: رحمه اللـه ورحـم أخـاه وأخـاك فمتـى سـترحمني وتـوصي خليـل بـأن يسـمح لي بتنفيـذ عملية استشـهادية؟!

- فضحكـت عـلى توتـره ثـم قلـت: ألم يحن الوقـت لتعلم كيـف يفكر هذا الرجـل؟! هـذا رجـل دولـة، ألا يسـمونه في الـدول المحترمـة كذلـك؟! فـلا تتعـب نفسـك لأنه لـن يوافق بعـد أن علـم بأهميتك لإنجـاح العمل ثم..!

- توقفـت عن الاسـتطراد فسـأل: ثم مـاذا، أرجعت إلى عام أربعة وتسـعين مرة أخرى؟!

- فأجبتـه: لا لا، سـأقولها وأجـري عـلى اللـه، لقـد اكتمل العدد ولا تسـألني أكـثر مـن ذلـك فبعـد يومـين عندما يحـين الموعد سـترى بعينيك.

لم يكـن أحـدٌ حينها، أواسـط عـام 1994، ليصدق أن أخطـر مطلوب لقوات الاحتلال على صلةٍ بشـاب لم يبلغ التاسـعة عشر من العمر، لكنني صدقت

ذلك عندما رأيته صدفة في منزل مهند لأكتشف بعد فترة أنه المهندس يحيى عياش، حيث عملت ومهند على عدة مهام أولها مراقبة حافلة للمستوطنين التي تعبر وسط المدينة وتغادرها من الشرق وكنا نسميها حافلة الساعة الواحدة ظهراً وقد وقع عليها الخيار لتنفيذ عملية استشهادية بسيارة مفخخة قرب «حسبة المدينة» الخالية من السكان، وعلى ضوء ذلك قمنا باستئجار مخزن في حيّنا وتجهيزه بالكهرباء لتفخيخ السيارة فيه ولم ندر في حينها سبب إلغاء الهجوم والذي استبدل بعملية أخرى حدثني عنها مهند بعد تحرري من الاعتقال الإداري حيث كنت قد اعتقلت قبل الشروع في تنفيذها.

يقول مهند: راقبنا الشاحنة العسكرية التي توزع الجنود صباحاً على نقاط المراقبة التي تعتلي العمارات فاخترنا نقطة مهمة بعيدة نسبياً عن بيوت المواطنين قبالة مدرسة شريف صبوح لضربها أثناء انعطافها «عكس السير» قادمة من مركز الشرطة مستخدمين عربة للخضار مليئة بالمتفجرات التي صنعها المهندس موصولة بجهاز التحكم عن بعد، حيث جلست مع مجاهد آخر داخل البناية التجارية الخالية من الناس والتجار بفعل الوقت الباكر، ولما حضرت الشاحنة المليئة بالجنود! أعطينا الإشارة الكهربائية للعبوة الضخمة فلم تستجب لنا وفشلت العملية ولكن! -يقول مهند- ما أعلمه بأن تلك المادة أو بعضها تم استخدامها في عملية الدزنكوف التي قتلت ثلاثة وعشرين صهيونياً غاصباً لأرضنا وأصابت العشرات.



"الاستنفار الروحي..
الشاب الأزعر ومعجون الحلاقة"

قبل ستة عشر ساعة

- عـدت مـرة أخـرى إلى شـارع يافـا قبـل الانطـلاق بيومـين حتـى أقـوم بالاسـتطلاع النهـائي خشـية حـدوث تطـورات في سـاحة التنفيـذ فتعيـق العمليـة أو تفشـلها، فـكان الوضـع كـما نريـد وزيـادة حيـث بـدأ الارتخاء الأمنـي ظاهـراً مـن جانـب قـوات «حـرس الحـدود» المنتشرة عـلى مداخل الأسـواق والطرقات والمفترقات، فوضعت خليل في صورة الاسـتطلاع فأعطى الإشـارة النهائيـة لمعـاذ وخلية الهندسـة لإنجـاز الحقائـب والبيـان ورجعت بـدوري إلى حـذاء الفتـاة: ألا تضعون في حسـبانكم أحذية لسـيداتٍ أحجام أقدامهـن كبـيرة؟! أخاطـب بائـع الأحذيـة النسـائية الـذي يخجـل مواسـياً: نأسـف أنـك لم تجـد حاجتـك عندنا فإن تفضلـت بالعودة بعد خمسـة أيام ربمـا تسـتطيع تفصيـل حـذاء وفـق طلبك.

- فأنتقـل مـن معـرض لآخـر حتـى عـثرت على حـذاء «نمـرة أربعـين «لكنه يمتـاز بإمكانيـة توسـعه لأنـه مصنـوع مـن الخيـوط وليـس الجلـد وانتهت بذلـك المشـكلة التي أشـغلتني يومين، أمـا ملابس صديقي يوسـف، فكانت سـهلة جـداً، بنطـال مـن القـماش على قميـص رسـمي وربطة عنـق وحذاء يليـق بالألـوان ثـم نظـارة بصريـة، أمـا الاستشـهادي الثالـث: سـتضطر إلى

ابتياع ملابسه بنفسك – خاطبني خليل وأنا أرتاح في الشقة ومحمود يمارس إحدى هواياته بالطبخ وكان مهند قد اشترى لوازم الطعام مسبقاً: صاحبك يوسف يصر أن تشاركنا الطعام.

- فاحتج بشار الذي خرج من الغرفة لدى سماع محمود: وأنا أيضاً، ألم أصبح صديقتك، أقصد صديقك؟!

فضحكنا جميعاً: هل تعرف قياساته؟!. – سألت خليل الذي أخذني جانباً حتى لا يسمع بشار: القياسات مكتوبة في الورقة ولكن! يا أخي، ألم تجد معجوناً للحلاقة أفضل من الذي أتيتنا به؟!

- فاستغربت: لماذا، ألم يعطِ مفعوله؟. فقال: رائحته كريهة جداً ولا نريد أن نثقل على أخينا بشار الذي تضايق من الرائحة وهو يحلق رجليه ويديه ووجهه.

- فضحكت رغماً عني، فاحتج خليل مبتسماً: ماذا جرى لك؟!

- هذا المعجون ليس للحلاقة التقليدية لأنه بذاته مزيل للشعر ما دون الوجه.

- فتحوّل الهمس والحرج إلى ضحك ثم جرّني بيده لإخبار الشباب.

- ستأكل سلطة قروية لم تلتق بها لدى سيدات المدينة. قال يوسف الذي كان يفرم البندورة والخيار والبقدونس والليمون.

- فأجبته صادقاً: لا شك لدي في ذلك. ثم نظرت إلى وجه خليل الذي يعرف أن زوجتي ريفية فابتسم ولكن!! من هي التي تستطيع على طعام يصنعه الشهيد؟! لم تخلق بعد.

- بعد مغادرتي، قام يوسف وبشار بكتابة رسائل للأهل موقعة بتواريخ مستقبلية حتى يكتمل التمويه فالأهل في عرف المقاومة أول الدوائر المستهدفة بالمراقبة من جانب مخابرات العدو.

- شاب أزعر يرتاد الجامعة!! تجولت ببصري في الشوارع المكتظة بالناس، أشكال وألوان من الشريحة المطلوبة وعليّ أن أختار واحداً من هؤلاء المجانين الذين يقلدون القط إذا غير تسريحة شعره، كنت سأصمت لو كان القط عربياً لكنه فأر أمريكي، ابتعت بنطال جينز ثم بحثت عن شيء مميز يليق عليه فتذكرت أحد المحال الذي يطبع صوراً على الأقمشة، علّني أستطيع تقليد ملابس أحد الزعران الذين يظنون بأنهم يسلبون عيون الفتيات بملابسهم: كيف أخدمك؟!. – سألني البائع، أجبته وأنا أجول بعيني على الصور المعروضة: أريد صورة مميزة أطبعها على «تيشرت» أبيض، ها، هذه!

– فسألني مستغرباً: أنت متأكد من ذلك؟!

– فرددت باستغراب أكبر: أليست معروضة للبيع، فلماذا الاستغراب؟!

- فأجاب: هذه الصورة غير مناسبة لمجتمعنا.

- فابتسمت: لا تقلق هي لأخي الذي يعمل داخل الخط الأخضر حتى لا يعلموا بأنه عربي لأنه لا يملك تصريح الدخول إلى هناك.

- فبدأ صاحب المحل الغريب بالطباعة وقد لخّص حقيقة أغلب الناس، امتلاك الفكرة الإيجابية وعدم القدرة على امتلاك الإرادة لتنفيذها، يعيب عليّ ارتداء الصورة ويقبل على نفسه عيب ترويجها، زادتني هذه الحادثة قناعة بصوابية ما نقوم به.

- ابتـاع مهنـد بعـض اللوازم الضرورية التي تناسـب طلبـة الجامعات وبهذا أغلقنـا هـذه الدائـرة جيـداً وذهبـت إلى الشـقة ليـلاً حتـى أتأكـد من عدم نسـيان أي شيء، أركنـت السـيارة بعيـداً عـن العـمارة زيـادة في الإجـراءات الأمنيـة كـما اعتـدت في المـرات السـابقة، اسـتقبلني محمـود بابتسـامته المعتـادة ولم ألحـظ حركـة في البيـت والـذي يفـترض أن يكـون طبيعيـاً، فسـكانه موظفـون في إحـدى الشركات ولا يشـترط أن يعـمّ الصمت فهمس محمـود: اسـتنفار روحـاني والرقابـة عـليّ تطوّعاً.

- فتقدمـت صـوب الغرفـة التـي تشـهد حكايـة أروع العُبّـاد عـلى وجـه الأرض، يوسـف يتقدمهـم بالإمامـة، فأسـمع صوتـاً يرتـل القـرآن سـيصبح أنـدى وأعـذب مـا أُلقي على سـمعي وأنا حـيّ، فهل كانت أوتـاره الصوتية، شـجية تنـدرُ في عـالم الأصوات؟! لا، لكنك سـتبكي ولا تملك غـير البكاء وأنت تتلقـى القـرآن مـن صدر خـلا مـن الدنيـا فأصبـح عامـراً بالجهـاد والثـورة والجنة.



"الرشاشات على النوافذ وبيان الشيخ"

- هـي المـرة العـاشرة التـي يخـرج فيهـا معـاذ مـن البيـت ثـم مـا يلبث أن يعـود والتوتـر بـادٍ عـلى تصرفاتـه: اهدأ

- تخاطبـه أمـه وهـي تُعـد وجبـة العشـاء – سـيصل بعـد نصف سـاعة إذا لم يعتقلـه الاحتلال؟

- فتفاجأ من كلامها: ماذا تقولين يا أمي، هل هذا وقت المزاح؟!

- فـردت عليـه وهـي تضـع الصحـون عـلى الطاولـة مخفيـة ابتسـامتها من وراء الحديـث: وهـل تظـن بـأن من عاشـت هـذا العمر مع أبيك سـيخفى عليهـا مـا تقومـان به؟!

- فحك معاذ رأسه: لكنّه تأخر كثيراً وأنا قلق عليه.

- فقالـت وهـي تهـز رأسـها: بضـع سـاعات مـن التأخـير فعلـت بـك ذلـك، فـماذا تقـول بالتـي كانـت تنتظـر أيامـاً وأكـثر؟!

- فجلـس إلى جانبهـا متـودداً: هـذه المـرة الأولى التي أسـمعك تتحدثين بها عن غيـاب أبي؟!.

- لم تجبـه الوالـدة، بل بـدأت بالحديث كنهر كانت تعيـق تدفقه الحواجز: لم تكـن المشـكلة بالغيـاب الطويـل فأنـا زوجـة قائـدٍ ومؤسـس بجماعـة عظيمـة تسـعى إلى رضى اللـه -عـز وجـل- وتحريـر الوطـن، عرفـت ذلـك

منـذ البدايـة وأرحـت عقلي وضميري، لكـن الخوف والرعـب لم يكن هنا!!.

– وتوقفـت عـن الحديـث وهـي تطعمـه بيدهـا فحثهـا عـلى الاسترسـال: وأيـن كان يـا أمـي؟!

– فقالـت تلزمنـي أيـام للحديـث عـن... وكانـت تسـتفزه مداعبـة: حادثـة واحـدة أو اثنتـين.

- فوافقـت: كنـا نسـكن البلـدة القديمة عندمـا هرعت إلى بيتنـا امرأة طيبة مـن الجـيران وهـي تصرخ: المدينة هجمت على الشـيخ سـعيد!

– فصرخت في وجهها: ماذا تقولين يا امرأة؟!.

– فـأصرت عـلى قولهـا: واللـه العظيم آلاف الناس يحاصرون الشـيخ سـعيد في الـدار!. فسـأل معـاذ: أيّ دار وأيّ ناس؟!

- كان زوج المـرأة مـن أصدقـاء والـدك، وعندمـا كانـت تسـأله: أيـن كنـت وأين سـتذهب؟! فيجيب: عند الشـيخ سـعيد بلال في الدار، ولم تكن تعلم بأنهـا دار الإخوان المسـلمين.

- فضرب معاذ بكفه على جبينه: لقد فاتتني.

- ثـم واصلـت الحديـث: كانـت مسـيرة ضخمـة مؤيـدة للرئيـس المـصري جـمال عبـد الناصر والذي كان حليفاً للإخوان المسـلمين في مصر، ثم انقلب عليهـم بعد اسـتلامه الحكم واسـتمر التوتر والاعتقـالات والإعدامات طوال فـترة حكمـه حتـى جـاءت حادثـة الـدار في نابلـس عندمـا خرجت مسـيرة ضخمـة مؤيـدة لـه وللتعبـير الصـادق عـن هـذا التأييـد الجـارف توجهـت المسـيرة نحـو الدار قـرب البنـك العثماني.

- فاستعجل معاذ بالسؤال: وماذا حدث لأبي؟!. - فضحكت الأم: أخذ المحاصرون للدار بالهرب وهم يصرخون «الإخونجية» نصبوا الرشاشات على النوافذ.

- فقال معاذ: وهل فعلوا ذلك حقيقة؟!

- فأجابت: كانت عصا «قشاطة الماء» التي لوح بها أبوك من وراء الستارة كفيلة بهروبهم وحماية الدار.

- فانقلب معاذ على ظهره من الضحك.

- فاستأنفت الوالدة الحديث: خوفي ورعبي لم يكن من الاحتلال والجهلة ولكن أن أفقد هذا الرجل العظيم.

- لم تكد تنهي عبارتها حتى دخل الشيخ عليهما دون أن يلحظا قدومه: السلام عليكم وقبل أن تتكلما، عثمان بخير وصحة جيدة ويهديكما السلام. - فقالت أم بكر: حسناً سأدعكما لوحدكما.

- فأوقفها الشيخ: إلى أين تذهبين؟!

- فأجابت وهي تشير إلى معاذ: لقد أزعجني بانتظاره لك حتى اضطررت لإخراج حكاية من الزمن الجميل لأجعله يهدأ ولا أظنّه سيكون سعيداً بوجودي، لذلك سأختصر وأخرج.

- فسارع معاذ إلى أبيه: لقد تلفت أعصابي وأنا أنتظر، فالليل يوشك أن ينتصف ولم ننجز شيئاً!

- فابتسم الشيخ الذي خرج لزيارة ولده عثمان في السادسة صباحاً إلى عسقلان.

- إذن! أنت لا تنتظر رسائلك المعتادة؟!

- يا أبي، أعرف ما سيقوله عبد الناصر عيسى وهذا يؤلمنا أننا لم نستطيع تنفيذ عملية أسر لجندي صهيوني، لكنني الآن بحاجة ماسة إليك.

- ألا تنتظر حتى يرتاح جسدي الهرم؟!

- فاقترب معاذ إليه أكثر: غداً عمليتنا الأشد والأقسى ويجب أن ننجز البيان بسرعة.

- فدب النشاط في وجه الشيخ سعيد: الله أكبر، وهل أنتم مستعدون جيداً؟!

- يا أبي نحن تلامذتك فلا تقلق، الأهم أن تضع خبرتك في البيان حتى لا يهبط أداؤنا الإعلامي عن بيان محنى يهودا.

- وبعد أقل من نصف ساعة كان معاذ يغادر الغرفة متجهاً نحو الباب فسمع صوتاً يأتيه من ناحية مدخل الباب: كلما غادرني أبوك في سنّي عمله وجهاده ذهبت روحي معه فلما كبرتم وحملتم الراية عنه أصبح الحِملُ أثقل على تلك الروح، ومثلما استودعته الله استودعتك، إذهب «إنّ الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد».



"صباح العملية"

الرابع من أيلول 1997

- لـن أعتمـد هـذه المـرة على الاحتـمالات كالمهمات السـابقة التـي نجحت فيهـا بالتحايـل ومغـادرة الوظيفـة باكـراً، لـذا ألقيـت عـلى مهنـد مهمـة اسـتلام الحقائـب وإرسـالها إلى المجاهديـن، لم يقلقنـي إنجـاز هـذه المهمة الخطـرة فمهنـد رجلهـا الأنسـب، ولكـن! مـا يزعجنـي منـذ ليلـة أمس بعد مغـادرتي الشـقة وحديثـي مـع محمـود، أن يطلـب خليـل كعادتـه بدوافع الاحتياطـات الأمنيـة مهمـة اللحظـة الأخـيرة مثلـما أجابنـي محمـود وأنـا أسـأله: هـل أخـبرك خليـل شـيئاً عـن الاستشـهادي الثالث؟!

- فـرد وهـو يضـع يـده عـلى كتفـي ونحن ذاهبـان باتجـاه البـاب: لقد بتّ تعرفـه أكـثر مني، لا يكشـف جميـع الأوراق لأحد.

- فقلـت وأنـا في قمـة الإرهـاق العصبـي: يجـب أن أصفّي ذهنـي ليوم غد وهـذا الموضـوع يقلقني ويسـتنزف جـزءاً مهماً مـن تفكيري.

- فحاول أن يطمئنني: ورغم ذلك فأنا وأنت نثق بذكائه وقيادته.

- لكننـي والسـاعة تقـترب عـلى التاسـعة صباحاً، غـير مرتاح: هل اسـتلمت الحقائب؟!

– سـألت مهنـد الـذي كان ينتظـرني خلـف منزلـه: وأصبحت عنـد المقاتلين وخليـل ينتظـرك. – فانطلقـت بسرعـة إليه

- سـهر معاذ والمهندسـان نسـيم وجاسر حتى الفجر وهم يعدون الحقائب وقـد تكفّل نسـيم بإحضارها صباحاً إلى السـيارة في الوقـت المحدد ثم غادر إلى عملـه كالمعتـاد. أمـا جاسر فقد سـمع محـاضرة عصماء مـن معاذ: هذه المـرّة سـتقرأ نعينا في الجرائد ونحن أحيـاء لأن خليل..!

- يـا أخـي كانـت غفوة قسريـة «وليس عـلى النائم حـرج». – فضرب معاذ على رأسـه: إياك أن تدخل المسـاجد!.

- فضحـك جـاسر: أنـت مـن يقـول ذلـك؟! الشـيخ معـاذ بن الشـيخ سـعيد بـلال ينهـاني عـن دخـول بيت اللـه؟!- فهزّ معاذ رأسـه من أعلى إلى أسـفل: نعـم، وأصرُّ عـلى ذلـك، امـشِ في الشـوارع وصـلِّ الظهر ماشـياً فالمسـلمون الأوائـل يصلـون عـلى ظهـور خيولهـم، الأهـم أن يـذاع البيـان في الوقـت المناسب.

- كانـت المجموعـات الثـلاث تعمل كخلية نحل يحركهـا دافع مركزي واحد، إنجـاح العمـل، لكـن حـدّة التوتـر التي صاحبـت التحـرك في العملية الأولى خفّـت أثنـاء التجهيـز للثـلاثي ربمـا أنسـحب الأمـر عـلى الجميـع باسـتثناء خليـل الـذي ظـلّ ليلتـه قائمـاً عابـداً يشـغله طلـب التوفيق مـن الله حتى أن يوسـف وبشـار أشـفقا عـلى حالـه: هـوّن عليك فـإن الله لـن يخذلنا.

- فـردّ بهـذه العبـارة: أخطـر أمـر يمكـن أن يقـع فيـه المجاهـد، الركـون إلى أسـباب الدنيـا والغفلـة عن خالق الأسـباب، ولا أحسـب أنكـما تغفلان عن ذلـك. - فقـال بشـار: لقـد انتهينا من هـذا منذ زمن بعيـد، لكنك على هذه الحـال منـذ عرفناك في جبـال قريتنا.

- فأكمل يوسف: وهذه المرة...

- فقاطعه خليل: أصعب أمرٍ في الوجود أن تقرر مصير انسان بيدك، هذه الفكرة تجعلني.. ثم توقف عن الحديث، فقال بشار وهو يضع كفّه على يد خليل: لا تتعب نفسك لو لم تكن السبب الذي رزقنا الله إياه لكان غيرك وهذا لا يغيّر من الحقيقة شيئاً أننا نطلب هذه الشهادة قبل أن نتعرف عليك – فابتسم خليل بعد أن انضم إليهم محمود: شيخنا محمود يعلم جيداً الفرق بين الفرد الذي يتحمل مسؤولية نفسه وما بين المسؤول الذي يضع الأفراد في رقبته، فوالله أنني أفضّل لو بقيت فرداً.. فقاطعه محمود: حينها لم نكن لنحظى شرف التعرف عليك..

- لم تكن ليلة الرجال الأربعة صعبة فقد أخذوا وقتهم الطبيعي بالنوم وفي ذات الوقت لم تكن طبيعية بالمفهوم الاعتيادي محمود يفكر بالحياة التي لن يسمع فيها صوت يوسف وبشار بعد غياب معاوية وتوفيق وماذا سيقول لأهلهم؟! وخليل يغوص في أسئلة ترهق أعصابه التي سرعان ما تهدأ في محراب الصلاة أما الاستشهاديان فلا هذا ولا ذاك، فقد غرقا بالنوم حتى يستعجلا بزوغ الفجر والصباح الذي سيطوي صفحة الدنيا القصيرة ويفتح كتاب الحياة الأزلية في الجنة.

- لم أكن أقلّ توتراً من خليل ولعلّي أسبقه في ذلك فستنتقل المسؤولية إلى عنقي بعد قليل: السلام عليكم – سترتجف كل كلمة في فمي – بعد الآن – عندما أخاطب بها الرجال، فرد عليّ أربعتهم: وعليكم السلام، أين أنت يا رجل لقد اشتقنا لك؟! – لم يتغيّر عليهم شيء، الحماسة ذاتها، العزيمة الوقادة التي كلما رأيتها على وجوههم وتصرفاتهم شحنتني بهمة ألف رجل.

نظر إليّ خليل بتلك النظرة التي بتّ أعرفها فسبقته بالحديث: أعرف

مـاذا سـتطلب، مـن أيـن سـأحضره؟! أعطني العنـوان وسـيكون عندك بعد قليـل، لكـنّ الأهـم – سـكتُّ لوجـود الاستشـهاديين حولنـا ثـم اسـتأنفت الحديـث – الـذي تعرفـه!

ففاجـأني وهـو يضحـك: تقصـد أن يتراجـع الاستشـهادي ولا يـأتي معـك؟! – فأحرجنـي بكلامـه الـذي تجنبـت البـوح به ولم أجبـه فقـال: لا تقلق، هذه المـرة سـيأتي لوحده فقـد زودتـه بالعنوان.

- مـاذا؟! – قلتهـا أنـا ومحمـود، فهـذه الهفـوة لا يفعلهـا خليـل إلا إذا كان الاستشـهادي الشـيخ يوسـف السركجـي بذاته.

اهـدءا، اهـدءا الأمـر مـدروس بشـكل جيـد، والآن –توجـه بالحديـث إلي– كيـف تريـد مـن الاستشـهادي أن يمـشي في رام اللـه وهـو يرتـدي هـذا «التيشـيرت»؟!.

– فابتسـمت ولم يخطـر عـلى بـالي هـذه النقطـة عـلى الرغم مـن أنّ بعض أشـكال الفسـاد الأخلاقـي الـذي جلبتـه اتفاقيـة «أوسـلو» إلى المجتمـع الفلسـطيني المحافـظ يتجـاوز ذلـك: اذهـب إلى السـوق الآن واشـتر سـترة مناسـبة لتغطيـة الرسـمة.

صحيـح أن خليـل لم يكلّفنـي بمهمـة احضـار الاستشـهادي لكـن مهمـة اللحظـة الأخـيرة كانت موجـودة فانطلقت وابتعت المطلـوب بسرعة البرق وعـدت إلى الشـقة.



"هكذا أخرستني رائعة الفرد"

قبل أربع ساعات من الملحمة

- لمحته وأنا أقترب أكثر في طريقي إلى الشقة، كان يقف على جانب الطريق ينظر إلى ساعته فعندما رآني تحرك باتجاه البناية: الاستشهاديون لا يخفون عليّ.

– قلت في نفسي بعد أن أراحتني رؤيته، يلبس هنداماً مرتباً لن ينفعه بعد قليل عندما يكتشف الشخصية التي سينتحلها، أدهشني من النظرة الأولى: هذه مدرسة معاوية وتوفيق، الهدوء الذي يظهر على الوجه والجسد فيعطي انطباع السلمية للناظر.

- ركنت السيارة في مكان مختلف عن المرة السابقة وحدثتني نفسي بمناداته: تمهل قليلاً أنا صاحبك، ستصبح في عنقي بعد قليل وسنمضي معاً حيث حكايتك التي ستكتبها مع أخويك بالدم – ألقيت عليه السلام فردّ بأدب واحترام، فاستغربت من أمره: لماذا لا يدخل العمارة، هل يجب أن أخبره بانتظارنا له في الداخل؟! لا لا، سيعتبر خليل ذلك خرقاً أمنياً، لكنه يقف قبالة العمارة وينظر في الساعة مجدداً.. وفجأة! قدمت سيارة حديثة تقودها امرأة ترتدي الحجاب ومعها طفلان فركنت على رصيف الاستشهادي حيث تصادف ذلك مع لحظة مروري إلى جانبه فسمعته يخاطب المرأة: لماذا تأخرتِ يا حبيبتي؟! – خاطبها وهو يركب

السيارة والطفلان فرحان لرؤيته: بابا، بابا. – فدخلت مسرعاً إلى الشقة وأنا أهزأ من نفسي: تقول إنك خبير بالاستشهاديين؟! يا لحماقتي وهل استوعبتُ حتى اللحظة ما يحدث وأنا آخر من يودعهم؟!.

– لا بأس –قلتُ وأنا أطرقُ الباب-

- حتماً سيكون أمامي في الشقة وسأنتهي من هذا القلق: السلام عليكم.

– ألقيتُها على وجهين يشعان نوراً، لا لا، بل النور يغار منهما: كلما غبت عنا ظننا بأننا لن نراك.

- فيوسف وبشار لا يعلمان حتى اللحظة أنني آخر من سيرونه فسألتهما: أين محمود وخليل؟!. – فضحكا بأعلى صوتهما قبل أن يقترب إليّ يوسف مجيباً: يجلسان مع الاستشهادي!. – ثم عاود الضحك فضحكت معهما مستغرباً ولكن سرعان ما أسكتُّ استغرابي: «في حضرة الشهادة كلّ شيء جائز».

– انتظرت دقيقتين حتى يخرج الثلاثة فلم أرد أن أقحم نفسي في أمر قد لا يريد خليل اطلاعي عليه، يا إلهي، صعقتني لحظتها، وأنا أسمع أصوات نقاشٍ غير مفهوم يأتي من الغرفة، فكرة تراجع الاستشهادي بعد أن انكشفت عليه الخطة والمجموعة والشقة ولكن!! لماذا يضحك يوسف وبشار؟!. وفي تلك اللحظة خرج محمود يحمل في وجهه الجديّة ولا أقول الغضب ولمّا التقت أعيننا رجوته: أستحلفك بالله ألا تقلها؟!

– فابتسم وهو يتنقل بنظراته ما بيني وبين المقاتلين الأسعد على وجه البسيطة: قائدك سيقولها لك بنفسه!. – ولم يكد ينهي حديثه حتى أطلّ خليل بوجهه الجميل من الغرفة، فتوزع انتباهي ما بينه وبين

باب الغرفة حتى لا يخرج الثالث فيكشفني فتقدّم بشار نحوي بعد أن شاهد غريزتي الأمنية: لا تقلق لن يخرج أحدٌ من الداخل!

- فأكمل محمود بطريقته الاستنكارية اللطيفة: لأنه لا يوجد أحد في الداخل!

- شعرت لحظتها وأنا أنظر في وجوههم، بدوامةٍ من الحيرة والاستغراب والتعجب ولم أنتبه إلى عينيّ يوسف وهما تطلبان مني النظر على يميني!. - فأدارني محمود بكلتا يديه: يعني أنظر إلى هذا الرجل.

- فنظرته وأنا مستغربٌ من تصرفاتهم، أرى وجوههم الضاحكة فأضحك كالأبله وفجأة!! توقف المشهد بالكامل، سكن النهار كالليل ولم أعد أسمع أحداً، تعطلت حواسي الأربع وبقيت عيناي تعملان باتجاهٍ واحد، لا تريان غير رسمةٍ وحيدة، كانت للراحل الذي لم يكن ولأخي الذي لم يعمل هناك ولصاحب المحل الذي عاب عليّ ارتداءها، ثم رفعت عينيّ إلى وجهه، نعم هو الذي يرتديها، أتراه يمزح؟! ولماذا يلبس البنطال أيضاً؟! ولكن! لماذا لا أقوى على الكلام، أهذا الذي يسمونه بالصدمة الحادة؟!

- فحولت نظري نحو محمود الذي كان يخاطبني دون أن أعي ما يقول ثم إلى يوسف وبشار اللذين يضحكان من أعماق صدريهما، ومرةً أخرى يفاجئني محمود بوكزه لي: ألا تقول شيئاً؟! فعادت حواسي دفعة واحدة وأنا أحدّق هذه المرة بعيني الاستشهادي القائد، الثائرتين، الواثقتين، والضاحكتين في آنٍ واحد فلم يدعني وحيداً في تلك اللحظة مشفقاً: نعم! أنا هو.

– أسعفَ ضعفي الذي عجز عن نطق الكلام، خليل الشريف، أرفع ضابط في كتائب القسام يتقدم للعمل الاستشهادي الذي يقوده، سأبقى صامتاً تُخرسني حكاية سأعيش كثيراً ولن أسمع مثيلها. – يثور محمود للمرة العاشرة منذ أن خرج عليهم خليل قبل ربع ساعة من قدومي يرتدي زي الاستشهادي «الأزعر»: لم نتفق على هذا، أنت بذلك تغدر بي. – فيبتسم خليل: لم أفعل ما تقول.

- فيشتد القهر لدى محمود: ألم نتبايع على الموت في سبيل الله؟!.

– فيرفع خليل كلتا يديه للأعلى: ها، أنت قلتها بلسانك، تبايعنا على الموت ولم نقل كيف؟!

– فعاود محمود حثي على التدخل في الوقت الذي كان فيه يوسف وبشار يستمتعان بإصرار خليل، فقلت همساً: ماذا أقول؟!. – كنت أعلم أن قوةً في الأرض لن تستطيع ثني هذا القائد العظيم عن رأيه، فردّ علي: لا تقل شيئاً يا رفيق الدرب، لأن كلامك وفعلك سيستمر مع الشيخ محمود وبقية المجاهدين فما زال المشروع في بدايته.

– فتدخل محمود: لهذا يجب أن توقف قرارك هذا في الوقت الراهن.

- كان يدرك محمود حجم الخسارة التي سيترتب عليها فقدان المقاومة قائداً بحجم خليل الشريف الذي ترك بصمةً فارقة في بناء الجهاز العسكري في منطقة نابلس والتي ستظهر آثارها العظيمة لاحقاً!!

– وحتى ينهي خليل النقاش واستماتة محمود التي تراخت حتى لا يؤثر على معنويات يوسف وبشار، قال: لقد اتخذت قراري منذ زمن بعيد وأنا أعلم أنك خير من يقود العمل.

- فحـاول محمـود الحديـث فأوقفـه بلطـف وابتسـامة: ولأني عـلى يقـين بفهمـك العميـق لمعنـى الطاعـة فأنـا آمـرك للمـرة الأولى والأخـيرة بحكـم موقعـي بتنفيـذ الأمـر وعـدم الاعـتراض، تماماً مثلما يفعـل أبو أيمـن الآن!. قالهـا مبتسـماً وهـو ينظـر إلى وجهـي وهـو يعلـم أننـي لم أعقـل بعـد مـا يحـدث، فاستسـلم محمـود بعـد أن قـال: أتـدري مـاذا سـيحدث لنـا بعـد قـرارك هذا؟

- فـرد خليـل وهـو يطلـب مـن الجميـع توديعـي: قـولا لهـم إننـي اخـترت الرحيـل مـع أعظـم فارسـين وأني لـن أسـمح أن تعلـو البسـمة عـلى وجـه عـدوي بقتـلي قتلـة عاديـة أو أسري، فشـهادتي عـلى هذا النحو قـد تأخرت عامـين رغـم أني سـعدت بصحبة خير الرجـال الذين شـاركتهم شرف الجهاد في سـبيل اللـه مـن أجـل تحريـر الوطن.

- عانقنـي خليـل بحـرارةٍ أشـعلت صـدري، جعلتنـي أحـار في وصـف ذلك، أهـو أعظـمُ عنـاقٍ في حيـاتي أم الأسـوأ لفقـدان خـير وأعظم الرجـال الذين التقيت؟!

- ثـم عانقنـي محمـود الـذي تأثـر مـن حديـث خليـل الـذي شـعر بذلـك فسـارعه بالقـول: أمـا أنـت يا سـيد الجبـال فـما زال في جعبتـك الكثير قبل أن تلحـق بنـا ولا أظنـك راحـلًا قبـل أن تـزرع المـوت للمحتلـين في كل شـبر من فلسـطين.

- ولما جاء دور يوسف في العناق سأل متأثراً: ألن نرى أبا أيمن مجدداً؟!

- فضحـك خليـل: سـبقك بهـا معاويـة وتوفيـق وأقولهـا لـك أيضاً: سـيكون آخـر من نـراه.

- فلـم يشـأ يوسـف صاحـب النكتـة أن يمـرر اللحظـة هكـذا دون مداخلة رائعـة موجهـاً حديثـه لي: عنـدي فكرة! مـا رأيك أن ننقص لـك من حصصنا في الحقائـب الثلاث وتصبـح رابعنا؟!

- فنظـرت إلى وجـه خليـل الـذي قابـل المقترح اللطيـف بالابتسـام والقول: دور «أبي أيمـن» مرتبـط بـدور الشـيخ محمـود، فاحتـج محمـود: ولمـاذا لا تنقصـون لي؟! – فلـوّح يوسـف وبشـار بإصبعـي السـبابة رفضـاً دون أن يتكلما .

- تركـتُ الشـقة مغـادراً وقلبـي عالـق بصـدر خليـل، أحـاول أن أركـز في أخطـر جـزء مـن العمـل دون جـدوى حتـى التقيـت بمهند الطاهـر لترتيب الخطـوات المنوطـة بـه: مـاذا؟!. – ارتجـت السـيارة مـن صرخـة مهنّـد.

– أتمزح أم تقول الصحيح؟!

– فأجبته وأنا أقود باتجاه محطة رام الله.

– نابلس! لقد بيّت النية منذ بعيد وضحك علينا جميعاً.

فطلـب منـي الرجـوع به إلى الشـقة فقلت لـه: لا تتعب نفسـك، فلم يملك إلا الابتسـام: اللـه أكـبر، اللـه أكـبر.. ثـم ألزمـه الخـبرُ الصمت ليكـون ثالث شـخص يعلـم بقـرار خليـل مـا دون يوسـف وبشار...الشـهيدان مـع وقـف التنفيذ.



الحاجز الطيَّار والدموع الصامتة

نفـذت ومهنـد خطـة الاسـتطلاع المدروسـة مسـبقاً والتـي طبقناهـا بنجاح في عمليـة محنـي يهـودا تحسـباً لأي إجـراءاتٍ غـير اعتياديـة للعـدو عـلى الطرقـات التـي سنسـلكها باتجاه الهدف، وفي أحد الشـوارع الأساسـية التي سـنعبرها مـا بـين مخيـم شـعفاط والجسر الـذي يعتـلي التلـة الفرنسـية، حـدث الـذي نخشـاه!: حاجـزٌ طيّـار «مفاجـئ» لقـوات العـدو يفحـص السـيّارات العابـرة باتجـاه القـدس!!. – يـا إلهـي العظيم – قلـت وكل حالي انقلـب مـرة واحـدة فهـذه الطريـق المضمونة والوحيـدة لعبـور المجموعة فطريـق «حاجـز الضاحيـة» قـرب الـرام مخاطـرة كبـيرة لا يمكننـي سـلوكه وهـذا يعني؟!!

– لا لا، سابقٌ لأوانه اتخاذ قرار الإلغاء بعد هذا التعب.

- فيحـاورني رجـل الأمن الذي يسـكن رأسي: لا تتهور فلسـت مضطراً للعب بالنـار، المجموعـة لم تتحـرك مـن الشـقة و.. فأسـكته وأنـا أسـأل السـائق الـذي وقـف عـلى جانـب الطريق: مـاذا سـتفعل الآن؟!

- فأجابنـي وهـو ينعطـف يميناً: سـترى الآن بعينـك!. حيـث دخـل أزقـة مخيـم شـعفاط وشـوارعه الضيّقـة وبقية الـركاب يتصرفون بشـكل طبيعي وكأنهـم معتـادون عـلى ذلـك، وبعد دقائـق معـدودة خرجت السـيّارة من طريـق فرعـي للمخيم فأصبحنا على الشـارع الرئيس المؤدي إلى مسـتوطنة

«معاليه أدوميم» فسلكناه باتجاه الجسر وجنود الحاجز الطيّار على يسارنا ووجوههم في الاتجاه المعاكس، ولدى عودتي إلى رام الله اتخذت أصعب القرارات الميدانية على الإطلاق: أرسل الأول - أعطيت الإشارة لمهند متوكلاً على الله، تم تقليب الأمر على قاعدة المخاطرة المقبولة، فعملنا العسكري قائم على المخاطرة العاقلة ولولا تصرف السائق لكان القرار على النقيض.

- وعلى الطرف الآخر من العمل «ما قبل إعطاء الإشارة لمهند»، كانت الشقة في حالة استنفار تنفيذي وعاطفي في آنٍ واحد بعد أن بلع محمود بصعوبة بالغة قرار خليل الصاعق فسكت عن الخوض فيه حتى لا يكون سبباً في انخفاض المعنويات لدى الثلاثة: ليس أمامنا غيرك!! - قال خليل مخاطباً محمود وهو يحمل بين يديه أدوات التجميل، ولم يكد ينهي طلبه الذي كان مفهوماً ضمناً حتى خرج بشّار من الغرفة مرتدياً الفستان وهو يضحك على نفسه: وها أنا جاهز، أقصد جاهزة!!

- فعلّق محمود ضاحكاً وهو يتفحصه: لقد تقمصت دور الأنثى ولم تطلي وجهك بعد فكيف عندما تضعين، أقصد تضع الباروكة؟!.
- فاشترك يوسف الذي خرج من غرفته بالحديث: ستصبح أجمل القبيحات لدى العدو!. لم تلق مزحته تجاوباً لدى الثلاثة الذين أطلقوا تصفيرات الإعجاب لهيئته الجديدة: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، أنت بهذا ستوقعنا بمشكلة غير محسوبة؟!

- قال خليل، فردّ بشّار: لا أظن ذلك، لأنني سأقلع عين التي تقترب من حبيبي - تحدّث وهو يشبك ذراعه بذراع يوسف، فردّ الأخير وهو يمسح على يده: بارك الله فيك يا ولدي.

- فصاح محمود وهو يرفع أدوات التجميل بيد والباروكة بيد أخرى: هذا ليس ولدك، هذه صديقتك في الجامعة -ثم نظر باتجاه خليل والضحك يمتزج بالكلام- أخشى أن يخرج الشيخ الساكن في صدر هذا اليوسف في الطريق ويصفع هذه الجميلة؟!. فأجابه وهو يقودهم إلى غرفة المرآة الكبيرة: وأنا أخشى أن نكون سبباً في التأخير فالمجاهد الذي سيصحبنا سيأتي بعد قليل.

- لم يتحلل خليل من دور القائد حتى في أصغر التفاصيل رغم تسليم الأمر إلى محمود، فظلّ يبث روح القائد في تصرفاته وهو يدرك في أعماقه أن رفيق الأخوة والساعد والسلاح محمود في حزنٍ عميق يظهر في عينيه، ولأن الحكاية برمتها صعبة التصديق ظلّ خليل يخفي لحظة ضعفه أمام رجل التواضع الذي قبل أن يقوده شاب يصغره بسنوات عمرية، وحداثة التحاقه بالحركة التي ينتمي إليها منذ الصغر، وبينما كان يتخذ مع الرجال الثلاثة الإجراءات الأمنية من إزالة الماركات التجارية عن كل شيء يرتدونه ومسألة البصمات خاطب محمود: أنت رجل عظيم!

لم يتمالك محمود نفسه فبكى دون أن تسيل العبرات من عينيه، أمسكها هناك، حبسها في مقلتي القائد، كفته الابتسامة دون أن تتحرك شفتاه حتى لا تفضحا ضعفه.

وبينما كنت أنتظر في رام الله، كان مهند الطاهر الذي يرتجف من فكرة المواجهة مع عيني خليل، يطرق باب الشقة وفق المتفق عليه فيفتح له محمود بعد أن نظر من العين السحرية لتحدث المفاجأة لكليهما: أهلًا وسهلًا، أنت هو؟! فابتسم مهند وهو يصافحه بحرارة دون أن ينبس ببنت شفة وعينه إلى الداخل، فنادى محمود على يوسف وبشار وهو

يضع راحته على كتف مهند: تعالا والتقيا بالمجاهد المدني الذي أرهقتم قدميه في جبال عصيرة.

-كان ذلك قبل عام عندما تدرَّب على السلاح وإطلاق النار على يد محمود الذي لم يكن ملثمًا، فخرجا للقائه يتبعهما خليل وثلاثتهم جاهزون للانطلاق ولم يتمكن مهند من رؤيتهم صباحًا لدى إحضار الحقائب: ها، أعطنا رأيك الأولي وبسرعة قبل أن تفكر!!

قالها خليل وهو يخاطب عيني مهند المذهولتين: رائع.

خرجت من فم مهند الذي أتبعها بضحكة لدى تحديقه ببشار، فسأله محمود مازحًا: هل أصلح لمهنة تزيين النساء؟

فأجاب مهند: سأسأل أبا أيمن بعد أن يراها.

ثم ضرب بكفه على صباحه أقصد يراه، فصاح الأربعة: إذن لقد نجح الأمر، وبعد لحظة صمت كانت مليئة بأصدق المشاعر، تعانق خليل ومحمود، وحده اللقاء في الجنة الذي سيكشف لنا ما جرى لحظتها، فأي كلام سيبقى صغيرًا عليهما، ثم كان العناق لمهند: هذا المهند –يوجه خليل حديثه لمحمود- ستزداد حبًا لفلسطين عندما تصحبه وستكتشف قائدًا بالفطرة، أخجلت الكلمات مهند الذي استعجل خليل: يجب أن نتحرك.

سلك مهند الطريق الذي يمر من حيّ المخفية حتى يصل هدفه قرب فندق القصر بجوار جامعة النجاح الوطنية، شعر أثناء سفره بالشوق والحنين اللذين يشعان من عيني خليل الذي يودع كل شيء في المدينة، فلزم الصمت رغم بعض العبارات التي كانت تخرج من فم خليل

يوصيه فيها بمواصلة الجهاد وعدم التوقف والحرص على محمود وعليّ، وعندما ذهب مهند للهاتف العمومي لطلب السيّارة، كان خليل يلقي آخر نظرة على «شارع السكة» الحي الذي شهد طفولته وصباه وأحلامه وكأن المولى -عز وجل- أراد في حكم غيبه أن يركن مهند السيارة في مكان يقابل كل ذلك حتى يلقي السلام على ساكنيه، يعانقهم يقبّل طيفهم ويشكر الله أنه ذاهبٌ فداءً لهم قبل أن يعجز عن فعل ذلك فيحنث بقسمه للأمير مجير الدين.



"القائد في زيارة أخته وكيف يصاغ الحرف المقاتل"

قبل ساعة ونصف من العملية

كثـيرة جنونيـات رأسي، كبرت مع الطفل السـاكن هنـاك منذ ثلاث وعشرين سـنة، فلـما رافقـت القلـم علمـت سرّ الجنون ذاك غـير أنني لم أقتنـع تماماً بـأن هـذا السـبب كفيـل لوحـده بصناعة الجنـون، فـالأدب يصنـع الكاتب الموهـوب لكنّـه إن تجـرد من الثـورة والبندقية أصبح أدباً للرفوف وتسـلية المـرة الواحـدة، أمـا الأديـب المجنـون الـذي أعرفـه لا يسـتقيم لديـه الأدب إلاّ مـع رائحـة البـارود: ضحكـت رغـم توتـري الـذي ازداد بعـد قـرار خليل وازددت جنونـاً وأنـا أنتظـر وصولـه: مرحبـاً سـيدتي، هـل توديـن مصافحـة استشـهادي؟!. - ثـم عدلـت عنهـا فتبـدو رقيقـة القلـب لـن تقـوى عـلى ذلـك: أسـتاذي المحـترم، هـل سـبق أن عانقـت بطلاً سـيصبح بعـد لحظات أشـلاءً مـن أجلـك؟!. - يـا إلهـي ما الـذي يشـغله إلى هذه الدرجـة فيجعله لا يسـمعني؟!. - هـا، ليـس لي غـير هـذا الطفـل جامع صور المشـاهير: هل تـود أخـذ صـورةٍ حصريـة مـع قائـد عظيم لـن يحظى بهـا غيرك؟!

- مـضى الطفـل كـما فعلت السـيدة والأسـتاذ ولم يسـمع أحد جنـون رأسي، فقلـت: مـاذا لـو وقفـت وسـط دوار المنـارة وصحـت في النـاس مناديًا: من أراد شـفاعة استشـهادي أو لمسـه وحتـى تقبيلـه فلينتظر دوره.

- سيخرج أحدهم سائلًا: ومن تكونون حضرتكم؟ سأجيبه: أنا الأديب الذي يعشق الجنون!

- لم أنتبه وأنا سابح في جنونياتي أن صوتًا أنثويًا يلاحقني من الخلف: أبو أيمن! أبو أيمن؟! فالتفت إلى الوراء مصدومًا، يا إله العالمين، من أين خرجت لي هذه المرأة؟ سجينة جنائية سابقة كانت حبيسة السجن الذي أعمل به: مرحبًا، كيف حالك؟!

-بادلتها الترحيب الحار ومفاجأة اللقاء، فقالت وهي تتفحصني من أخمص قدمي إلى رأسي: ما هذه الشياكة؟ هل تركت العمل في الشرطة؟

لم ترني قبل اليوم أرتدي غير زي الشرطة: ما زلت أعمل لكنني مدعو لحفل زفاف وأنا سعيد لرؤيتك بخير، ثم بدأت تتحدث وتتحدث ولم أفلح بالتخلص من هذا الموقف المحرج بسهولة حتى أعانني الله واستأذنت منها منسحبًا من المكان باتجاه نقطة اللقاء، وبينما كنت أفحص السيارات العمومية القادمة من ناحية نابلس، فاجأتني يد تلمس كتفي بلطف من الخلف فاستدرت بسرعة وظني بأنها السجينة مرة أخرى، لكنها لم تكن: السلام عليك يا صاحبي، هبط قلبي أو كاد أن يسقط بين قدمي، حتى في هذه يا خليل؟ وعليكم السلام، جاءني من ناحية دوار المنارة بعد أن طلب من السائق إنزاله بعيدًا عن مكاني وحضر ماشيًا كعارض أزياء، مرتديًا بنطال الجينز و«الفيستة» التي تخفي تحتها سائق الدراجة النارية وصديقته غير المحترمة!! وعلى عينيه نظارة شمسية زادت من وسامته الملفتة، أما القبعة فانسجمت مع حقيبة الكتف التي كان يحملها: هل كل شيء على ما يرام؟ فهززت برأسي وأنا أقوده إلى مكتب نابلس القديم الذي يدخله عابر من حين

إلى آخر، ثم ذهبت لإعطاء الإشارة إلى مهند حتى يرسل يوسف وبشار... المصيبة أن خرسًا يصيبني في اللحظات الحساسة فلا أنطق حرفًا مفيدًا لصناعة جنوني على الورق فيما بعد، ظلّ خليل الاستشهادي، الراحل، الذي سيصبح أشلاءً بعد قليل يلاطفني بابتسامته وهو يعلم أنني أعيش صدمة قراره، وأنا يا لخيبتي أعجز عن صياغة جملة مفيدة: كيف تدبرتم أمر بشّار؟!

- فابتسم ابتسامة عريضة: تكفّل محمود بتزيينه.

- فسألته متشككاً بعد أن رأيت وجنتيه المتوردتين: وهل أتقن ذلك، أقصد، هل نجح في ذلك؟! - فأجابني: سترى ذلك بعد قليل. – ثم واصل الابتسام فقلت في نفسي وأنا أبادله الابتسام: «الله يستر».

– وفجأة! قال لي وهو ينظر إلى الشارع المليء بالسيارات المارة: هل تعلم أن لي أختاً تسكن مدينة رام الله؟!. فأجبته كما يفعل الناس: صحيح؟!.

– فقال وهو ينظر إلى عينيّ: ما رأيك أن نزورها؟!.

– سأعترف بأنني لم أعلم حينها حقيقة نيته ولا أدري ما إن كانت ردة فعلي صحيحة أم لا؟! لأن سلامة العملية هي التي تحدثت عبر وجهي وعينيّ، فأجاب خليل على نفسه: أنا أمزح.

– أريد أن أصفع وجهي وأعض أنفي بنفسي، لماذا لم أفكر جيداً، ربما لو وافقت لارتحت وهدأ ضميري، وسيحدث ما أعتقده في هذا القائد الظاهرة: أأنت مجنون، وهل تراني أختم المسيرة بخرق أمني؟

فأرد عليه: لكنّ يوسف زار شقيقته في العيادة؟!. فيلين قليلاً ثم ما

يلبـث أن يرفـع حاجبيـه لأعـلى بعـد أن أزال النظـارة عـن عينيـه: أبو أيمن، لا تحـاول؟!

– انتظرنـا معـاً خمسًـا وأربعـين دقيقـة، خرجـت وعدت من الشـارع وأكثر شيء أزعجـه وهـو يشـيح بوجهـه: للأسـف، مـا دمنـا بعيديـن عـن اللـه ثم قيمنـا الإسـلامية والعربيـة سـيتأخر النصر.

– قالها بعد أن تكرر مرور فتيات بلباس غير محتشم.

- آه، أمسـكت سـبب جنوني، فلا يعزو ذلك أحدٌ إلى طبائع الأمور وتفلسـف العابريـن عـلى قارعة الأدب: استشـهادي يتحدث قبل أن يعرج إلى السـماء عـن سـلامة القيـم لـدى عصـب الجبهـة الداخلية «المـرأة»؟! من هنـا يولد الأدب وتصنـع الكلمة ويصـاغ الحرف المقاتل.

-اسـتجمعت تركيـزي وسـألته: مـاذا سـنفعل بعـد العمليـة؟! – فخيـوط العمـل جميعهـا معـه، فأجابنـي بثقـة كاملـة: مثلـما فعلنـا دائمـاً.

– فقلت: هذا لا يكفي لإدارة العمل؟

– فابتسـم وهـو يرتـب شـيئاً تحـت ملابسـه: سـأعطيك إيـاه عندمـا نصـل نقطـة الأمان.

– وكان يشير إلى المسدس الذي لم يشأ التخلي عنه حتى في آخر ساعاته.

– حملتـه حتـى لا يحـدث لنـا مكـروه لا سـمح اللـه، أمـا عـن سـؤالك فـلا تقلـق، جميـع الأجوبـة عنـد الشـيخ محمـود فهـو الآن مـكاني ولديـك بنك من الأهـداف.

– ثـم تذكـر أمر: أخي أبو أيمـن، هناك صور فوتوغرافية التقطناها لأنفسـنا

اليـوم، لا تنشروهـا إلا بعد أن يصـل العدو إلى هوياتنا الحقيقية.

-فجـاء دوري بالابتسـام ففهـم خليـل مقصـدي مـن وراء ذلـك لرفضـه اقتراحـي السـابق بـضرورة تصويـر الفيديـو، فقـال: لم أكـن أريد ذلـك، لولا إصرار محمـود سـامحه اللـه.

-ومـع ذلـك – أجبتـه – هـذه خطوة متقدمـة. لم أعلم حقيقـة رفض خليل لفكـرة التصويـر عـلى أهميتهـا في رفـع معنويـات شـعبنا وأمتنـا ونكايـة في العـدو، أهـي الدواعـي الأمنيـة الصرفـة مـا دمنـا لـن نعلـن عـن أسـماء الاستشـهاديين، أم خشـية الريـاء؟!

– سـيجيبني عليهـا يـوم القيامـة مـع أن جميعنـا بـات على يقين بعـد قرار خليـل الاستشـهادي أنـه كان ينشـد كمال الإخـلاص لله.

-تأخرت سـيارة يوسـف وبشـار خمس دقائـق فبقيت عـلى الرصيف أنتظر واللسـان يطلـب العـون من اللـه -عز وجل-.



"بن يهودا ولحن النسف يعزفه الفنّان!"

- لم يصمد صاحب الجَلَد ورباطة الجأش مهند، أمام لوحة المقاومة الجميلة: فدائيةٌ حدّ الجنون الذي تفهمه الشعوب المقهورة وشاعرية صادقة تذرف الدمع على خدّ الحبيب!، لم يتمالك نفسه وعناق الثلاثة يبكيه، يفرحه ويحزنه في آنٍ واحد: ما أقبح الظلم – قال وهو يطلب منهما الاستعجال – يفرّق الأحبة ويدفعنا إلى تغريمه الثمن وسيبقى يدفع الثمن حتى لا يبقى هناك دموع وفراق.

- أرسلهما ثم عاد لاصطحاب قائدنا الجديد الذي جلس في غرفة خليل بمنزل مهند يدعو الله والدمع يبلل موضع سجوده.

ـوأخيراً وصلت سيّارتهما فأعطيت الإشارة لخليل حتى يخرج من المكتب، نزلَ يوسف أولاً فابتسم لدى رؤيتي مقبلاً عليه ثم مدَّ يده في حركة راقية لمساعدة الفتاة بالنزول، إلى حينها لم أستطع رؤية الوجه جيداً حتى صافحتُ يوسف ومددت يدي لمصافحتها فحدثت الكارثة! زلزال من الضحك والبكاء وألم الخاصرتيْن، لم أستطع ضبط نفسي وقد منحاني كل الأسباب لفعل ذلك عندما استقبلاني بابتسامتهما القريبة للضحك وكأنهما عرفا ما سيحدث لي لدى اكتشاف نصف المصيبة التي قام بها محمود على وجه بشار، فتاة قبيحة من غير عالمنا جعلت من وجهها حقل طلاء لمواد التجميل، دفعني خليل من الخلف: اصمد

يـا رجـل- قالهـا وذاتـه يحـاول الامسـاك بضحكـة تريـد الانفجـار- النـاس ينظـرون إليـك، اذهـب لإعطـاء الإشـارة.

ـ صحيـح أن صـوت الضحـك لم يخـرج عـن نطاقـي غـير أن قلبـي كاد أن يخـرج مـن صـدري والمصيبـة أنهـما يحـاولان بصعوبـة إمسـاك نفسـيهما عـن الضحـك وكلـما رفعـتُ عينـيَّ نحو وجه بشـار مـتُ من بـكاء الضحك، وعندمـا عـدت إليهـما طلبـت في لحظـة هـدوء سريعة مـن بشـار أن يُنزل رأسـه للأسـفل حتـى لا يدقق أحد بوجهـه، فقد كان يعتمـر قبعة كبيرة من القـش وعـلى عينيـه نظارةٌ نسـائية كبيرة سـاعدت جيـداً في إخفـاء خريطة أدغـال أفريقيـا، أمـا خليـل فقـد طلـب منـي السـير أمـام المجموعـة اتقـاءً للفضيحـة التـي قد أسـببها.

ـ ركـب يوسـف وبشـار في الكرسي الخلفـي وأنا وخليل في الأوسـط وبالطبع اسـتأجرنا السـيارة لوحدنـا لكـنَّ عـين السـائق ظلـت بعـد تحركنـا تتلصص عـبر المـرآة الداخليـة نحو الفتاة فأدرك خليل ذلك وخاطب يوسـف وبشـار باللغـة الانجليزيـة التـي يتقنها حتى يـصرف انتباهه عنهـا ويخرس فضوله، وقبـل أن نخـرج نهائيـاً مـن مدينـة البـيرة أشـار لي خليـل بعينيـه ناحيـة السـيارة هامسـاً: هنـا كانـت أول عمليـة لي «مسـتوطنة بسـغوت» المقامة عـلى «جبـل الطويـل» -قالهـا مبتسـماً- هنا كانـت بدايـة الطريـق ونهايته أيضـاً، فالقـدس عـلى مرأى القلـب والروح والفؤاد وفارسـها لـن يرتجل عن صهـوة جـواده إلا على أعتـاب البراق.

– ظـلّ قلقـي الـذي أخفيتـه عـن المجموعـة يطـاردني طيلـة الطريـق: هـل يـا تـرى سـيكون الحاجـز الطيّـار موجـوداً أم لا، وهل سـينجح سـلوك أزقة المخيـم حـال وجـوده أم أن العـدو سيكتشـف ذلـك أيضـاً؟!

-طوينـا الطريـق بسرعـة وكأن مركبتنـا عـلى بسـاط سـحري ولمّـا عبرنـا من وسـط قريـة عناتـا التي تصطـف على جانبي مسـارنا!، بـدأت نبضات قلبي تتسـارع وتوشـك أن تخـرج من القفـص الصدري وتشـكوني إلى خليل: هاك الـذي سـلّمته قيـادة المجموعة يخفي عنـك سرّ الحاجـز الطيّار!!

-فأضـع يـدي عـلى صـدري متـوكلاً عـلى اللـه، حسـبنا اللـه ونعـم الوكيـل – حفظناهـا منـذ الصغـر، وكلـما مررنـا بالشـدائد التـي ظننـا بأنهـا الأقسى علينـا دعونـا بهـا حتـى جـاء هـذا الموقـف الـذي لا أحسـد عليـه فتمتمت بهـا «الذيـن قـال لهـم الناس أن الناس قـد جمعوا لكم فاخشـوهم فزادهم ايمانـاً وقالـوا حسـبنا اللـه ونعـم الوكيـل». فسـمع خليـل المقطـع الأخـير مـن الآيـة فرددهـا: حسـبنا اللـه ونعـم الوكيـل.. تزامـن ذلـك مـع مرورنـا مـن أمـام مخيـم شـعفاط، عندهـا فقـط هـدأت نفـسي، وسـكن قلبي لأن الحاجـز العسـكري لم يكـن موجـوداً ذهـب إلى الجحيـم، فصعدنـا جـسر التلـة الفرنسـية ثـم واصلنا السـير حتـى انعطفنا يسـاراً باتجاه حي الشـيخ جـرّاح فمستشـفى العيـون إلى أن دخلنـا شـارع نابلـس لتقـف السـيّارة بنا قـرب موقـف الباصات.

– وعندما نزلنا أربعتنا من السيارة كادت أن تحدث كارثة: الله أكبر.

– قال يوسف على مسمعنا وهو يصك على أسنانه – أولاد الكلب.

- فسـارعت لتهدئتـه: هـذه حافـلات تنقـل أهلنـا في القـدس، هدفنـا ليس هنـا اهـدأ –كان مصفاً لحافلات شركة «أيغد» الصهيونية، فابتسـمنا جميعاً عـلى اندفاعـه ومرّت الحادثة بسـلام، وعلينا لحظتها أن نسـير مسـافة مئتي مـتر حتـى نصـل بـاب العامـود مـع مـا يكتنـف ذلـك مـن خطـورة تحتـاج إلى انضبـاط تـام: سنسـير بشـكل طبيعـي، لـن نأتي بـأي حركة تثير الشـبهة

وسنمر من جانب شرطة العدو وحرس حدوده ولن يوقفنا أحد ما دمنا على ذلك- آه، كل السائحين يحملون كاميرات التصوير المختلفة إلاّ نحن؟! ما أغبى جنوني، كيف لم أطرح الأمر على خليل- الذي سيرفض بالقطع- ربما استطعت اقناعه، زحزحته عن عناده، يا إلهي، كنا بذلك التصوير سنحطم معنويات المحتل ونرفع هم رجالنا ونساءنا وأطفالنا إلى عنان السماء: شابان أنيقان وفتاة حنطية ترتدي أزياء راقية يلعبون الشطرنج على قُرعة أمن العدو النائم!.

- قطعنا المسافة بهدوء تام ونحن نتبادل الابتسامات والناس يسيرون من خلفنا وأمامنا، فيوسف يحمل بيده اليمنى حقيبته الدبلوماسية واليسرى مسطرة هندسية كبيرة، أما الفتاة فتحمل حقيبة كتف جامعية مُزينة بخصائص الفتيات الناعمة وخليل يكتفي بحقيبة الكتب حتى يكون مستعداً لاستخدام المسدس حال الطوارئ والذي أن حدث سيكون في اللحظة التي تنعطف فيها يميناً في باب العامود لدى مرورنا من جانب الجنود ورجال الشرطة، لكنَّ الله يسلم ولم يحدث ما استعدينا له، وبعد عشرة أمتار كنا نركب السيّارة وعيون الثلاثة تغرف عشقاً من أسوار القدس، تقطف آخر أزهار الحُب من جنتها: هل تعرف بالضبط أين ستنزلون في شارع يافا؟!.- يسألني السائق قبل أن يتحرك بنا: بالتأكيد، أمام طريق بن يهودا.

- كنت أجلس إلى جانبه والعظماء الثلاثة في الخلف، ولّما سافر باتجاه الهدف لمسني خليل من الخلف فلتفت للوراء وكان يشير إلى للمسدس بين يديه داخل السيّارة، فكانت أول حلقة في الخطة لم تخضع للنقاش، لذلك عبرَّت عن استحالة الأمر بعينيّ وبعد ثوانٍ معدودة اتخذ خليل

قـراره وعـاود لمـسي مـن الكتـف قائـلاً لي بعينـه: لقـد وضعت المسـدس في الحقيبـة فـلا تقلق.

- سـأعترف!! لأننـي إن لم أفعـل ذلـك سـأخون محـبرتي والقلـم ومـا نفـع كلـماتي إن لم أكـن صادقـاً في لحظـة الحقيقـة؟!.

غـاب الأدب وجنونـه في حـضرة شـارع يافـا ليتحـول إلى خـوفٍ مـشروع، هكـذا كان يـوم معاويـة وتوفيـق ويحـدث اللحظـة وأنـا أعطـي الإشـارة: جهـزوا الأدوات حتـى تكونـوا مسـتعدين لمقابلـة عـزرا!

- نعـم نعـم كخـوف الصحابـة في حصـار المدينـة: أشـهد أن لا إلـه إلا اللـه وأن محمـداً عبـده ورسـوله، فأي خطـأ في الخطوة الأولى معنـاه الندم أنّني لم أصرّ عـلى قبـول عـرض يوسـف بـأن ينقـص لي «أم العبـد» مـن الحقائب الثـلاث!! ولكـن مـا هـذا الهـراء؟! لمـاذا لا أقـل أني خفـت وفقـط، فنيّـة الشـهادة حـاضرة منـذ أن ولدنـا أحـراراً، ومتـى كان الخـوف عيبـاً أو غـير مشروع؟!

- أصرّ خليـل أن يكـون قائـداً حتى آخـر لحظاته فرأيته يسـاعدهما في نزع مفتـاح الأمـان الأول ثـم أعطـاني اشـارة الجهوزيـة الكاملـة بعينيـه وبعـد عـشرات الأمتـار القليلـة مـن لحظـة دخولنـا في شـارع يافـا، طلبـت مـن السـائق التوقـف: توقـف هنـا مـن فضلـك.

- فحاول أن يسير إلى الأمام وهو يقول: هذا المكان ممنوع التوقف فيه.

- فأصريـت عليـه: يـا أسـتاذي توقـف، عزرا سـيأخذ الطلاب من هنـا وأيضاً لا أرى رجـال الشرطة؟!

- فأذعـن مكرهـاً لطلبـي وقـد تقصّـدت اختيار هـذا المـكان المقابل لمدخل

فرعـي يقـود مبـاشرة لطريـق «بـن يهـودا» الخاص بالمشـاة فقـط، متجاوزاً المدخـل الرئيـسي المتواجـد عـلى بدايتـه حـرس حـدود العـدو: هيا شـباب، انتظـروا عـزرا في هـذا المكان.

- وكنـت أشـير بيـدي إلى الطريـق المـليء بشـذّاذ الآفـاق، قراصنـة الأحـلام وقتلـة الأطفـال الذيـن يظنون بـأن دم أطفالنا لن يلاحقهـم، فأومأ لي خليل برأسـه ولا زالـت ابتسـامته الرائعـة عـلى وجهـه وعينـاه هادئتـان واثقتـان تعانقـان شـغاف قلبـي فلـم أدري مـا أفعـل، تحوّلـت اللحظـة إلى شيء لا يمكننـي وصفـه سـأكذب إن حاولـت وصفـه، عـالم آخـر مـن المشـاعر بـدّد الخـوف الـذي يسـكنني قبـل لحظـات فخرجـت مـن صدري ثـلاث كلمات ويـدي تصافحـه وهـو ينـزل مـن السـيارة: سـلّم عـلى أخـي!. - فتوسـعت ابتسـامته وهـو يضغـط عـلى يدي يأخـذني على بـاب الجنة معه، ثـم أعود خائباً.

- صـاح السـائق عـلى يوسـف وهـو ينـزل من ناحيـة اليسـار الممنوعـة: ألا يكفـي أننـا مخالفـون في وقفتنا؟!

- تابعتهـم وهـم يقطعـون الشـارع بروعتهـم وثباتهـم ونصاعـة هدفهـم والسـائق يتحـرك بسرعـة وهـو يخاطبنـي: سـتدفع أجـرة إضافيـة لقـاء إعادتـك.

– أجبتـه بلسـاني فقـط لأن عقـلي وقلبـي وروحـي دخلـت إلى هنـاك وهم يتوزعـون عـلى طـول الطريق، يحـررون الوطن لدقائـق، يعلنـون العاصمة هنـاك ويكتبـون وثيقـة الاسـتقلال كما يجب! أمـا التوقيع فسـيمهره خليل أولاً، سـيركل قـبر «بـن غوريـون» بقدمـه صارخـاً: انهـض أيهـا السـارق، سـأمزق اليـوم وثيقـة اغتصابـك لبلـدي، أعلمـت؟! لقـد مـات مـن بعـدك

أقرانـك الموقعـين وبقي وطنـي حيّاً، أخبر عجـوزك الشـمطاء «غولدا مائير» أن عمـر جـدي أطـول مـن عمركـما معاً فـلا زال يضرب بعـكازه على الأرض وقـد أورثنـي ذاكـرة لا تنـسى، احترقا بقبركما غيظـاً واطربا عـلى عزفنا الذي سـيبدأ في الحـال فوطنـي الجميـل بدونكـما بـدأ يعود.

- وقـف خليـل ينظـر المـكان الممتد على طول بـصره، يعدّ أنفـاس العابرين هنـاك، يقـرأ الوجـوه، يتفرسـها، يبحـث عـن سـبب يـرده عنهـا، يفتـش عـن عـذر يمنعـه عنهـا لكنهـا لا تكـترث، تمـرّ عنـه بـلا خجـل، تقتـل فيـه أمـل الرجـوع عنهـا، صفـراء كانـت، سـوداء حمـراء حنطيـة وألـوان غريبـة كسـاكنيها، تحمـل في قسـماتها حكايتـه القديمـة. سـحقاً!! صرخ في أعـماق وجعـه فارتـدت ألمـاً: مَـن أقحمـك في عينـيّ اللحظـة؟! ألـن تكفـي عـن كاهـلي؟! إنهـا لحظـة الصفر، ألا تؤمنـين بتصفير الحكايـات؟! كان عليك أن تردينـي عنـك قبيـل لحظـات عندما كنـت تملكين الخيـار، خيـار الكفّ عن طعنـي، قتـلي، تمزيقـي، زرع المـوت في الطرقـات، والآن..!!

- كان يرقـب يوسـف وبشـار وهـما يتموضعـان أقـصى الطريـق وأوسـطه الممتلـئ عـن بكـرة أبيـه بالمـارة حيـث الاكتظـاظ المعتـاد في هـذه السـاعة مـن بعـد الظهـيرة، لم يغيبـا عـن ناظريـه راقبهـما جيـداً وهـو يتخـذ بداية الطريـق نقطتـه الأهـم ولمـا تأكـد بـأن الخطـة تسـير كـما رسـمها بنفسـه، ابتسـم كعادتـه التـي لم تفارقـه حتـى لحظـة استشـهاده ثـم قـال قبـل أن يضغـط عـلى كبسـة التفجير: «ومـا رميت اذ رميـت ولكنّ الله رمى» بسـم اللـه، فتحـول المـكان إلى لوحة مـن الفن الفلسـطيني الخالص والذي رسـم القـدس بـدون الغربـاء الذيـن دفعـوا جـزءاً مـن فاتـورة الحسـاب الطويلة قبـل أن تشـطبهم ريشـة الفنـان خليـل، لحظتهـا! هـزّني صـوت الانفجـار

الـذي هـزّ القـدس بأكملهـا فاهتزت معه أسـوارها ومسـاجدها وكنائسـها، فكبّرت في صـدري ولم أعـد أسـمع صـوت السـائق لأن خليطـاً من المشـاعر قـد تفجّـر هنـاك صارخـاً: يـا ليتنـي كنـت معهم.

- كان يوسـف يشـهد رائعـة القائـد وهـي تتجـلى أمامـه مبعـثرة أجسـاد المحتلـين في كل ناحيـة ناثـرة ظلمهـم وعدوانهـم عـلى الجـدران وكثيرهـم يهـرب مـن جميـع الجهـات، مـن لم تصبه الشـظايا المبـاشرة كوتـه العملية في وعيـه المخـدّر فأخـذ بالـصراخ والبـكاء والعويل مما دفع يوسـف المصك عـلى أسـنانه: لم يكتمـل المشـهد بعـد، اللـه أكـبر اللـه أكـبر - ظـلّ يرددهـا والشـهادة تتراقـص أمـام عينيـه، الأمـر الـذي لم يسـتطع عليـه صـبراً فاتخذ قـراره وهـم يتمتـم: سـامحيني يـا بـلادي لـن أصـبر حتـى يتجمـع قـادة الجيـش والشرطـة ..

وفي لحظـة كتـب فيهـا اسـم الوطـن عـلى صفحـة الشـمس التـي كانـت تضحـك لـه!

وقـف وسـط الطريـق ويـداه ترفعـان الحقيبـة لأعـلى ثـم رتّـل قصيـدة النسـف الخالـدة «ومـا رميـت إذ رميـت ولكـن اللـه رمـى - بسـم اللـه» فأكمـل الجنـون الـذي أصـاب الصهاينـة فجعلهـم يفقـدون السـيطرة عـلى وهـم اسـتقرارهم فقـد كان انفجـاره شـديداً صاعقـاً مزلـزلاً، لم يـترك أحـداً دون أن ينـال جـزءاً مـن جحيمـه الـذي يذيقونـه لشـعبنا منـذ عـشرات السـنين.

- حينهـا وخليـل ويوسـف يعلنـان دولة فلسـطين في شـارع يافا الـذي يكاد أن يعانـق المسـجد الأقـصى، التهبـت مشـاعر بشـار الـذي سـينتظر مجـيء رئيـس وزراء العـدو «بنيامـين نتنياهـو» كـما جـرت العـادة حتـى يصنـع

الزلـزال الـذي خطـط له القائـد خليل ويعلّمه درسـاً عن الفلسـطيني الذي لا ينـسى، فلـم يعـد قـادراً عـلى الانتظـار أكـثر ورفيقـاه صنعا عرسـهما أمام ناظريـه كتبا اسـميهما في سـجل الخالديـن ورحلا وهما يلقيـان التحية على سـاحة الـبراق، قتلتـه فكـرة أن يبقـى وحيـداً يشـاركه المغتصـب والجـلاد والقاتـل الحياة فالحر لا يسـتقيم عيشـه في حياة واحـدة مع محتله فكيف في مـكان واحـد؟!، لـذا اندفـع كالصقـر الجـارح يبحـث عـن نقطة شـديدة الألم حتـى يكتـب السـطر الأخـير في حكايـة اليوم ويعلـن للعالم: أنـا الفلاح الـذي يعشـق الأرض أتيـت مـن ترابهـا المجبول بدم أجـدادي بعـرق الثوار وحوافـر خيـل المجاهدين أنـا يافا وحيفا عـكا وصفد، أنا أنسـام الصباحات المسروقـة أتيـت حتـى أعيـدني إلى حاكـورة جـدتي في بـئر السـبع فـلا طـاب المـوت إلا شـهادة وقـبر هنـاك، ثم رفع حقيبته إلى مسـتوى الـرؤوس المليئة بالظلـم والقتـل والكراهية وصدح بتوشـيحة الأحرار: «ومـا رميت إذ رميت ولكـن اللـه رمـى – بسـم الله». فاحترقـت أحـلام صهيون وتمزقـت أوهامه وسـال دم كذبـه عـلى الأرض. وعندمـا سـمعت صـوت الانفجـار الثالـث والسـائق يخـرج بي مـن الشـطر الغـربي للمدينـة المحتلة أدركـت حينها أني الخـاسر الأوحـد وقـد ربح بيـع خليـل ورفيقيه.

تمـَّـت بحــمد الله

بداية الكتابة: 2017/10/23

إتمــام الكتابة: 2018/06/03

| أعلن الاحتلال عن وقوع أكثر من مئتي صهيوني ما بين قتيل وجريح |

تعقيب

حـين يقضي الشـهيد نحبه ينال عـن ربه حياة، يراق دمعـه ويعقر جواده... ويشـهد لـه صـدور المؤمنـين، ولأنّ اللـه يصطفـي خـيرة عبـاده للشـهادة وعبـق التاريـخ الجاهـر، والحكايـة أن أخـي المجاهـد عـمار الزبـن شـهادة حيـة مـن أحـد أبطـال وحـدة الشـهداء... ومناداتـه أبـو أيمن الـذي تشرّف بصحبـة الشـهداء حتـى آخـر أنفاسـهم المباركـة عـلى ثـرى الأقـصى المبارك.

تكشـف الروايـة لأول مـرة اللثـام بعـد 22 عامًـا عـن وجـوه نـاضرة سـطّر أصحابهـا بصمـت صفحـات عـزٍّ في سـاحات المقاومـة والجهـاد ورحلـوا إلى جـوار ربهـم ولمّـا يُكشَـف الـسر بعد.

خليـل الشريـف القائـد المجاهـد والشـهيد العنيـد بقـي شـبحاً يعـذّب الاحتـلال مطـارداً وشـهيداً، الشـاب الجامعـي الأنيـق الذي تحـوّل فجأة إلى قائـد عسـكري وقـف عـلى رأس أكـبر خلايا عز الدين القسـام التـي دوّخت الاحتـلال عـام 1997م ورفعـت لـواء تحريـر الإمـام الشـيخ أحمـد ياسـين، فبـارك اللـه في دمـاء شـهدائها في القـدس وطمـس اللـه عـلى أبصـار قـادة الكيـان الذيـن دفعهـم العجـز للإنتقـام، فنجّى اللـه الأخ أبو الوليـد وتحرّر الشـيخ الإمام.

نسـيم أبـو الـروس وجـاسر سـمارو أبطـال وحـدة الهندسـة، مهنـد الطاهر ومحمـود أبـو الهنّـود كوابيـس الاحتـلال المرعبـة، الأقـمار الأربعـة معاوية

جرارعـة وتوفيـق ياسـين، يوسـف الشـولي وبشـار صوالحـة وهـم يصنعون الحيـاة عـلى طريقتهـم الخاصة...

وأخـيراً الشـيخ القائد يوسـف السركجي رجـل بأمّة العـالم والقائد والمجاهد في بيتـه المتواضع صنع المجاهـدون الحكاية.

لقـد تمكّـن أخـي عـمار أن يُعيـد نبض الأحـداث وأن يُعيـد لها الحيـاة بعد أن عـاد أبـو أيمـن وقـدّم لنـا الروايـة بحلّـةٍ جديـدة مسـتخدِماً موهبتـه القصصيـة المتميّـزة ليضيف إلى أدب المقاومة إضافة نوعيّة سـتبقى شـاهداً حيّـاً للأجيـال الوارثـة البندقيـة في مسـيرتها المباركـة نحـو النـصر والتحرير بـإذن الله.

معاذ بلال (أبو الشريف)

تعقيب المؤلّف

في البداية، أحمد الله تعالى أن أعانني على إتمام النص ولا أقول الحكاية!!

فالقصة التي بدأها الشهيد خليل الشريف لم تنته برائعته في «بن يهودا» وسيكون لزاماً وفرضاً عليّ أن أكمل الحكاية في نصٍّ آخر، لأنّ روائع إخوانه وتلامذته امتدت من بعده لتزرع الخير لشعبنا والموت لغاصب أرضنا ومقدّساتنا، فمتى سيكون ذلك؟! الله أعلم.

سأعترف قبل إراحة القارئ الكريم بالإجابة عن بعض الأسئلة المهمة التي تدور في رأسه، أنّ أصعب أنواع الكتابة الأدبية، الكتابة في أمر كنت جزءاً منه وهذا ما يدفعني إلى التأجيل المتكرر لعشرين عاماً رغم إلحاح الكثيرين لفعل ذلك ولمّا حانت اللحظة المناسبة تفجّر كل شيء مرّة واحدة.

أول أمر أحبّ الحديث فيه أنّ الاحتلال الصهيوني اتخذ قراراً سريًّا بعد عملية «محني يهودا» باغتيال الأستاذ المجاهد «خالد مشعل» رئيس المكتب السياسي لحركة حماس آنذاك، والمقيم في عمان، ردّاً على الضربات الموجعة التي تلقّاها وجاءت عملية «بن يهودا» في خضمّ التجهيز لذلك، وأثناء التنفيذ فشلت محاولة الاغتيال وقام حارس الأستاذ بملاحقة رجليّ

الموساد والسيطرة عليهما، حيث جرت بعدها صفقة رعاها الملك حسين يتم بموجبها تسليم عميليّ الموساد مقابل تزويد الأردن بالترياق المضاد للسم الذي تمّ رشّه في أذن الأستاذ وإطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين مؤسس حركة حماس، لم نملك حينها ونحن نرى الشيخ حُرّاً بعد فشل عشرات المحاولات لتحريره، إلّا أن نسجد شكراً لله فقد شاء المولى أن كانت دماء خليل وإخوانه سبباً في حرّيته، لكنّ المجاهد معاذ بلال ظلّ وفيّا كإخوانه لقضيّة تحرير الأسرى، ونسّق مع الشهيد القائد عادل عوض الله مسؤول القسام وسط وجنوب الضفة الغربية في حينها لتنفيذ عملية أسرٍ لتحقيق الهدف المنشود، لكنّ الأمر لم ينجح، وكان بداية تشكيل قيادة موحّدة لكتائب القسّام تجمع أطراف العمل حيث انتقل محمود أبو الهنود إلى مدينة الخليل في ضيافة الشهيد القائد عبد الله القواسمي، وتمّ التواصل مع الشهيد القائد محي الدين الشريف وسط الضفة على أن يكون التنسيق بين الجهاز العسكريّ في نابلس ومثيله في الوسط والجنوب على صعيد القادة وليس دمجاً للمجموعات، لكنّ الفكرة الطموحة لم يُكتب لها النجاح بسبب الضربات المتلاحقة من جانب العدو.

توصّل العدوّ لأسماء الشهداء الخمسة بعد عدّة أشهر من الحرب الأمنيّة والتمويه عليه حيثُ هدم البيوت واعتقل أفراداً من عائلاتهم وأصبح القائد محمود أبو هنود أبرز مطارد للعدوّ في الضفة المحتلة، وتمّ كشف الجهاز العسكريّ في نابلس في كانون الثاني لعام 1998، نتيجة

الأخطاء التي ارتُكِبت حيث اعتُقِل المجاهدون معاذ بلال وأبو أيمن والمهندس أيمن حلاوة لدى العدوّ الصهيونيّ ومازال أبو أيمن ومعاذ في الأسر حتى كتابة هذه الأسطر وأطلق سراح أيمن حلاوة بعد ثلاثين شهراً لعدم ثبوت شيء ضده، فيما اعتقلت أجهزة أمن السلطة الفلسطينية الشيخ يوسف السركجي ومهند الطاهر ونسيم أبو الروس وجاسر سمارو وطاهر جرارعة وبعض المساعدين حيث تعرّضوا للتعذيب والعزل ومكثوا ثلاث سنوات كاملة حتى تحرّروا بفعل الضغط الجماهيري مطلع انتفاضة الأقصى 2001م. وبقي محمود مطارداً لقوات الاحتلال حتى خوضه معركة مع العدوّ الصهيوني في قريته عصيرة الشماليّة عام 2001 وقتله ثلاثة جنود واعتقاله من جانب أجهزة أمن السلطة الفلسطينية والحكم عليه (12) عاماً حيث نجا أثناء مكوثه في سجن السلطة من القصف الصهيونيّ مطلع انتفاضة الأقصى والذي استشهد فيه 12 شرطيّا، مما دفع السلطة إلى إطلاق سراحه ليقود مع إخوانه العمل العسكري في انتفاضة الأقصى وينجو من عدّة محاولات لاغتياله.

أمّا أيمن حلاوة فقد صدقت فيه فراسة خليل لقيادته العمل العسكري بصورة فاعلة في انتفاضة الأقصى واغتياله بتاريخ 2001/10/22، وقد أطلق عليه الشيخ الإمام أحمد ياسين لقب المهندس الثالث بعد يحيى عيّاش ومحي الدين الشريف، أمّا الشيخ يوسف السركجي فقد التحق بالمطاردين ليقوم بذات الدور المركزي في كتائب القسام حتى استشهاده بتاريخ 2002/1/22 مع المهندسين نسيم أبو الروس وجاسر سمارو اللذين

تـركا بصمـة عظيمـة في العمل العسـكري وقد استُشـهد برفقتهـم المجاهد كريـم مفارجـة، ولم يكـن مهنـد الطاهـر بأقـلّ أثـراً مـن إخوانـه حيـث برز في انتفاضـة الأقـصى مـما دفـع رئيـس وزراء العدو آنـذاك أرئيل شـارون ألى القـول عنـه بعـد استشـهاده ورفيقه عـماد الديـن دروزة في معركـة طاحنة في نابلـس اليـوم تـمّ قتـل «آلة المـوت» المسـمّاة مهند الطاهر. لكنّ الشـيخ الإمـام أحمد ياسـين أطلـق عليه لقـب «المهنـدس الرابع»..

وتشـاء الأقدار أن تفشـل عملية استشهادية بعد «بن يهودا» كان سينفذها «طاهـر جرارعـة» خامـس مجموعـة عصيرة الشـمالية بسـبب اعتقاله قبل ليلـة الـشروع بالتنفيـذ ليلقـى اللـه شـهيداً في انتفاضـة الأقـصى وقـد كان رفيقـاً لمهنـد الطاهـر في أعمالـه الجهاديـة، أمّا أمجـد الحنّـاوي الذي مكث في سـجون الأجهـزة الأمنيـة الفلسـطينية في أريحـا أكـثر مـن سـت سـنوات وشـارك خليـل في قتـل مسـتوطنين بدايـة العمـل في رام الله، فقـد كان آخر مـن لقـي الله شـهيداً مـن أبطـال الرواية، رحمهـم الله.

أصعـب أمـر واجهـه محمـود وأبـو أيمـن بعـد عمليـة «بـن يهـودا»: إبـلاغ الجهـاز العسـكري في المدينـة ثمّ خـارج الوطن المحتل، نبأ استشـهاد القائد الأول خليـل الشريـف؟! فلـم يسـتوعب أحـد أنّهـما لم يمنعـا ذلـك لمكانتـه المركزية في العمل، وقد قال فيه الشـيخ المجاهد الشـهيد يوسـف السركجي: «لم ألتـقِ بقائـد كخليـل الشريـف، لقـد خسرتـه المقاومـة باكرًا، لكـنّ قراره كان صائبًـا»، أمّـا المهنـدس أيمـن حلاوة فقـد كانت ردة فعلـه مختلفة لدى معرفـة الأمـر مـن «أبي أيمـن» حيـث ظلّ يطـارد حقيقـة اختفـاء خليل ولم

يقتنـع بـكل قصص التمويـه: «أريد أن أنفّـذ عملية استشـهاديّة»، تمّ رفض طلبـه بشـدّة رغـم إلحاحـه وتهديداتـه بتنفيـذ عمليـة بسـكين وهـدأ بعد ضمـه إلى العمـل في مجموعـة «أبـو أيمـن» حيـث طلـب تعليمـه كل شيء فتلقّـى فـن صناعـة «أم العبـد» من الشـهيد مهنـد الطاهر...الخ.

ولـن أحـرق أول فصـل من الروايـة القادمة، إذا كتب الله لنـا الحياة في ليلة «بـن يهـودا» قامت أجهـزة السـلطة الفلسـطينية الأمنية بحملـة اعتقالات سياسـية وحـدث أمر خطير جداً سـيكون أول سـطر في الروايـة القادمة.

بعـد خمسـة عـشر عامـاً عـلى عمليّتـيّ «محنـي يهودا وبـن يهـودا» أجرت صحيفـة «يديعـوت أحرنـوت» الصهيونيـة مقابلـة مـع رئيـس الشـاباك الجديـد آنـذاك المجـرم «يـورام كوهين» والذي كان يشـغل منصبـاً رفيعـاً في الجهـاز زمـن العمليتـين، وقـد سـألته الصحيفـة عـن أبـرز حـدث لا يمكنك نسـيانه فأجـاب «خليّـة عصـيرة الشـمالية»! لقـد أرهقونـا بالبحـث عنهـم لاسـتخدامهم التمويـه الدقيـق الـذي لم يسـبق أن رأينـاه»... أمّـا بعـد..

أشـكر في نهايـة التعقيـب أخي وحبيبـي في الله «معاذ بـلال» على تزويدي بـدوره ودور مجموعتـه في تلـك الفـترة، والشـكر موصـول لـكل الذيـن سـاعدوني بالنسـخ وتحريـر المخطوطـة «الروايـة» مـن الأسر بالطريقـة المناسـبة، وإلى الذيـن قدّمـوا لي النّصح وهـم كثر وثوابهم جميعـاً عند الله.

كـما أشـكر عـلى وجـه خـاص الأسـتاذة الصحفيّـة «ياسـمين محمـود عنبر» عـلى دورهـا في الطباعة والمراجعـة والتدقيق اللغوي اسـتمراراً لما قدّمته في

رواياتنـا الأخـيرة «الزمـرة» وتقدمـه من مسـاعدة كابنـة ثالثة لنا.

أمّـا عـن أعظـم الهدايـا التـي يمكـن للكاتـب أن يتـشرف بالحصـول عليهـا كلـمات مـن ذهـب كتبتها لنا «خنسـاء فلسـطين» «أم نضـال فرحات» قبل ثلاثـة عـشر عامـاً كمقدّمـة لمشروع كتـاب يحكي قصـة أبطـال الرواية وكان واسـطتنا في ذلـك حبيبنـا وصاحبنـا وسـام فرحـات نجـل الخنسـاء والـذي تحـرّر مـن بيننا في سـجن هداريم ولكـنّ الظروف والصعوبـات لم تُتِح نشر الكتـاب فتحـوّل المـشروع إلى روايـة، فرحـم اللـه الخنسـاء ورزقهـا وأمّهاتنا وآبائنـا وشـهدائنا الفـردوس الأعـلى مـن الجنة، والحمـد للـه رب العالمين.

عمّار الزبن
سجون العدوّ الصهيوني - بئر السبع
صحراء النقب - فلسطين المحتلة
28 رمضان 1439هـ - 13 حزيران 2018م



تمت بحمد الله



الفهرس





بطاقة تعريف بالكاتب

- **عمار عبد الرحمن الزبن.**

- مواليد مدينة نابلس في فلسطين المحتلة عام 1975م.

- متزوج وله 4 أبناء بشائر النصر وبيسان، (وسفراء الحرية) مهند وصلاح الدين.

- معتقل منذ تاريخ 1998/01/11، إضافة إلى ثلاث سنوات في اعتقالين سابقين،وأصدرت محكمة صهيونية ضده حكما بالسجن ل(26) مؤبدًا و(25) عامًا بتهمة المسؤولية عن تنفيذ عمليتي «محني يهودا وبن يهودا» اللتان نفذتهما كتائب القسام في مدينة القدس المحتلة عام 1997م.

- استشهدت والدته في عام 2004 بعد مشاركتها في إضراب عن الطعام تضامناً مع الأسرى في سجون الاحتلال.

- له العديد من المؤلفات والروايات أهمها: «عندما يزهر البرتقال» الحائزة على جائزة الثقافة العربية، ورواية «خلف الخطوط»، و«الزُّمرة» والعديد من القصص القصيرة والمقالات الأدبية والسياسية.